فوزي الخطبا

شهداء النهضة العربية

دراسات وثائقية



شهداء النهضة العربية

فوزي الخطبا

شهداء النهضة العربية

دراسات وثائقية

تقديم

الدكتور: خالد الكركي

هذا الكتاب جديد للباحث فوزي الخطيب، وجديدةٌ في موضوعه النبيل. وهو سيرة شهداء النهضة العربية في أوائل هذا القرن حين رفعوا راية ثورة العرب الكبرى بأرجوان دمهم وهم يصعدون إلى المشانق في دمشق وبيروت وعاليه منشدين، ثم يتقدمون إلى الموت كأنهم يردون عليه من ظمأ، ويتزاحمون على أعواد المشانق "كتزاحم الإبل العطاش بمورد".

أقول، هذا كتاب طيّب النوايا، وفيه جد في البحث التدقيق حمل المؤلف إلى مكتبات كثيرة، وسافر عبر كتب نادرة وصحف متنوعة، وعلى الرغم من أن هذا الجهد لم يأخذ صورته الأكاديمية الدقيقة في الحواشي أو الملاحق، فإنه يظل حاضراً في صفحات الكتاب التي تذكّر بقوافل الشهداء؛ سيرهم، وأخبارهم، وبطولاتهم، وإبداعاتهم، كي تشكل من هذا كلّه منارة عالية "تستنهض الوادي صباح مساء".

أقول أيضاً إن هذا الكتاب طواف نافع القارئ العربي وهو يقف على عتبة قرن جديد، يقرأ تاريخ أمته في القرن العشرين، ويحمل معه من رموزه وإبداعه زاداً للرحلة القادمة، ولا أظنه سيجد أفضل من كتاب الشهداء أنفسهم حاضرين، مصداقاً لقوله تعالى في كتابه الكريم:

"ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون". صدق الله العظيم.

فسلام على شهداء الأمة على مدى زمنها البعيد والقريب،

وسلامٌ على كل من حمل روحه على راحتيه وقدّمها في سبيل الله والوطن،

وسلام على السيوف والرايات التي شقّت أستار العتمة عن تاريخ الأمة، وردّت عنها الغزاة.

سلامٌ من الروح والريحان لشهداء النهضة الذين تجمعت ذكرياتهم بين دفتي هذا الكتاب، وكأن جميل صدقي الزهراوي صاحب القصيدة الكبيرة "النائحة" يهتف بهمك

علـى كـل عـودٍ صـاحبٌ وخليـلُ ... وفي كـلّ بيـتٍ رنّـةٌ وعويـلُ

كـأنّ وجـوه القـومِ فـوقَ جـذوعِهم ... نجـومُ سمـاءٍ في الصـباحِ أُفـولُ

* * * * *

مقدمة

شهداء النهضة العربية هم نخبة من رموزنا وأعلامنا، وهم الذين لمست الحياة المريرة قلوبهم بجمرة مشتعلة، فاتقدت قلوبهم بالنار، وهم الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل القومية العربية، واليقظة الفكرية والتحرر من قيود العزلة، وكأنهم خلقوا لغيرهم، ليصوغوا من شقائهم وإبائهم وبؤسهم ومرارة حياتهم قناديل هدى ومشاعل نور، يُغيرون ما اسودّ من وجه التاريخ في زمن غلب فيه السواد على معظمه. إن قصة حياتهم صفحةٌ رائحةٌ من صفحات اليقظة العربية الحديثة. عشقوا الحرية، وأيقنوا أن الرؤية الصحيحة لمسار الحركة التاريخ هي الثورة، وأنها الوعي الحقيقي لتقدم المجتمع ونهضة، فلم يتقبلوا الواقع المر بل تمردوا عليه ورفضوه، وتأججت في نفوسهم شعلة الثورة وضحوا من جلها بكل ما يملكون، من أجل انطلاقة جديدة ووثبة عارمة حتى تنهض الأمة لاسترداد مكانتها تحت الشمس.

وفي اعتقادي أن هؤلاء الشهداء ورفاقهم في النضال والكفاح من أعلام القومية العربية لم ينالوا ما يستحقون، من الدراسة والبحث والتنقيب، فحمل كفاحهم الطويل ونضالهم المرير وتضحياتهم الجسام، سجلاً يُسمى النسيان، وتبقى مسؤولية نشر مآثرهم وآثارهم على عاتقنا كي تعرف ما قاموه من معاناة في سبيل أمتهم الماجدة. ومن هذه القناعة وطدت علاقتي بشهداء وأعلام القومية العربية الذين لم يتوانوا عن البذل والعطاء في سبيل الحرية والفداء والتضحية لهذه الأمة العظيمة.

إن الغربيين قد وجدوا من رجالهم من ينقب عن أعلامهم ويستقصي مناقبهم ومجدهم، ولم يقف الأمر عند حد ذلك، بل بالغوا في إبراز آثارهم ومآثرهم وتغاضوا عن مثالبهم، لبلوغ العظمة والمجد والكمال. أما نحن العرب فكأن بيننا وبين رموزنا وأعلامنا حواجز مغلقة، حالت دون معرفة ما قدموه من تضحيات جسام في سبيل رفعة هذه الأمة.

ولكن السؤال الذي يستيقظ في هذا المجال: ما الأسباب التي أدت إلى إعدام خيرة شباب العرب؟ وما مسوغات إعدام جماعة الاتحاد والترقي لهم؟ لعل من أهم

الأسباب أنه عندما تولى جمال باشا السفاح حكم البلاد حكم قبضة عليها، وبث العيون في ربوعها، وغطى البلاد بشبكة من الجواسيس يتربصون بها وبالعباد، ويحصون عليهم الكلمة والسكنة والنفس، وإذا أعيتهم الحيلة لجمع المعلومات اختلقوها من مخيلاتهم ليطفئوا نور الأمة بإطفاء نور الشباب العربي المثقف، الذين حملوا راية العروبة، ودعوا إلى الحرية والعدالة والمساواة، وقد اعتمدت السلطة التركية في اعتقال هذه النخبة المتميزة من شباب العرب على تقارير الجواسيس، وعادت إلى دفاترها القديمة قصة المؤتمر العربي الأول الذي عُقد في باريس واتخذته ذريعة لاعتقال كثير من المثقفين، وأعلام الرأي والأدب والفكر. مع أن المؤتمر قد اتخذ الصفة الشرعية والقانونية من السلطة العثمانية. ولكن هل الغدر منطق يُركن إليه؟ وهل للذئب مأمن؟! وهل للقانون والعهد عندهم حرمة ووفاء؟! إنهم حلفاء الغدر والظلام والليل هكذا سيق هؤلاء الرموز من أعضاء حزب اللامركزية العلني وأعضاء المنتدى الأدبي وجمعية العربية الفتاة إلى حبل المشنقة. وأعدم السفح ثلاث قوافل من أعلام العروبة، فكانت هذه القوافل وقوداً للثورة على الظلم والظالمين. أما الأسباب المباشرة لهذه الإعدامات فهي: أن جمال باشا السفاح لم يعد بحاجة مباشرة لاسترضاء العرب بعد فشله الذريع في سيطرته على قناة السويس، التي شكّل فيها الجنود العرب الغالبية العظمى، وأجل النظر في أوراق القنصلية صب جام غضبه على العرب، وكانت إستانبول في هذا الوقت تتعرض لهجوم بحري شنه إنجلترا وفرنسا،مما أجبر جمال باشا السفاح على أن يبعث إلى منطقة العمليات عدداً كبيراً من الجنود، ولم يبق في بلاد الشام إلا عدد من القوات صغيرة الحجم لا تستطيع الدفاع عن دمشق، ولهذا لجأ إلى القمع والإرهاب والعنف والإعدام، حتى يمنع أي ثورة محتملة تقوم في سوريا، وهو يعرف حق المعرفة أن الشعور العربي العام المعادي لحكومة الاتحاديين، في سوريا ولبنن والجزيرة العربية والعراق، إضافة إلى الانتصار الذي حققه الأتراك على الأسطولين الفرنسي والإنجليزي في غاليبولي، مما أعطاهم شعوراً بالقوة والنصر، واعتزازاً بأنفسهم. كيف لا.. وقد

انتصرت حليفتهم ألمانيا في المعارك الأخرى، فاستغل جمال باشا السفاح هذه القوة وبطش بخصومه من القوميين العرب، واستغل فرصة الحرب لتحقيق هذا الهدف. وفي الحرب تسود الأحكام العرفية، ويُخرق القانون بكل سهولة، كما أن الشعور القومي عند العرب قد استيقظ، فحول جمال باشا استئصال الصحوة العربية والقضاء على روادها وأعلامها، مع العلم انه لم يكن من هؤلاء الشهداء من له علاقة بحزب من الأحزاب العربية السرية أو العلنية.ولم يكن هناك سبب للقبض عليهم إلا نبوغهم، أو ذنوب قديمة قد حانت تصفيتُها وهي معارضتهم للاتحاديين عندما كانوا نواباً في مجلس (المبعوثان) مثل رشدي الشمعة، وشفيق المؤيد، وشكري العسلي، الذين ناقشوا حكومة الاتحاديين مناقشة صريحة، وجريئة، في القروض التي اقترضتها باسم الدولة، ولم تنتفع منها الدولة بشيء، كما أن منهم من لم يكن في سوريا منذ سنوات ولم يكن له أية صلة بكل ما يجري فيها أمثال: سليم الجزائري رئيس أركان الحرب الذي كان يقيم في الأستانة وأزمير، وعبد الوهاب الإنجليزي الذي كان مفتشاً في الأناضول، وقد جيء بهما إلى دمشق مع غيرهما من الأحرار.

وكلما حُكم على جماعة بالإعدام جاء جمال باشا السفاح ببيان يسوغ إعدامهم، كأعضاء جمعية الإصلاح وأعضاء المؤتمر العربي الأول في باريس، وأعضاء جمعية الشبان والمنتدى الأدبي وحزب اللامركزية، ومكلها ترجع إلى سبب واحد: هو عزم الاتحاديين على إطفاء هذه الرموز المضيئة في المنطقة؛ لكي يتسنى لهم تتريك العرب. وقد قال جمال السفاح في بيانه: "إن كل الذين قبض عليهم وحوكموا، ما يتجاوز عددهم مئتا نفس أنهم من جماعات مختلفة، لا يجمعهم غرض واحد". فأية قوة، وأي حول لدى هذا العدد القليل ليعمل لاستقلال سورية والعراق؟ وكيف جمع جمال باشا بين أغراض هذه الجماعات المختلفة ليؤلف من مئتي شخص جيشا كبيرا يقاتل في سبيل استقلال سوريا والعراق؟

والتهم الموجبة لقتل هؤلاء الرجال برأيه: هي انضمامهم لحزب اللامركزية، الذي غايته – حسب اعتقاده – جعل العراق وسورية، وفلسطين مملكة مستقلة بعد سلخها من جسم الدولة، وهذا الكلام لا يصمد أمام الواقع والمناقشة، لأن الحزب

الذي جعله موضعاً للتهمة التي رمى بها هؤلاء الشهداء، أنه حزب علني وله برنامجه وأهدافه المعروفة، وأن الذين اعترف بقتلهم من أعضاء هذا الحزب لا يتجاوز الثلاثة؛ ولكن ما ذنب نسائهم وأطفالهم وذوي القربى الذي نفاهم إلى مجاهل الأناضول حتى يموتوا جوعاً وعطشاً.

وقال أحرار العرب في بيان سياسي نشر صبيحة يوم إعدام هؤلاء الرموز، رداً على جمال باشا السفاح ما فحواه.. (ونحن نعلن رسمياً على رؤوس الأشهاد أنه ليس بين الذين شنقوا أو اضطهدوا من ضباط العرب والقائمين بالفكرة العربية من كان فكر بالانضمام إلى دولة أجنبية أو الانفصال عن الدولة العثمانية. وقد ارتكب جمال باشا ما ارتكبه من الفظائع والموبقات من غير أن يبرز في البلاد العربية أقل بادرة تشم منها رائحة العصيان. فلم يفعل جمال باشا إلا ما فعله من قبل تيمورلنك وجنكيزخان وهولاكو. وما يفعله الاتحاديون اليوم بقيادة عصبة من الأشرار السفاحين التي لم يخشى زعيمها طلعت بك أن يصرح على رؤوس الأشهاد بأنه ذبح المجرمين والأبرياء من الأرمن من نساء وشيوخ وأطفال، مخافة أن يكونوا في المستقبل أعضاء فاعلين في هدم جسم الدولة). وقد أمر جمال باشا السفا الديوان العرفي بعاليه بإعدام القافلة الأولى من رجالات العرب في العشرين من آب من عام ١٩١٥، وكانت تتألف من أحد عشر شهيداً، فنصبت المشانق في ساحة البرج ببيروت التي سميت فيما بعد (ساحة الشهداء).

أما القافلة الثانية من الشهداء فقد أعدمت في الساحة ذاتها في (أيار) من عام ١٩١٦، وكان أفرادها قد نقلوا من عاليه إلى بيروت وهم ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية معتزين ومتغنين بالقومية العربية.

وفي ذلك اليوم المشؤوم كانت تعدم في دمشق القافلة الثالثة. وقد سجل شعراء العرب هذه اللحظات الأخيرة بقصائد مشتعلة، لعل أروعها وأعمقها أثراً في النفس قصيدة الزهاوي "النائحة" وهي تتجاوز المائة والستين بيتاً، وقد سماها أنيس المقدسي "ملحمة الشهداء" ومنها:

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنة وعويل
علاها وما غير الحمية سلم شباب تسمى للعلى وكهول
لقد ربوا كور المطايا يحثهم إلى الموت من وادي الحياة رحيل
رجال عليهم من سنا الفضل رونق وللمجد فيهم عزة وحجول
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى وللحق بين الصالحين سبيل
قبور ببيروت وأخرى بجلق تجر عليها للرياح ذيول
سرت روحهم تطوى السماء لربهم وما غير ضوء الفرقدين سبيل
لعمرك ليس الأمر ذنباً أصابه قصاص ولكن يعرب ومغول

وكانت هذه القوافل تتقدم إلى حبال المشانق برباطة جأش نادرة المثال، لا تبعث على البكاء، بل تثير الاعتداد والكبرياء القومي بكل اعتزاز وفخر، مبتسمة في وجه الردى مرددة: لا تُبنى الدول إلا على الجماجم، وهذه جماجمنا أساس لدولتنا العربية، فنحن باسم العرب نحيا ونموت – وبموتنا تحيا الأمة العربية".

وجاءت هذه الدراسة تستقصي حياة هؤلاء الشهداء وتكشف عن بطولاتهم الفذة ونضالاتهم وتضحياتهم الجسام في سبيل اليقظة العربية، وتكشف عن أعمالهم الإبداعية دراسة وتحليلاً لهذه الأعمال، حتى تطلع الأجيال على سيرة هؤلاء الأعلام الذين ملأوا فضاءنا بهاءً جمالاً وروعة في الزمن الرديء.

كما كشفت هذه الدراسة عن طهرهم ونقائهم الثوري – حتى مع خصومهم – وحملت لنا المشاعل التي تضيء جوانب متعددة من حياة أعلامنا الذين ارتفعت أصواتهم في زمن الصمت. ولم تتناول هذه الدراسة تاريخاً للأشخاص فحسب، وإنما قدمت من خلال حياتهم صورة موجزة جامعةً لتاريخ عصر اليقظة العربية ولتاريخ الحركات القومية في المنطقة، ولتاريخ بلاد الشام السياسي والنضالي والأدبي والاجتماعي في تلك الفترة الحرجة من تاريخنا.

وشف هذه الدراسة عن صفحات من تاريخ العرب الحديث كانت مطوية، سواءً أكانت وثائق أم مخطوطات أم مقالات غير متداولة، أو حقائق غير معروفة.

وهذه الدراسة في سيرة الشهداء كانت حصيلة سفرات متعددة إلى مكتبات عدة: مكتبة الأسد، والمكتبة الظاهرية، ومكتبة حلب في سوريا، ومكتبة الجامعة الأمريكية في لبنان، ومكتبة إستانبول في تركيا، ومكتبات الأردن، مكتبة الجامعة الأردنية ومكتبة أمانة عمان الكبرى ومكتبة شومان، والمكتبة الوطنية.

وبعد أخي القارئ لا أريد أن أتحدث عن الشقاء التعب والصبر في هذه الدراسة، فأنا مؤمن بأنها – وحدها – كفيلة بتقديم نفسها إليك.

شهداء القافلة الأولى

١- عبد الكريم الخليل

٢- محمد المحمصاني

٣- محمود المحمصاني

٤- عبد القادر الخرساء

٥- نور الدين القاضي

٦- سليم أحمد عبد الهادي

٧- محمود نجا عجم

٨- محمد مسلم عابدين

٩- نايف تللو

١٠- صالح حيدر

١١- علي الأرمنازي

عبد الكريم الخليل

خريج الحقوق الملكية، رئيس المنتدى الأدبي في استانبول والحركة الوطنية الـدؤوب ومعتمد الشبيبة العربية، وصاحب الكلمة الجريئة في وجه جمال باشا [إن الشعب العربي لا يطمئن إلى وعود تركيا لأن فعلها يناقض قولها....]

ولد في لبنان سنة ١٨٨٦م، وتلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي فيها وحصل على الحقوق من إستانبول، وعمل في المحاماة فترة من الزمن، واشتهر بعلاقاته الاجتماعية الواسعة مع أعيان ونواب ووزراء ورجال الفكر والأدب. وعندما شدّ الرحال إلى إستانبول، التحق بكلية الحقوق الملكية أسس المنتدى الأدبي في الأستانة سنة ١٩٠٩م هو وعدد من الشبان العرب الذين يتلقون الدراسة هناك، وكان لهذا النادي فضل كبير في ضم شتات الطلاب، وتلقينهم المبادئ الوطنية، وإفهامهم حقوق البلاد العربية، وإعدادهم لخدمة أمتهم ولغتهم. كما كان صلة الوصل بين أفراد الجالية العربية في إستانبول، وملتقى القادمين إليها من مختلف الولايات العربية. وقد بلغ عدد أعضاء هذا النادي عدة آلاف، وأنشئت له فروع كثيرة في الشام والعراق.

"وكان الغرض من إنشاء هذا المنتدى الأدبي إيجاد رابطة ثقافية بين الطلبة العرب، ولكنه بدأ يتحول إلى مركز سياسي منذ تبدلت سياسة جمعية الاتحاد والترقي مع العرب. ولم يخف ذلك على الترك فلجأوا إلى سياسة المجاملة خصوصاً بعد أن أصبح عبد الكريم الخليل معتمداً للشبيبة العربية، فقد ظنوا أنه أصبح في إمكانهم السيطرة عليهم بالتردد على ناديهم وإبداء العطف على القائمين بأمره".

وقبل تأسيس المنتدى بثلاث سنوات وبالتحديد عام ١٩٠٦ انضم عبد الكريم الخليل إلى (العربية) جمعية النهضة العربية.

وعندما أغلقت الحكومة الاتحادية المنتدى الأدبي، اشترك مع إخوانه العرب بتأليف الجمعية القحطانية، من أجل خدمة المبادئ والأفكار العربية ودعوة العرب إلى جمع الكلمة وتوحيد الآراء وجمع الصفوف وتوحيدها.

وكانت ثقة قادة الأحزاب ورجال الإصلاح بعبد الكريم كبيرة، وقد بلغت ثقة حزب اللامركزية ورجاله به أن بعثوا معه برنامج حزب اللامركزية إلى بيروت، وكلفوا بمحادثة حزب الإصلاح للانضمام إلى حزبهم، لتوحد جهودهم في العمل، ويكونوا يداً واحدة، والمطالبة بتحقيق أهداف الحزب ومبادئه على الرغم من أنه لم ينتسب إلى هذا الحزب.

مؤتمر باريس

ما لبثت هذه الجمعيات العربية أن عقدت في ١٨ يونيه (حزيران) عام ١٩١٣م مؤتمراً في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جيرمان بباريس.. حضر عبد الكريم هذا المؤتمر، وألقى فيه خطاباً رائعاً عن حقوق العرب في الإمبراطورية العثمانية، وضرورة الإصلاح على أساس اللامركزية.. وألح على تطبيق اللامركزية في البلاد العربية، حتى يشتد ساعد أبنائها وتستقيم قناتهم، فيقطع بذلك الاحتلال والاضمحلال.

وضع مؤتمر باريس مقرراته هامة تضمنت مطالب العرب الأولية، وسلمت هذه المقرات إلى مبعوث الدولة العثمانية في باريس ليرفعها إلى الباب العالي. وقد اهتم المسؤولون في إستانبول بهذه البادرة الخطرة، ووعدوا بدراسة المذكرة التي قدمها أعضاء المؤتمر والعمل على تنفيذ ما تضمنته من مطالب إصلاحية.

وعاد عبد الكريم الخليل إلى الأستانة ليراقب تحقيق الحكومة الاتحادية لوعودها.. واستبشر الشباب خيراً حين برّت ببعض هذه الوعود، فزار الباب العالي في

١٤ أغسطس (آب) سنة ١٩١٣م مع نفر من رفاقه العرب، وقابلوا الصدر الأعظم (سعيد حليم باشا)، وخطب عبد الكريم الخليل باسم الوفد شاكراً للحكومة قناعتها بضرورة تحقيق المطالب العربية، مناشداً إياها تنفيذ بقية مقررات المؤتمر. ومما جاء في خطابه قوله: يا صحاب الفخامة، أتشرف بالمثول بين يديكم بالأصالة عن نفسي والنيابة عن الشبيبة العربية للقيام بواجبين من أهم واجبات الإخلاص:

فالواجب الأول هو تهنئة الحكومة العثمانية باسترجاع أدرنة من يد العدو وشكراً للجيش العثماني المظفر على هذا النصر الباهر. أما الواجب الثاني فهو شكر فخامتكم وسائر أركان الوزارة الكرام على تقديرها الإصلاح في البلاد العربي حق قدرة، وعلى وعودها بإعطاء الحقوق المدنية والسياسية للأمة العربية، وإشراكها في أمور الحكومة فالشبيبة العربية تشكر لكم هذا العمل العظيم الذي تعده فاتحة سعادة ورفاه لهذا الملك المحبوب. فلتطمئن فخامتكم وهيئة الوكلاء الكرام لان الأمة العربية التي تقدر هذه القرارات حق قدرها تسعى جهد طاقتها، وتبذل جميع مساعيها لري هذا الوطن المشترك وسعادته ونجاحه، ولهذا أرجو من صميم الفؤاد تنفيذ قرارا الإصلاح بأقرب ما يمكن.ولكن اتجرأ على أن اشرك شكري بذكر بعض ما تتمناه الأمة العربية مستميحاً العفو من لدن فخامتكم.

"إن بقاء الإدارة العرفية في بيروت منذ ستين يدعو إلى الأسف، وإننا نلتمس رفعها ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية، والسماح بنشر الجرائد المحلية المقفلة، لأننا لا نشك في إخلاصها لهذا الملك، وذلك رغبة في تعميم الشكر وانتقاله من قلوب الناس إلى أعمدة الصحف، ولأنها بإيفاء وظيفتها الوطنية تسهل وظيفة الحكومة كثيراً".

"وهناك مسألة ثانية وهي مسألة بيع الأراضي المدورة – الجفالك – في البلاد العربية ولاسيما فلسطين، لأن دخول الأجانب إليها وحرمان أهاليها من مواردها مما لا ترضونه فخامتكم، فألتمس من حنان الكومة السنية اتخاذ قرر قطعي موافق في هذا الشأن".

"وفي مساء ذلك اليوم أولمت الشبيبة العربية وليمة شائقة في فندق توكتليان لخمسة وأربعين مدعوا من عظماء الترك والعرب، منهم طلعت بك وجمال باشا وأنور باشا وخليل بك وسليمان أفندي البستاني والشريف حيدر، والشريف محي الدين والشريف مجيد وغيرهم. وقبل توزيع الحلوى نهض المرحوم عبد الكريم الخليل وشكر للمدعوين إجابتهم دعوة الشبيبة العربية وأعرب عن سروره بإزالة سوء التفاهم بين العرب والترك وطلب مساعدة الحاضرين من أركان الوزارة وجمعية الاتحاد والترقي للتعجل في تنفيذ قرار الإصلاح".

وأقامت الشبيبة العربية في الأستانة مساء ذلك اليوم مأدبة فخمة حضرها كبار العرب الترك، وخطب فيها عبد الكريم الخليل مرة أخرى، داعيا إلى إزالة، سوء التفاهم بين الشعبين العربي والتركي، وقال فيها: "ينشرح صدري ويسر فؤادي كلما رأيت مثل هذه الاجتماعات التي تضم الترك والعرب معاً، لأنها واسطة لتوقيف الأخ على أفكار أخيه وميوله وعواطفه، فبمثلها تحتك الخواطر وتسطع أنجم الحقائق فيندفع كل من الأخوين على أخيه ويتعلقان بكل شوق وحنان؛ إذ يتبين لكل منهما أن الغاية واحدة وطريق الوصول إليها واحدة، فيتصافيان وفي تصافيهما قوة للمجموع العثماني تذود فعن بيضة الملك في معترك الحياة. وعلى ذلك فإننا مدينون لجمعية الاتحاد والترقي المركزية لقيامها بمثل هذه الحفلات.

"نعم إن سرورنا بهذه الحفلات لعظيم لأنها تحل المعضلات وتزيل عقد المشكلات. فقد كانت مسألة العرب والترك بالأمس ذات خر وخوف، وقد جعلها أهل التمويه والأغراض أعقد من ذنب الضب، فتيسر حلها بمثل هذه الاجتماعات حلا ملائماً للعنصرين العربي والتركي. فبعدما كادت هذه المسألة تقضي على كيان الدولة صارت اليوم بحسن التفاهم بين العنصرين مادة حيوية، فيها سعادة الدولة وفلاحها. فإن سعادة الذين كشفوا الستار عن حقيقة المسألة العربية تحاكي اليوم تعاسة الذين رغبوا في تشويهها وإنكار أهميتها.ولما كان أهل بيروت صحاب الغيرة والحمية- هنا هتف طلعت بك قائلاً فلتحي بيروت – هم أول الذين يجسم لهم خطر

المسألة وهبوا للقيام بما أوحته إليهم ضمائرهم الحية، فأنا شكرهم باسم الشبيبة وباسم الأمة العثمانية وأسدي أيضاً مزيد الشكر إلى سائر جمعيات الإصلاح التي ألفت في أقطار العالم، وأخصُ بالذكر جمعيات مصر وباريس وأميركا، وأشكر أيضاً الحضرات الأعيان الذين أتوا من أرجاء البلاد العربية كلها لعقد المؤتمر العربي في باريس، وقاموا بواجبهم المقدس بكل حكمة وفهم وقوة، وأشكر لهيئة الاتحاد والترقي المركزية وأركان الحكومة السنية نظرهم إلى الحقائق التي كشفها لهم القائمون بالإصلاح نظر الغيرة والاهتمام وإقدامهم على اتخاذ التدابير اللازمة غير مبالين بذوي الأغراض والغايات".

"وأبرق إلى باريس داعياً المؤتمر العربي لزيارة الأستانة لتوضيح المقررات ومراقبة تنفيذها.. وجاء رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي إلى إستانبول، وتم الاتفاق بينه وبين الحكومة الاتحادية على تنفيذ بعض الإصلاحات، وصدر مرسوم بتعيين رئيس المؤتمر وبعض الشخصيات العربية أعضاء في مجلس الشيوخ العثماني.وقد قابلت الشبيبة العربية هذا التعيين بالاستياء، وعدته خرقا لمقررات باريس، واستدعت معتمدها عبد الكريم الخليل إلى اجتماع كبير في دار "المنتدى العربي" حضره أكثر من ألف عربي لاستجوابه بهذا الشأن بوصفه مسؤولا عن سياسة التقارب.. وطلب عبد الكريم من الحاضرين تأليف لجنة خاصة ليفضي إليها بما يعرفه من أسرار تدعوه إلى انتهاج هذه السياسة الجديدة.وفي اللجنة الخاصة التي عقدت جلستها السرية في ٧ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٤، قال عبد الكريم: إن التعاون بين العرب والترك كفيل بصد خطر استعماري آخر يهدد البلاد العربية من الغرب، ومن الممكن الإفادة من هذا التعاون المحدد لتحقيق مطالب العرب وتعزيز نهضتهم. وقد اقتنعت اللجنة برأي عبد الكريم الخليل، وأذاع أعضاؤها بيانا أيدوا فيه وجهة نظره واعتمدوه ليكون الرسول الوحيد بين الشبيبة العربية والاتحاديين".

"والظاهر أن هذا الهدف المزدوج الذي كان ينشده، كان شديد التناقض، وكان لا بد من أن يغطي أحد شقيه على الآخر.. فإما أن يسير عبد الكريم وإخوانه مع الأتراك متناسين مطالب العرب، وإما أن يضعوا مطالب العرب نصب أعينهم فلا

يتحولون عنها أو يفرطون فيها أبداً".

"وكان بديهيا أن تظفر الفكرة العربية في ذلك الصراع النفساني الذي عاناه روادها ومناضلوها الأبرار.. وكان عبد الكريم في هذه الفترة من أقرب المربين للاتحاديين، وكان إخلاصه لهم نتيجة حسن ظنه بهم، خاصة بعد العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم بمعاملة العرب بالمثل، واعتقد اعتقاداً تاماً بأن الحكومة الاتحادية لا تضمر للعرب شراً، وأن الظروف الحالية تحتم على العرب والأتراك أن يتناسوا خلافاتهم في الوطن المشترك ضد الأعداء الطامعين فيه".

وقد كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في ١٦ أغسطس سنة ١٩١٤ ونصها: "أنا على وشك السفر إلى سورية لأن التدابير التي اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى، تقضي على كل عثماني مخلص لدولته وأمته، أن يبذل جهده في سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام، وستكون مهمتي في سورية جمع الكلمة لشد أزر الحكومة، والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية. وقد وعدتني الحكومة بأن تشد أزري في هذه المهمة وتجيبني إلى كل المطالب العادلة التي أطلبها منها باسم الأفراد من أبنائها. فلنكن كلنا يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوروبية وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها، لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة أرفع شأناً وأعلى مقاماً".

وحين أعلنت الحرب العالمية الأولى جاء عبد الكريم الخليل إلى سوريا للدعوة إلى التفاهم بين العرب الترك، والوقوف صفاً واحداً في وجه الخطر الاستعماري الهاجم من الغرب... لم يستطع الشاب الذي شهد ما يعانيه العرب من ظلم الأتراك إلا أن يقول كلا..

لقد قالها كلمة قوية جريئة في وجه جمال باشا حين اجتمع به في القدس على أثر إخفاق حملة القناة في الثاني من فبراير (شباط) ١٩١٥.

لقد قال عبد الكريم لجمال باشا: إن الشعب العربي لا يطمئن إلى وعود تركيا

لأن فعلها يناقض قولها، وهو فوق ذلك ضعيف الثقة في أن تستطيع تركيا صيانة البلاد من الخطر الداهم.. وأجاب السفاح بزمجرة مهددة مخيفة، وطلب من عبد الكريم بكثير من الازدراء أن يطمئن العرب ويثبت إيمانهم بقوة الجيش التركي ويدعوهم إلى الخضوع والسكون.

وعاد عبد الكريم ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، وإنما فعل الكثير من إنهاض الهمم، وإلهاب المشاعر، وبث الإيمان بأن بعث العرب آت لا ريب فيه...

ورأى جمال باشا أن هذه اليقظة العربية سيشتد أمرها ويستفحل خطرها.. فأخذ لها عدته.. وفي أواخر شهر يونيه (حزيران) من تلك السنة فوجئ الناس باعتقال عبد الكريم الخليل وعدد من الشبان الأحرار، والتحقيق معهم بعاليه أمام "ديوان الحرب العرفي".

وعبثا تفننت هيئة التحقيق في تعذيب عبد الكريم لتنتزع منه وشاية بحق إخوانه وشركائه في النضال والتنوير.

وفي العشرين من شهر أغسطس (آب) من عام ١٩١٥ عند منتصف الليل، نقل الأحرار المعتقلون من عاليه إلى بيروت.. فأدركوا على الفور ما أعد لهم، فلم يجزعوا ولم يهنوا.. وسأل عبد الكريم الخليل مفوض الشرطة: ألا يحضر الوالي عزمي إعدامنا؟ فأجاب المفوض كلا.. إن مدير البوليس ورضا باشا يكفيان.

وطلب عبد الكريم من مفوض الشرطة استدعاء مدير البوليس، وحضر المدير، وكان ضابطاً عملاقاً لم يعرف في حياته غير إصدار الأوامر، فنظر إلى عبد الكريم بشيء من الاحتقار وسأله عما يريد.. فحدق الشاب العربي بكبرياء وقال له: - ألا تذكر أنني أنقذتك من الموت مرتين؟..

فقطب البوليس حاجبيه وأنعم النظر في محدثه.. ثم قال:

- نعم إني أذكر ذلك.. ولكنني عاجز الآن عن مكافأتك؟ فقد حكمت عليك يد فوق يدي..

وقال عبد الكريم بإشفاق: - أنا لا أطلب منك أن ترد لي الجميل، فما أنت وأمثالك بأهل لذلك.. ولكني أطلب منك أن تمهد لي لقاء بالوالي عزمي.

فرفض المدير طلبه وقال: - قل ما تشاء وأنا أنقل حديثك إليه حرفاً حرفاً.

ولكن عبد الكريم آثر الصمت...

ثم أجاب مدير البوليس بقوله:

- إذا كان الأمر كذلك فإني أرجو أن تمنع كل تركي من الدخول علينا، هذا هو رجائي الوحيد إليك..

فقال مدير البوليس: "-ليكن ذلك.. لن يدخل أحد عليكم حتى يأزف الموعد.. فأدار الثائر العربي ظهره وعاد إلى حيث ينتظره إخوانه.. وأخذ يروح ويجيء في أرض الغرفة الصامتة الموحشة المغلقة على سرها.. وارتفعت الضجة فجأة.. فأفاق عبد الكريم من ذهوله.. ومكان هذه الضجة مزيجاً من واقع حافر الخليل، وصليل السلاح، وأوامر الضباط، وضربات المطارق التي تنصب المشانق في الساحة العامة..".

وكان المحكوم عليهم يكتبون رسائلهم الأخيرة للأحباء الذين سيغادرونهم بعد قليل إلى الأبد.. فاجتذبتهم هذه الضجة، ودنوا من النافذة ليطلوا على الساحة الرحيبة فإذا بجنود يقبلون ليسوقوا إلى ساحة الموت رجال القافلة الأولى من شهداء العروبة.

وكان عبد الكريم الخليل أول من وقف تحت حبل المشنقة، وكان من أجرأ إخوانه وأثبتهم جناناً.. قبل أن يلفظ أنفاسه الطاهرة قال قوانين العالم كلها تجيز للمحكوم عليه بالموت أن يقول إرادته الأخيرة قبل ساعة موته فهل يجيز لي قانونكم أيها الباشا (يريد رضا باشا قائد جبل لبنان يومئذ) أن أتكلم قبل أن يوضع الحبل في عنقي.. فتوقف رضا باشا بضع ثوان لا يجد جوابا ثم أذن له في الكلام فقال: (اشهدوا أيها القوم أننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفتنا هذه وإنني أسف على ما أظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشوب الحرب، ولكن الاتحاديين أبوا إلا أن يعلنوا

عداءهم لهذا العنصر الكريم، الذي لا يملك من أمره شيئا، فإذا كان جمال باشا يتهمنا بإضرام الثورة لاستقلال العرب، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال، ولكن نحن أول هذه الضحايا... إنني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا لأجله وسيعرفه التاريخ).

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه لماذا أعدم عبد الكريم الخليل؟ علماً أن عبد الكريم كان من أعز أصدقاء جمال باشا ومن ذوي الكلمة النافذة عنده، وكان الخليل يتناول مرتبا ضخما جدا من الأتراك، وكانت له جهود عظيمة في تقارب وجهات النظر بين العثمانيين والعرب.

"لعل الإجابة عن هذا التساؤل، تدعونا إلى أن نقف ند الجملة الأخيرة التي نطقها عبد الكريم عند إعدامه وهي قوله: (إنني أعرب السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا من أجله، وسيعرفه التاريخ) ولن التاريخ لم يستجيب لتأكيد الشهيد، وما برح السبب مجهولا وخاضعا للتأويل والترجيح في الأحداث والوقائع التاريخية، على ما يلجأ إليه المؤرخون. عند انتفاء التأكيد تقول إن جمال باشا كان يخطط لفصل المنطقة العربية عن الدولة العثمانية وإقامة دولة عربية برئاسته، والتعاون مع معظم الشهداء على هذه الأساس، خشي افتضاح أمره أمام حزبه الاتحادي في اسطنبول، بعدما فشلت مساعيه في إقناع بعض زعماء العرب، إطلاعهم على سره الخطير وبينهم عبد الريم الخليل، ويؤكد مؤلف كتاب (ثورة العرب الكبرى) مطامع الدول الأوروبية من مثل هذه الدولة ولو كان رئيسها تركيا، لأنها ستنتهي إلى رئاسة عربي، وإلى ما يعرقل تحقيق مطامعها في سوريا، وذلك بقوله (لم يخدع جمال باشا العرب فقط بالسياسة التي اتبعها معهم في بدء الأمر بل خدع العالم كله أيضا حتى أن الصحف الغربية ذكرت غير مرة عصيانه على الاتحاديين واتفاقه مع العرب على إنشاء دولة عربية مستقلة).

أكد هذا الرأي الشهيد عبد الغني العريسي في وصيته، وجاء في الوصية (إن

قائد الفيلق الرابع جمال باشا السفاح وقد عرقل بحيله مساعينا، وأخر قيامنا، فإنه وبعد خيبته بغزوة مصر، واسترجاع القطر الشقيق إلى العبودية تظاهر بالميل إلى العرب، أسر إلى عشرات من كبار الشعب السوري، أنه يريد استقلال سوريا، وحث المتقفين على النهوض بالقيام لشق عصا الطاعة على الحكومة، فوثق كثيرون منا به ولكن البعض الآخر لم يأمن غدره، ولا تغافل عن تنبيه إخوانه للحذر من الوقوع في حبائل مكره، وقد تمكن بهذه الأساليب الخداعة والأكاذيب السياسية من اكتشاف بعض دخائل السوريين فأعمل فيهم السيوف، وأمعن فيهم قتلا).

ويبدو أن جمال باشا السفاح شك في عبد الكريم الخليل قبل اعتقاله بسنة على الأقل، وبالتحديد في شهر مايو/ أيار/ عام ١٩١٥م عندما سأله مرة عن السر في ولاء الإصلاحيين في سوريا للدولة، في الوقت الذي ما زال فيه الإصلاحيون في مصر متابعين هجومهم العنيف ضد الدولة، ويثيرون حولها الأكاذيب، فاضطرب عبد الكريم الخليل، واقترح على جمال باشا أن يسافر إلى مصر، لإقناع الإصلاحيين فيها لكي يتوقفوا عن حملاتهم ضد الدولة. وزاد هذا الكلام من شك جمال باشا، وأخذ يكون فكرة عن وجود شبكة منظمة بين سورية ومصر تعمل ضد الدولة، في الوقت الذي كانت مخاوفه كبيره من إنزال حملة على الساحل السوري، والموقف العثماني ضعيف في سورية وخاصة بعد إرسال القوات العثمانية إلى غاليبولي. وسأل جمال باشا عبد الكريم الخليل، كيف يقدر أن يسافر إلى مصر في حالة الحرب هذه التي كانت بين الإنجليز والأتراك، فأجاب عبد الكريم الخليل إجابة الواثق، بأنه سيجد وسيلة للوصول إلى هناك".

إذاً لا بد من ارتباط له مع مصر حتى يتمكن من السفر. وكان الأتراك حتى من قبل جمال باشا يشكون في أمر عبد الكريم الخليل، وقد أصرت النيابة على التحقيق من أن عبد الكريم يدعو الناس للتوقيع على مضابط يطلبون فيها حماية بعض الدول الأجنبية، وصادف أن كان فائز الغصين – وهو المكلف بالتحقيق في ذلك الوقت في منطقة جبلة (لم يثبت له شيء) – قد أخبر عبد الكريم الخليل في إسطنبول فيما بعد، عن تلك القصة، فاستغرب هذا الأمر، لأن طلعت بيك وزير الداخلية، كان

يظهر له مودة كبيرة في إسطنبول في تلك الفترة".

لهذا فمن الواضح أن بداية الأمر كانت من صيدا – بلد عبد الكريم الخليل – فقد كشفت الأيام لهذا الوالي همسات عن جمعية الفتاة فيصيدا، ومنطقة جبل عامل، لكن التحقيق لم يكشف كل الحقيقة لجمال باشا، حتى علم رسمياً عن طريق أسعد الشقيري – مفتي الجيش الرابع – وكامل أسعد – أحد زعماء المنطقة – ونائب بيروت الذين أخبروه – وكان في القدس – بوجود مؤامرة عصيان، وثورة يديرها عبد الريم الخليل، مع رضا الصلح، في منطقة صيدا وصور فأمر باعتقالهما والتوسع في التحقيق.

ويقولن جمال باشا في مذكراته أن بعض الأشخاص زاروه وقالوا له: "إنكم وضعتم ثقة كبيرة في جماعة الإصلاح وخولتهم حرية مطلقة في البلاد، ولكننا نخشى أن يكونوا أساءوا استعمال تلك الثقة، فإن رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل ينظمان عصياناً نفي جهتي الطيبة صيدا، ولو تفضلتم بإجراء وتحقيق لتيتم صحة كلامنا"، وقد أمرت بإجراء تحقيق فاثبت صحة ما قيل، فأمرت بالقبض على رضا الصلح ومعبد الكريم وشركائهما".

"وقد عثر موظفوا المراقبة على كتب واردة من القاهرة تحت (اسم متوري العرب) تحث على الثورة بدعوة أن تركية سوف تخرج من الحرب مخضوضة الشوكة فتصبح الأمة العربية عرضة لاستيلاء الأجانب فيقتضي أن يذود العرب عن استقلالهم المهدد، وقد استنجت من ذلك أن جماعة الإصلاح لم يعدلوا عن العصيان في سورية وفلسطين، كما عجبت لما أظهره عبد الريم وجماعته من الولاء للحكومة منذ إعلان الحرب حتى الآن".

محمد المحمصاني

الأخوان المحمصاني محمد ومحمود نموذجان رائعان متلابلان في الملكات والاتجاهات والأهداف والرؤية، ولا يستطيع الدارس أن يتحدث عن الواحد دون الآخر وبين هذين الأخوين "تقابلٌ كثيرُ الشُّعَب متعددُ الأنحاء تقابلٌ ينتهي إلى التجاذب والتقارب... ولا ينتهي إلى الدوافع والنفار، لأنهما كانا يحومان معا في نطاق كوكب واحد أو نظام كوكبي واحد – كما تحوم السيارات والاقمار حول شمس واحدة وهي لها جميعا مركز أصيل لا تنفصل عنه".

ولد محمد المحمصاني في بيروت عام ١٨٨ م/، وتلقى تعليمه في الكلية العثمانية، ثم شدّ الرحال إلى فرنسا ليلتحق بجامعة باريس لدراسة الحقوق، وكان مبرزاً بين أقرانه في الدراسة فحصل على إجازة الحقوق عام ١٩١٢م. وتقدم إلى الجامعة ذاتها لنيل شهادة الدكتوراه. انضم إلى جمعية النهضة العربية وكان من أنشطهم في العمل السياسي والثقافي، والذين انصبغت صداقتهم بصبغة الجمعية وانتسب إلى جمعية العربية الفتاة السرية في ١٤/ ٩/ ١٩٠٩م أي قبل سفره إلى باريس. وظهرت قدراته الهائلة هو وزملاؤه في باريس في العمل الجماهيري أو الجماعي، وذلك عن طريق دعوتهم لعقد مؤتمر شامل يضم جميع ألوان الطيف السياسي في مختلف أصقاع العروبة، من أجل تعريف الأجانب عامة والفرنسيين منهم بوجه خاص أن العرب قد عقدوا العزم على الدفاع عن بلادهم ضد أي هجوم خارجي فرنسياً كان أو غير فرنسي، وتذكير الدولة العثمانية بوجوب العمل السريع في تطبيق الإصلاحات اللامركزية في البلاد العربية.

وكان محمد المحمصاني من ضمن اللجنة الإدارية التي انتخبتها الجالية العربية،

في باريس لتقوم بالعمل على وضع خطة وبرنامج المؤتمر، وما سيجري فيه من مباحثات حتى تكون هذه البحوث العناوين الرئيسة لأسس المذكرات المخاطبات، التي يتم فيها مخاطبة أعضاء الوفود التي تشترك في المؤتمر. وتركزت أس المذكرات على إثارة القضايا التالية: الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال، وحقوق العرب في الإمبراطورية العثمانية، وضرورة الإصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من وإلى سوريا.

وكان المحمصاني تقي هذه الفترة القلقة المتأرجحة، يحس بنبض إيقاع الوعي العربي الجديد الذي اخذ يتسرب إليهم من خلال ما كان يشاهده ويطلع عليه في أوروبا من تقدم وتطور وحية ومساواة وعدالة، وما كان يشاهده ويكتوي به من تأخر وتخلف وظلم وإرهاب وتفرقة وتمييز للوطن تحت حكم الحكومة الاتحادية.. ولذلك وجهه هذا الوعي الوطني القومي بحماس كبير إلى العمل السري والعلني، وقد وجهت العربية الفتاة عدداً من أعضائها للانتساب إلى الجمعيات والأحزاب العلنية كتكتيك سياسي، ومن ضمن الأحزاب التي وجهت الانضمام إليها حزب اللامركزية العلني، وكان المحمصاني من الذين دخلوا في حزب اللامركزية؛ لذا نرى أن الاتصالات كانت قائمة بينه وبين هذا الحزب، يشرح فيها سير الأحداث في بيروت مؤكداً لحزب اللامركزية في القاهرة، أنهم لا يتأخرون عن الإقدام على أي عمل كان من شأنه نفع البلاد وإحياء الأمة".

وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م بادرت الجمعيات والأحزاب العربية إلى تحرك واسع وسريع بالاتصالات مع بعضها بعضاً؛ من اجل توحيد الآراء وتوحيد المواقف عند اندلاع الحرب، أما العربية الفتاة فإنها سارعت بالاتصال مع قادة الأحزاب –وخاصة حزبي اللامركزية والعهد – فقد بعث الشقان (محمد ومحمود) المحمصاني إلى القاهرة من أجل الاتصال بحزب اللامركزية، والتشاور في ما يجب أن يكون عليه الموقف العربي، فوصلا إلى القاهرة قبل دخول تركيا الحرب، وأديا المهمة الحزبية المكلفين بها، ولما حاولا العودة إلى سوريا – بعد إعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية – نصح أحد أصحاب محمد المحمصاني بالبقاء في مصر

فأجابه: "إن الوطن بحاجة إلى كل فرد من أبناء في هذا الأوان العصيب فمن الخيانة أن لا نقوم بالواجب علينا نحوه".

وكان من أشد المعارضين للرجال العرب الذين قبلوا المناصب التي عرضتها الحكومة الاتحادية عليهم من أجل إرضائهم وكتم أصواتهم، وكان يؤمن بالشعار القائل نحن طلاب إصلاح لا طلاب وظائف". ولذا كان في مقدمة أعضاء لجنة الإصلاح في بيروت التي كانت تطالب بالإصلاح على أساس نظام اللامركزية.

وكان له فصاحة البيان واللسان واللغة، وكانت له قدرة عجيبة على تأليف القلوب، وجمع بين الثقة والمحبة والتقدير مع كل من تعامل معه.

وقد اشتهر بخطبه الوطنية التي كانت تثير في نفوس الأهالي الحمية والإثارة والحماس، لما تحمل من دلالات ومعاني في الوطنية – وله مقالات قد نشرها في المقدين، تؤكد على مبادئ القومية العربية، وإنعاش هذه الروح، توثيقاً وربطاً بين الأفراد والجمعيات والطوائف في مختلف جسم الدولة، داعياً إلى الإصلاح الشامل لجسد الدولة الذي يكابد أمراضاً عدة.

وكشف عن خطر الصهيونية في وقت مبكر، وعن أساليبها وأطماعها في المنطقة، وألف في هذا الصدد كتابة "الفكرة الصهيونية" وقد صُودر هذا الكتاب القيم مع أوراقه التي استولت عليها الحكومة عندما طلب للديوان العرفي عام ١٩١٥م، وللشهيد اهتمامات أخرى؛ منها الاهتمام بالمرأة تربية وثقافة وتعليماً نيل حقوق غير منقوصة، في زمن اختلط فيه [الحابل بالنابل] وكان يشجع شباب العروبة على الزواج من عربيات؛ لأن زواج شباب العرب من الأجنبيات يؤدي في نظره إلى الانحراف، ويفقد ارتباط الشخص بمجتمعه، ويؤثر في عقيدته ووطنيته. وكان التعليم في مختلف مراحله محط اهتمامه، فنادى بإصلاح التعليم والتربية والقائمين عليهما، ترجم كتاباً عن الفرنسية بعنوان "كتاب التربية".

كان طموحه في هذا الكتاب، أن يُطلع الناشئة المربين على شؤون التعليم، حتى يعرفوا ما وصلت إليها النظريات التربوية الحديثة من تقدم وتطور؛ ولذا كان يزور

المدارس الأهلية ويبدي توجيهاته ونصائحه للمدرسين، لمواكبة النظريات الحديثة في علم التربية مع الاحتفاظ بالهوية العربية الإسلامية وشن حملات كبيرة على دعاة التخلف والتزمت، لأنهم في نظره من أسباب تخلف المجتمع، فالعقائد والمبادئ والتقاليد البالية التي أصبحت عادة عند الكثير من الناس هي سبب البلاء وتخلف المجتمع؛ ففي العروبة والإسلام مُثل عليا تستحق أن تستجلى وتبرز بصورة واضحة، حتى يسير على هديها المجتمع بدلاً من الجمود والمحافظة. وبكلمة أخرى كان إنساناً حضارياً بمعنى الكلمة، يمتلك الرؤية الواضحة فيما يقوله ويفعله، وعندما دعي إلى الديوان العرفي وجهت له عدد من التهم منها أنه واحد من مؤسسي فرع بيروت – وقد أطلعوه على بعض صور من مخاطباته التي كانت ينادي بها للتخلص من الإدارة العثمانية لأنها تمادت في الظلم والتعسف... والتحاقه بحزب اللامركزية، وقيامه بتسلم وتوزع أختام الجمعية على الفروع التابعة للحزب.

وفي يوم بلهت من صباح ٢١ آب سنة ١٩١٥م تقدم هو وشقيقه محمود إلى ساحة الإعدام في بيروت مع شهداء القافلة الأولى وتعانقا طويلاً قبل الصعود إلى حبل المشنقة، وراح كل منهما يشجع الآخر وهما يبتسمان.. وقال الشهيد محمد بصوت مرتفع للجلاد: "رجائي إليك قبل موتي أن تنفذ الحكم بي وبأخي في وقت واحد حتى لا يتعذب الواحد بمرآى أخيه وهو يموت أمامه.. وصعدا معاً إلى المشنقة بقدم ثابتة، انطلق محمد يقول: "إذا كان من يعشق الحرية ويسعى لتحرير بلاده مجرماً فأنا هو، ولست نادماً،وإني مسرور أن أكون أول شهيد في هذا السبيل. ثم حمل على الترك فضربه الجلاد بكفه على فيه، فأدماه، ولكن مضى يقولك ما علينا من الإعدام ما دامت الفكرة باقية لا تموت".

وقبل أن نختم الحديث عن ملامح حياته، لا بد من أن نقف عند رسالتين مهمتين قد بعثهما من باريس وهو طالب يتلى الدراسة في جامعتها، الرسالة الأولى يفتخر فيها بشباب العروبة الذين يدرسون في الغرب ويحصلون على النتائج في التحصيل الدراسي، فهم عماد ظهور الأمة وثمار قلوبها ومحط آمالها، ومعقد

رجائها، وكانت غايته من هذه الرسائل أن يربط شباب العروبة النوابغ بالوطن وبتراثه، وخاصة في الفترة التي كانت الأمة العربية تطرح أسئلتها الصعبة وتعيد النظر في تجربتها مع خطر التتريك، الذي جثم على روح الأمة، فهو من جيل التحول الصعب وشباب الأمة الذين يؤسسون الجمعيات العربية السرية، وتعانق هاماتهم المشانق بكل اعتزاز وفخر. "إنني لأفتخر حيثما وجدت قومي وعشيرتي فهم عمادي ومحط آمالي لاسيما إذا كانت أعمالهم زينة للناس فإني أنقل إليكم وطنياً "صبر أفندي الخواجة البيروتي" وقد نال الدرجة الأولى في المدرسة من بين جميع التلاميذ الأتراك وغيرهم، حتى التلاميذ الفرنسيين أنفسهم، فأكرم بهذا الذكاء العربي الذي برّ كل ذكاء وخاصة إذ اقترن بالجد والعمل، وقد قال له رئيس المدرسة: "إني أهنئك وأهنئ بك أمتك، فإلى أوروبا أدعو بني قومي، فإن العرب لا شك يفتحون أوروبا مرة ثانية إذ تعلموا كما قال المفيد".

أما الرسالة الثانية فهي في غاية الأهمية وتكشف لنا عن مبدأ النزوع القومي عنده في فترة مبكرة من حياته، هذه الرسالة صرخة لجيله أن ينهض من كبوته، لأنه مؤمن أن دورة الزمان قادمة بكل أبعادها مهما أظلم الليل، واستبد الظلم، وهذه الأمة قادرة أن تخرج من أزقة القهر الخوف والتخلف إلى عالم الحرية والديمقراطية والإبداع، إذ أتيحت لها الظروف والأجواء. ونجد أن كل رسالة يبعثها للمفيد تحمل في ثناياها الهم القومي، وتطرح صيغاً جديدة محددة للأمة، وأن تقدم أبادها السياسية والتربوية الاجتماعية الفكرية الاقتصادية وتكون عربية الخطاب والروح والرؤية والقواعد والطموحات. ونراه يبدأ رسالته بسؤال استكاري حول مصير اللغة العربية مؤكدا أن تكون لغة رسمية في المدارس والدوائر الحكومية في الولايات العربية "وغير ناسين أن في تعليم العربية فائدة كبرى للدولة، لأنها تسهل المعاملات في البلاد العربية وتمكن من إرسال موظفين عالمين بلغة الأمر الذي لا ينفك عصرنا عن المطالبة به".

ومن الجدير بالذكر ونحن نختم الحديث عن الشهيد محمد المحمصاني أن نذكر

أن أوراق جمعية العربية الفتاة السرية التي كانت في عهدته ظلت مدفونة في ضريح أحد الأولياء في بيروت قرب البسطة، حتى ذهبت إحدى السيدات آل حيدر إلى منزل آل المحمصاني فالتقت مع زوجته "فاطمة" وذهبتا إلى مقام الولي استخرجتا الأوراق وأحرقتاها خوفاً من بطش السفاح.

محمود المحمصاني

ذكرنا في مقدمة حديثنا عن شقيقه "محمد" أنهما من جيل واحد ومكان واحد ونشأتهما متقاربة ومتلازمة، والدارس في مسيرة حياتهما يجد صفات مشتركة في مواقفهما الفكرية وأساليبهما وتوجهاتهما القومية والوطنية والنضالية، فمن هذا المنطلق لا نستطيع أن نفصلهما عن بعضهما بعضاً في هذه الدراسة.

ولد محمود المحمصاني في بيروت عام ١٨٨٤م، ونشأ في أسرة كريمة ومنعمة ذات مجد وحب وعلم وأدب، فوالده كان في طليعة المثقفين في ذلك العهد، وقد درس في مدارس بيروت وتخرج فيها.

وبعد تخرجه اشتغل في الأعمال الحرة مع عمه، عندما حصل على الخبرة التي تؤهله، استقل بفتح محل تجاري خاص به، وقد اشتهر بأمانته، وصدقه واستقامته في العمل وتسامحه الطيب، وكان محله مجمع محبيه ومريديه على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم. انخرط في العمل القومي وانتسب إلى العربية الفتاة وكان من أبرز أعضائها وكان من بينهم معظم المنتسبين لهذه الجمعية الذين كانوا رجال حرب وثورة وعقيدة وطنية، وهذا شيء كبير، وقد هلك منهم نفر في الثورات المختلفة، وكما أن لهم في القضية العربية تأثير لا يفوقه إلا تأثير الفتاة التركية. وقد امتاز أعضاء هذه الجمعية بالجرأة والصلابة والشجاعة الفائقة، وظل أمرهما سراً لا تطوله السلطة التركية بالرغم من تعرض الكثيرين من أعضائها للسجن والتعذيب والاستشهاد، وحرص أعضاء الجمعية على التكتم والسرية التامة، وعلى اختيار أعضائها ممن عرفوا بحسن الخلق وقوة النفس والتشبع بالفكرة القومية والإخلاص لها".

وكان المحمصاني في مقدمة أعضاء هذه الجمعية الذين تعرضوا للأذى والضرب المبرح الذي يفوق الخيال أحياناً ولكن قوة عقيدته وصلابة مبدئه جعلته يتكتم على أسرارها وأهدافها وغاياتها، وخاصة عندما رفضت الحكومة الاتحادية الاعتراف بحقوق العرب، وفساد نظام المركزية، وفي إطار هذا الواقع المؤلم والتناقضات المذهبية والنزاعات السياسية والعرقية التي كانت تعيشها الحكومة والدولة العثمانية معاً وصلت النزعة العرقية مداها في عاصمة الدولة وكانت أبواق المنادين بالطورانية، تطغى على أصوات المنادين بالأخوة العثمانية أو الرابطة الإسلامية، حتى على أعواد المنابر في المساجد ولم يتورع أحد القادة الأتراك والبلاد كانت على أبواب الحرب من ان يقول: "لا أمل لنا بعد الآن بأن نحكم البلاد العثمانية كمستعمرة تركية، ولاسيما البلاد العربية التي فتحها أجدادنا بالسيف، لأن حكومتنا صارت دستورية لسوء الحظ، لأننا نحن الأقلية في الدولة، فإذا خضنا غمار الحرب الأوروبية وحالفنا النصر قضينا على العناصر غير التركية أعظم قضاء، وكفلنا الحكم لعنصرنا زمناً طويلاً، وإذا انكسرت جيوشنا وضاعت بلادنا فلا نخسر شيئا لأن مستقبل الدولة ليس لنا، ولأن الحكم ذاهب من يدنا عل كل حال".

إن هذه الأقوال والتصريحات غير المسؤولة دفعت أعضاء جمعية العربية الفتاة إلى إعادة النظر في بعض خططهم ونشاطاتهم وكان محمود من أنشط أعضاء الجمعية في التحرك السريع فقام بمشاورات مكثفة مع رجالات العرب وقادة أحزابهم، فسافر مع شقيقه إلى القاهرة والإسكندرية والتقى أضاء الجمعيات العربية في كل من دمشق وبيروت، من أجل الإجماع على رأي موحد، ولاسيما أن الدولة كانت مقبلة على حرب ليس لها فيها أية مصلحة، وكما وصفها وهيب باشا "إنها ورقة نريد أن نقذف بها على مائدة الميسر". وفين هذه الفترة تعرض محمود للمضايقات بمختلف الأشكال والصور فسيق إلى الجندية الإجبارية، ونقل إلى مصلحة البرق والبريد، ومن هناك ألقي القبض عليه بصفته واحدا من المنادين بالإصلاح والمتسببين على الجمعيات العربية ومن مروجي أهداف هذه الجمعيات بين

الأهلين لإقناع الكثير منهم بالانتساب إلى حزب اللامركزية وعهد إليه بتسلم أختام الجمعية في فروع سورية لتوزيعها على أعضائها وإدارة شؤون فرعه في بيروت خاصة. وتقدم إلى منصة الإعدام بكل شجاعة وجرأة،وبينما كان الجلاد يربط الحبل في عنقه قال: "يشهد الله أن ما فعلته وما قمت به إنما كان عن اعتقاد راسخ بأنني أخدم بلادي وأنقذها.. ولقد كنت في السجن أعرّب تاريخ استقلال إيطاليا التي تحررت بدماء أخوين شهيدين.. فما أسعد حظنا أنا وأخي محمد إذا كان موتنا حياة للأمة العربية".

عبد القادر الخرسا

هذا الفتى طيب القلب نقي الروح، مسكون بالمحبة والوداعة وموغل في الصمت الجميل والهدوء، لا يعرف ماذا تخبئ له الأيام.

فقد كتب احد كتاب الروس عن الشيخ محمد بن سعيد الطنطاوي (أنه طيبة قلبه تشبه صفات الأطفال، وأن ذكاءه واستقامته يستدعيان الاحترام الشديد، وهذا الكلام ينطبق على الشهيد الخرسا. إن قصة حياته تكشف عن صدقه ومثاليته في حبه ومعملمه وتعامله مع الآخرين، وتكشف أيضا عن حالة الاستلاب والقهر والاستبداد التي عاشتها الأمة العربية وهي تواجه الضغط الاتحادي الذي كان يجثم على صدور أبناء الأمة العربية.

ولعل قصة حياة الخرسا تروي بشيء من التفصيل والتروي والدقة، ليس لما يكمن فيها من الطرائف، ولا لما تحتوي عليه من مفارقات عجيبة، بل لما تكشف عنه من مأساة جيل سحق بلا رحمة.

"يوجد في بيروت – في حي المصيطبة – بيت كبير بناه ثلاثة إخوة من التجار العصاميين، الذين خرجوا من وطنهم دمشق انتجاعاً للرزق ففتحت لهم أبوابه كما تفتح عادة للناشطين المثابرين، الذين يشعرون بالتبعة الملقاة على عاتقهم. وقر قرارهم بعد أن اتسعت تجارتهم وكثر عملهم على تقسيم أعمالهم، وأن يختص كل منهم ببلد يعمل فيها لمصلحة الشركة فكان حظ أكبرهم واسمه أبو الخير الخرسا سكنى هذه الدار الفسيحة وإدارة الأعمال في مدينة بيروت، في حين أقام أخوه الأول في أزمير والثاني في مانشستر (بريطانيا).

كان أبو الخير تاجرا جديا، لم تغيره الثروة التي جمعها بعرق جبينه، وكان

شديد التعلق بأسرته وبيته، كثير الاهتمام بأولاده. وبينما كان ذات يوم سائراً في طريقه إلى حانوته، أصيب بدوار فسقط مغمى عليه، ومن ثم حمل إلى بيته، وفي المساء فارق الدنيا بعد أن أقر بالشهادتين وأوصى أحد أصدقائه بأسرته من بعده.

رحل عن الدنيا وقلبه يقطر دماً على ابنته زينب التي وارها التراب قبيل وفاته، بعد أن تركت في فؤاده لوعة لا تطفئها برودة القبر، وخلّف من الأهل امرأة وثلاثة أبناء: جميل ومحمد وعبد القادر.

أما جميل وهو البكر فإنه ترك المدرسة بعد وفاة والده وتسلم محله في البيت والعمل، وتزوج إحدى بنات عمه، وما كاد يبلغ زهرة شبابه حتى علق به شاب بيروتي، أحب أن يحشر نفسه في جملة أصحابه، لكن جميلاً امتنع عن هذه الصحبة التي لم يدرك مناها، فما كان من الشاب البيروتي الذي لعبت في رأسه سورة الانفعالات إلا أن أطلق عليه عياراً نارياً ضرجه بدمه، وفر بواسطة أشقياء البحارة من بيروت إلى مرسيليا.

حمل العريس الجميل إلى بيته كما حمل والده من قبله، وأدخل على والدته الأرملة على حين غرة، فهلع قلبها وأغمي عليها، وبعد ثلاثة أيام فارق الحياة. أما الجاني فيبدو أن ضميره قد استيقظ من سباته وقرعه على هذه الجناية، فأصيب بمرض (الماليخوليا) وأخيراً لم يجد إلا الانتحار، فأطلق على نفسه عياراً نارياً بالمسدس نفسه الذي أردى به جميل صريعاً.

أغلقت في البيت حجرة زينب وحجرة أبي الخير وحجرة العريس الجميل، وجللت كلها بالسواد، ولكن الله من كرمه أبقى للأرملة حجرة محمد وحجرة عبد القادرة مفتوحتين كبيرتين، تسمع منهما سجعهما ووقع أقدامهما الصغيرة. لكن هذا العزاء لم يطل كثيراً، لأن محمداً ما أن بلغ الخامسة عشرة من العمر حتى أصيب بمرض فلم يمهله كثيراً وما لبث أن فارق الحياة، ولم يحقق آماله.

أغلقت حجرة محمد أيضاً وجللت بالسواد، لكن الأرملة التي أحناها الدهر بمصائبه وأناخ عليها بكلكله، ما زالت ترى في حجرة عبد القادر شعاعاً من نور

يخفف عنه بؤسها ويسند قامتها. لأنه ينتظر مستقبلا باهرا. ومتى تزوج ينعم لله عليه بأولاد يخففون عنه ويعوضونها طعم المصاب الذي تجرّعته لذلك كانت تحضنه كما يحضن الطائر فرخه وتخاف عليه خطرات النسيم.

نشا عبد القادر الخرسا على البساطة كما نشا أخواه من قبله، وربما كان أقل اختلاطاً بالعالم منهما ليتمه الباكر من جهة، وخوف والدته الشديد عليه من جهة أخرى. واكتفى من المدرسة بتعلم الكتابة والقراءة وحسن الخط الحساب وشيء من اللغة الفرنسية، ولم يكمل دروسه، لأن الحاجة إليه في البيت كانت شديدة. ولم ير من الناس إلا أقرباءه وجيرانه ومن كان له ارتباط بأسرته شديد. فكانت البيئة التي ترعرع فيها بيئة تجارية أبعد ما تكن عن السياسة ومعتركها. وزوجته والدته ابنة عمه على صغر سنه، لأنها خشيت ين تمت قبل أن ترى نسله. واشترك مع ابن خاله في محل تجاري في بيروت فكن النجاح حليفهما.

كان الخرسا يكره السياسة ويكره الخوض فيها. وروؤي مرة يتأفف من رجل انتقد السكة الحديدية الحجازية فظن انه يتكلم في السياسة واجمع كل من عرفه على أنه لم يكن له اهتمام بالموضوعات العامة إلا ما كان خيرياً منها. كان يحب أن يخدم أمته كسائر أبناء العروبة، ولكنه لم ير إلى ذلك سبيلاً إلا في إعانة المرضى وإغاثة المحتاجين.

سافر قبيل الحرب إلى الإسكندرية لرؤية أبناء عمه لأغراض تجارية. وبعد ما أعلنت الدولة التركية النفير العام في البلاد وأصبحت عرضة للقنابل والمجاعات، سافرت والدته إلى بيت أخيها في دمشق وبقي الخرسا وزوجته في بيروت.

وصلت عبد القادر رسالة من دمشق تنبئه بمرض والدته الشديد على حين غرة، فسافر حالاً لرؤيتها، ولكنه وصل متأخراً، لأن المصائب التي حلّت بها أثرت في فؤادها فلم تمهلها النوبات القلبية حتى ترى حشاشة كبدها وقبلة حياتها الأخيرة، بل رحلت عن هذه الدنيا الفانية حالمة به وهي تناديه عبده، عبده، عبده!

قدم عبد القادر إلى دمشق وحضر جنازتها وهو يبكيها باءً مراً، بكاء من ينعى

نفسه ولا يرى له حبيباً من بعده يبكيه. لأن الابن الذي يفقد والدته يفقد أعز نفس تحن عليه وأوسع قلب يأويه. ثم عاد إلى بيروت غير عالم بما تخبئه له الأيام.

بينما كان الخرسا يقضي المساء في حديقة بيته في رأس بيروت مع أصحابه التجار، إذ وقفت على بابه سيارة فنزل منها علي رضا باشا قائد لبنان ومدير الشرطة ومساعده، ودخلوا عليه ففتشوه وفتشوا بيته تفتيشاً دقيقاً، ثم ساقوه في السيارة أمامهم إلى السجن تلك الليلة، بعد ما صافح أصحابه ودّعهم وداعاً لمن يخطر في باله أنه الأخير.

بقي في سجن عاليه مع رفقائه رموز النضال العربي نحو شهرين، وقبل ختام المدة بيوم أو يومين توسط بعض أهل الخير بالسماح لزوجته برؤيته، فسمح لها بعد أن قدّمت هدايا الديباج المزركش لزوجات رئيس الديوان العرفي. ودخلت عليه وطفلتها الرضيعة على صدرها فتعانقا وبكيا وأنّا واشتكيا، ثم أغمي عليهما كليهما، فدخل عليهما الحارس وأيقظهما، وبعد جلسة لم تطل أكثر من نصف ساعة أمرت بالخروج على أمل اللقاء في اليوم التالي.

علمت في مساء ذلك اليوم أنه حكم عليه بالنفي المؤقت، وأنه سيعود إليها قريباً ففرحت فرحاً لا مزيد عليه، وفرّقت الهدايا الثمينة الباقية عندها على نساء الضباط، وقامت صبيحة اليوم التالي تنتظره على طريق عاليه لعامة لتراه وتودّعه قبل ذهابه إلى منفاه.

أما السجين فدخل عليه الحارس في منتصف الليل ونبهه من رقاده وقال له: إن الديوان العرفي حكم عليه بالنفي المؤقت إلى أزمير، فطار فرحاً وأهداه على هذه البشارة ساعته الذهبية وسلسلتها، وكان في جيبه نحو خمسين جنيهاً فلم يخرج من باب السجن العام إلا وقد فرّقها على العمال والمستخدمين.

أركب مع رفاقه وسيقوا جميعاً إلى دائرة الشرطة نفي بيروت، وهناك فوجئوا بحكم الإعدام فأظهر الخرسا من الجرأة ورباطة الجأش على صغر سنه وقلة خبرته بدخائل الاتحاديين وبراءته الناصعة ما يحير الألباب. طلب من مدير الشرطة ورقاً

وقلماً وكتب وصيته بخط جميل واضح. ولما استبطأه المدير يأمره بالإسراع بالكتابة قائلاً: عجل، عجل، أجابه الخرسا: "إلى فرح ذاهب أنا حتى تستعجلني؟".

ثم قال: "والله إنني بريء، يوجد في مسألتي خطأ كبير". ثم أخذ يقرأ آية الكرسي بصوت جهوري ومشى إلى المشنقة بقدم ثابتة، وخر كلام نطق به: "لا تأخذه سنةٌ ولا نوم".

انتبه أهالي عاليه في ذلك اليوم إلى صياح فتاة تلطم خدّيها وتسدل شعرها، فقد خرج احد أقرباء الشهيد من بيروت عقيب الحداثة حالاً إلى عاليه، ينعى الفتى البريء، فوجد الزوجة ما تزال واقفة على الطريق العامة تنتظر وداع زوجها الذاهب إلى مغناه، ففاجأها بهذا الخبر الذي انقضّ عليها انقضاض الصاعقة، وترك في النفس أثراً سيئاً تعجز الأيام عن محوه.

ترجع أسباب الحكم كلها إلى أن الشهيد لمّا كان عائداً من الإسكندرية كلفة احد أصدقائه بصرة ليسلمها إلى محمد المحمصاني في بيروت، وكان في الصرة ختم "الجمعية اللامركزية" تلك الجمعية التي جعلها جمال باشا حجة للضربات الهائلة التي حلّت بأمتنا.

نور الدين القاضي

من حسن حظ القائمين على العربية الفتاة أنهم طبقوا مبدأ الاختيار في انتقائهم للجمعية، وكانوا يختارون من كان عنده القدرة والاستعداد والإمكانيات قبل أن يعرضوا فكرتهم عليه، لأن مهمتهم كانت تغييرية صعبة، لذلك كان الاستعداد النفسي للجهاد في سبيل هذا المبدأ والتضحية بالمال والنفس وبكل شيء شرطاً أساسياً للعضوية في هذه الجمعية، وكان من ضمن الذين اتصف بهذه الصفات الشهيد نور الدين القاضي، الذي آمن أن الواقع المرير الذي تعيشه الأمة العربية يجعل التغيير ضرورة حتمية تفرض منطقها على شباب الأمة العربية لمواجهة التحدي مهما كان.

ول نور الدين القاضي في مدينة بيروت في الثامن من ربيع الأول عام ١٨٨٤م ودرس المرحلة الابتدائية فيها، وكان منذ صغره يتابع ما يدور حوله من قضايا وأحداث، وخاصة قضايا أمته المصرية، وهذا ما لفت نظر الآخرين إليه، يناقشهم ويفسر ويحاورهم في مجمل هذه القضايا، ويتمنى أن تكون الأمة العربية في طليعة الأمم التي تنعم بالأمن والاستقرار التقدم على جميع الصعد، ففي مرحلة نضجه السياسي والفكري كان هاجسه الأكبر العروبة في رؤيتها الإنسانية، ولهذا تنبه رجال العربية الفتاة إلى هذا الفتى، فكان من ضمن تنظيمهم السياسي الموكل إليهم إحداث التغيير الشامل المطلوب، وإعادة الجسم العربي من جديد من خلال العبء والجهد، وثقل المسؤولية وسريتها، وخطورة المرحلة التي سيدخلون بها، فلما اشتعلت الحرب العالمية الأولى نزحت عائلته إلى مدينة حمص بسبب الضائقة الاقتصادية التي اجتاحت البلاد. وضاق الناس بالحياة، وقد قدرت الصحف عدد

الذين ماتوا جوعاً في لبنان فقط بخمسة وثمانين ألفاً خلال أشهر.ووصـف أحـد الثقـات الذين فروا من سورية الحال الاقتصادية في تلك البلاد كما يلي:

(إذا وصل المسافر إلى بيروت وفاز بالدخول، فأول ما يستوقف بصره فيها التغيير العظيم الذي طرأ عليها بعد إعلان الحرب، فحركة الأخذ والعطاء فيها ساكنة ووجوه الناس قاتمة شاحبة، وأبدانهم هزيلة وبطونهم خاوية، والأسواق التي تباع فيه الحاجيات من مأكل وملبس لا تحوي إلا بضائع يسيرة بعدما كانت مملوءة بالبضائع الوفيرة.. فكيف جلت ببيروت، وأنى أدت نظرك رأيت رجالاً وأطفالاً ونساء عراة حفاة يشكون من ألم الجوع جهاراً، ويقفون أمام كل من يدخل مطعماً من المطاعم القليلة الباقية ليأكل فيه ويغبطونه على كل لقمة تدخل فمه).

في هذه الأجواء القاتمة والصعبة آثر نور الدين القضايا أن يبقى في بيروت من أجل متابعة أمور "العربية الفتاة" ويثبت أن انتماءه لهذه الجمعية ليس نظرياً إنما يعتمد على أسلوب ونهج تطبيقي في عملية البناء والإعداد والتكوين والتخطيط مع إخوانه، ويكون القدوة الحسنة المتحركة النشطة في مسيرة هذا التنظيم، وبلغ حرصه الشديد أن عائلته لم تدر بانتسابه لهذه الجمعية، ولم تعرف عن نشاطه السياسي أي شيء، وهذا ما أشرنا إليه من أن العربية الفتاة اختارت أعضاءها بحيث يكونون على جانب كبير من الأهلية وعلى مستوى بر من الإعداد والتربية. وسيق نور الدين إلى الديوان العرفي في عاليه وأدخل السجن وذاق من التعذيب في سجون جماعة الاتحاد والترقي ما لم يتصوره عقل، حتى يحصلوا على أكثر أسراره، ولكن جهودهم باءت بالفشل، ولم يتمنوا من الحصول منه على معلومة واحدة أو إدانة لأي شخص من الأشخاص المنتسبين لهذه الجمعية، وصدر في قرارات هامه أنه كان من ضمن الداخلين في الجمعية، وكان يأخذ أختام الفروع بها إلى الأماكن العائدة إليها، وأنه هو الذي كان يستلم الأوراق المضرة من بريد القنصلية الفرنسية".

وفي صبيحة يوم ٢١ آب من عام ١٩١٥ تقدم إلى حبل المشنقة، وعندما وقف

حياله قال بصوت جهوري: إني بريء يا ناس مما اتهمت به، فأرجو أن تبلغا أخي سلامي – ثم قولوا له أن لا يتأثر ولا يبكي علي، لأني مت ميتة الأبطال، وأني لم أود لاسمي صحيفة لا في الحياة ولا في الممات، وهوى الكرسي من تحته فقضى مثل رفاقه شهيداً.

سليم (الأحمد) عبد الهادي

كانت الجمعيات العربية هي البذرة الطيبة لنهضة شباب ورجال العروبة، أخرجت هذه البذرة نباتاً طيباً قوياً. وأخذت هذه البذرة تنمو وتترعرع وتزدهر وتتفرع وتمتد جذورها وفروعها، حتى أصبحت القومية العربية حقيقة ثابتة تقرع في المنتديات والمجالس، بعد أن كان الحدث عنها همساً لا يسمع.. هذا هو البعد الكبير لهذه الجمعيات والأحزاب – وكان من بين هذه الرموز الشهيد سليم الأحمد، الذي تخرج من حزب اللامركزية الذي ناضل في سبيل استقلال إرادة الأمة العربية حتى تكون حرة عزيزة.

إنه سليم أحمد بن عبد الهادي، وأسرة عبد الهادي معروفة بين الأسر في بلاد الشام ولها مكانة مرموقة في نابلس، وأصله من بلدة (عرابه) من قضاء جنين ن- ولد سنة ١٨٧٠م.

تبتدئ حياته العملية منذ دخل محكمة "نابلس العدلية، وأظهر تلك الشجاعة الأدبية للانتصار للمظلوم والدفاع عن الحق. إن محاكم العدلية في البلاد العثمانية تشبه بجورها التيار الجارف الذي لا يقوى على مقاومته إلا من رزق القوة الطبيعية الكافية. وكثيرا ما كان الفتيان يتعلمون في أرقى المدارس، ودلت نشأتهم الأولى على مستقبلهم الباهر، ولكن دخولهم في محاكم العدلية تجرفهم إلى المجرى لعام، وحوّل الذكاء الفطري والعلم الناضج، الذي امتازوا به إلى الحيل الدسائس وإلقاء الشباك لصيد الأصفر الرنان. أما سليم فقد أظهر استقلالاً في الرأي منذ دخوله وأخذ يعارض الظالمين بكل قواه.ولما رأى تكالب رجال العدلية عليه، اضطر إلى الاستعفاء، وفضل الاشتغال بالزراعة والاعتماد على النفس على خدمة الحكومة الاتحادية. مدخل في "جنين" مع عمه المرحوم (حافظ باشا المحمد) المشهور، صاحب

الأراضي الزراعية الواسعة، واخذ يشتغل بالزراعة بهمّة لا تعرف الكلل، حتى صار بعد زمن من الأغنياء المهمين، لكن حبه للخدمة العامة وولعه بإحقاق الحق حمله قبيل صدور الدستور ١٩٠٧ على تأسيس جمعية المقاومة الموظفين الفاسدين، فألقى الرعب في قلوب عبدة الرشوة للخدمة العامة، وجعل كثيراً من الموظفين يحجمون عن قبول الوظائف في لواء "نابلس". وكان الشهيد عضاً في مجلس الإدارة في "جنين" وكمان همه الوحيد حماية الفلاح، وتشجيعه على العمل والأخذ بناصره؛ لذلك كان الحكام – وهم لا همّ لهم إلا جمع الثروة والأثقال على عاتق الأهلين – يكرهونه ويدسون عليه الدسائس. ففي أوائل الدستور ادّعى قائم مقام "جنين" أن (حافظ باشا المحمّد) وابن أخيه (سليم الأحمد) ألفا جمعية لتأسيس خلافة عربية، وأن هذه الجمعية مرتبطة بإحدى الجمعيات في باريس، فصادفت هذه الدعوة أذناً صاغية عند المتصرف، فاستكتب مجلس الإدارة في القضاء واللواء معروضاً لإثبات هذه التهمة، لكن جرائد "بيروت" قامت قيامتها على المتصرف قومة واحدة، وحملت على حكومة "جنين" حملة شعواء، اضطرت (نور الدين بك) والي "بيروت" الأسبق إلى شل حركات القائمين بهذه الدسيسة.

للشهيد أياد بيضاء على المعارف، وقد حاول مراراً تأسيس مدرسة عاليه في مركز اللواء، لكن الحكومة التركية التي تخشى يقظة العرب قاومت هذا المشروع بكل الوسائل والطرق، إلى أن تمّ الاتفاق بينها وبين الأهالي على إنشاء مدرسة تعلم باللغتين التركية والعربية، ومعنى ذلك عند نظّارة المعارف أن تدرسّ بالتركية كل العلوم التي يتوقف عليها نشوء اللغة: كالتاريخ والسياسة مثلاً، وتترك للعربية "الشؤون المقدسة": كالتجويد وأصول العبادات.

أما مكانته في البلاد؛ فقد أجمع بعض الثقات على أنه كان منذ حداثته نافذ الكلمة عند الأهلين على اختلاف طبقاتهم، لا يفضله إلا عمه المرحوم (حافظ باشا المحمد) الذي مات قهراً عليه. وكان أديباً حسن الكتابة قويّ الحجة، في نحو الخامسة والأربعين من العمر. ومن لطيف ما يحكى عنه أن الأمير شكيب أرسلان) جاءه يوماً إلى بيته في "جنين" متألماً يشكي إليه من (نجيب نصّار)

صاحب جريدة "الكرمل" لأنه ذكر اسمه في جريدته من غير لقب "الإمارة" اللازم فقال له سليم: "يا شكيب إنك ما صرت أميراً إلا عند العرب. وأما الترك فلا يعترفون بإمارتك ولا إمارة غيرك من أبناء جنسك". ومال منذ النهضة الأخيرة إلى الدفاع عن حقوق العرب المهضومة وإيقاف الأتراك المختلسين عند حدهم، ولاسيما بعد أن عاثوا في الأرض فساداً ولم يراعوا عهداً ولا ذمّة. كان رأيه في السياسة أن تدار البلاد على قاعدة "اللامركزية" وهي طريقة البلاد السويسرية وغيرها من البلاد المتقدمة، حيث تتمتع عامة العناصر المختلفة بالحقوق المتساوية.

وبينما كان الشهيد في بيته آمنا مطمئناً إذ وردت برقية من السفاح يطلبه بها إلى الديوان العرفي مكبلاً بالحديد، لكن القائم مقام خشي مغبة الأمر، فأوعز إليه بالتأهب للسفر؛ فسمع وأطاع وذهب إلى ديوان التفتيش السريّ في "عاليه". وذهب معه أحد رجال الشرطة لحراسته. جاءه هنا صديقه (حسن حمّاد) رئيس البلدية المتهم بتهمته وعرض عليه الهرب في سفينة شراعية كان قد جهزها من قبل لهذه الغاية فأبى وقال: "إنني لست مجرماً فأهرب، بل سأتحمل سفه هؤلاء الأوباش، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً". فاضطر صديقه إلى الفرار بنفسه. مكث الشهيد في الحبس شهر رمضان، وبعد عيد الفطر ذهب أخوه (أمين عبد الهادي) والسؤال عن السجين، فوعدهما وعداً قطعياً أن يفرج عنه في اليوم التالي، وأنه يريد الذهاب معهم لزيارة "نابلس. فشكرا له عنايته، وسافرا على جناح السرعة إلى "بيروت" ليستعدا للقاء الغائب،واستقبال الزائر. وفي الصباح جاءهم خادم النزل يرتعد وبيده ورقة مكتوب عليها أسماء بعض رجال قال إنه رآهم على حبل المشنقة في "ساحة الاتحاد". قرأ (أمين) الورقة فسقط على الأرض، لأنه رأى اسم السجين المنتظر خروجه بين تلك الأسماء.

أما الذي جرى في تلك الليلة وهي ليلة السبت الثاني من شهر شوال سنة ١٣٣٣هـ من عام ١٩١٥م أن جمال ساق الشهيد إلى "بيروت" وساق معه رفقاءه محمد وأحمد المحمصاني، وعبد الكريم قاسم الخليل، وعبد القادر الخرسا، وصالح

حيدر، ونايف تللو، ومسلم عابدين، وعلي الأرمنازي، ونـور الـدين القاضــي، ومحمـود العجم، وشنقهم في "ساحة الاتحاد" فجراً، بعد أن تملأ الطرقات بالعساكر النظامية وسدّ الطرق في أوجه المارين. قال من حضر شنقهم إني اليوم أتلقى الحكم بالإعـدام برباطـة جاش وثبات عجيب، وطلب من مدير الشرطة ورقاً وقلماً وكتب إلى عمه حـافظ باشـا المحمد ما يأتي:

"أكتب هذه الوصية في الساعة الثامنة والنصف من ليلة السبت الواقعة في ١٠ شوال سنة ١٣٣٣ هجري حيث حكم عليّ بالموت في الساعة التاسعة من الليلة المذكورة، أعني أكتب هذه الوصية قبل موتي بنصف ساعة.

أكتب هذه الوصية وأحد رفاقي المحكومين معـي (محمـد المحمـصاني) أخـذ ليـصلب وإني مسرور بلقاء الله سبحانه وتعالى.

"إني أقيم عمي حافظ باشا وصياً شرعياً وناظر وصي على ابنتي اليتيمة (طـرب) وزوجتي الحزينة (فاطمة خانم) لنا فيحنوه شفقته على عائلتي خير كفيـل علـى راحتهـا، ولعمي الموما إليه أن يوصي من يشاء.

"ليصرف عمي وولي نعمتي حافظ باشا من مالي الخاص ثلاثين ألف قرش، منهـا خمسة آلاف إلى الفقراء والمحتاجين، وخمسة وعشرين ألفاً ليشتري بهـا ملكـاً توقـف المـال المعارف، ويصرف ريعها على أبناء المستقبل،أوصيت لأخي الأمين بألف لـيرة فرنسـاوي من مالي، ولشقيقتي أم لطفي بمائتي ليرة، ولزوجتي بباقي ثروتي النقدية، وبكافـة المصاغ والمجوهرات التي هي لها، وأطلب إليها المسامحة، وأشهد الله بأنني أموت وأنـا راض عنهـا، فجزاها الله عني خير الجزاء، وجزاء الخير.

"أطلب المسامحة من الجميع، وأعترف في حالة الموت بأفضل والإحسان لسعادة عمي حافظ باشا، جزاه الله خيراً وصحبني به تحت لواء المصطفى صلى الله عليه وسلم.

"وأكتب هذا بقلم حديد، ومن التحقيق بالخط يعلم أنه كتب جيداً مـما يدل على أنني أستقبل الموت بصدر رحب، وذلك لأنني خرجت من هـذه الدنيـا نـاصـع

الجبين، طاهر الذيل، مؤمناً بالله اليوم الآخر".

وكتب على ظهر الوصية بخطه أيضاً "تسلّم ليد أخي أمين أفندي عبد الهادي مبعث لواء نابلس، لا يسهى عن فكره تسديد (بابا إخوان) ثمن قسطان النوم والبشكيرين.

محمود نجا عجم

هذا الشهيد من الذين تخرجوا في مدرسة العربية الفتاة، يؤمن أن العربية الفتاة، هي نسيج وحدها في ذلك العهد، وفي تصورها السياسي والفكري وفي منهجيتها الحركية وأسلوبها التغييري، فلذلك كان يستشرف المستقبل وهو مؤمن أشد الإيمان أن هذه الأمة لن تفقد قيمتهما وشخصيتها وهويتها مهما حاول أعداؤها محاربتها، وان المهمة الملقاة على عاتقه صعبة وشاقة. وكان يعي حركة التاريخ لأحداث التغيير في المجتمع العربي، والذي يكون بالتكوين والإعداد والتخطيط السليم من خلال الحركة والعمل، وليس فقط من خلال الدرس النظري، فلذلك انتسب إلى الجمعيات العربية، وكان عنده القدرة على الصمود والتحدي والاستمرار في تحقيق الهدف الذي آمن به ودفع حياته ثمناً له.

ولد محمد نجا عجم في مدينة بيروت عام ١٨٧٩م. ودرس دراسته الأولى على يد الشيخ عيسى المشهور بعلمه وورعه، ثم انتقل إلى الكلية الإسلامية التي كان يديرها العلامة المعروف الشيخ عباس الأزهري، هذه الليلة كانت خلية من خلايا حلقة دمشق الصغيرة التي تحدثنا عنها.وانضم إلى جمعية القحطانية السرية التي كانت تضم عدداً من المدنيين والعسكريين العرب،وكانت هذه الجمعية تدعو إلى أن تتألف الدولة العثمانية من جزأين مستقلين استقلالاً تاماً في الأمور الداخلية الواحد عربي والآخر تركي. وتكون الدولة عربية تركية في إطار عثماني، على غرار إمبراطورية النمسا والمجر، فيحمل السلطان الخليفة حينئذ تاجين: تاجاً عربياً والآخر التزمته، فشاع أمرها، اضطر مؤسسها إلى حلها دون أن يتخذوا قراراً بذلك، وانضم بعض أعضائها فيما بعد إلى جمعية العهد والفتاة".

وكان محمود العجم من أبرز أعضاء الجمعية القحطانية، وكان له علاقة وثيقة مع كل من عبد الغني العريسي محمد المحمصاني وعمر حمد والثلاثة الأخيرون لم تنقطع صلتهم بالكلية الإسلامية التي تخرجوا فيها، فلذلك كانوا يركزون على طلابها في انضمامهم إلى العربية الفتاة. وبعد تخرج محمود من الكلية عمل في القطاع الخاص، وفتح مكتباً لتخليص البضائع الجمركية، وكان لهذا المكتب صدى كبير عند الذين يتعاملون بالتجارة، لما يتمتع صاحبه من خلق رفيع وأمانة وصدق في التعامل والإخلاص في عملهن فكان الإقبال على هذا المكتب منقطع النظير، إضافة أن صاحبه كان رجلا اجتماعياً من الدرجة الأولى، وقد ساهم في النشاطات الثقافية والاجتماعية من خلال الأندية والجمعيات التطوعية. لأنه يؤمن بإعداد شباب الأمة العربية إعداداً متكاملاً حتى يتمكنوا من النهوض بالأمة، لتأدية دورها في مهمة التغيير، وهذا التغيير يحتاج إلى بناء فكري كبير وجهد متواصل، ومن هذا المبدأ كان يركز محمود العجم على الثقافة الأصلية ليقيم حياته على أساسها وضمن معطياتها، كما أنه بحاجة إليها في بناء شخصيته إضافة لاجتذاب الآخرين المؤمنين بتغيير الواقع لينضموا إلى هذا التنظيم، وعدم الارتهان للواقع المرّ الذي كان تعيشه الأمة العربية فكان نشاطه الثقافي متميزاً في المشاركة في الندوات والمحاضرات والأمسيات الثقافية والاجتماعية التي تحفز الناس على تغيير الواقع إلى واقع يتناسب مع الهوية الحضارية لهذه الأمة. كما أن اتصاله مع ثلاثة من خيرة بناة النهضة العربية أبرزت عنه الصفات القيادية المبكرة، وجعلته متفاعلاً مع الأحداث والقضايا العربية وما تؤول إليه من نتائج. فطلب على الديوان العرفي، وزج به في السجن وسجل تاريخ جماعة الاتحاد والترقي صورة سوداء في تاريخ الأمة العربية لم تسجلها من قبل حتى محاكم التفتيش، ولا نكبات الاعتقالات في أبشع صورها في تلك السجون والمحاكم والمعتقلات، فتعرض الشهيد محمود العجم لأبشع أنواع التعذيب والإرهاب في السجن العرفي خاصة، ولما يئسوا من حصولهم على ما يريدون من معلومات تدين شباب العروبة، جاء في نص اتهامه وإعدامه: "كان من ضمن الداخلين في فرع بيروت، وكما اعترف هو بنفسه كان يؤدي عائداته منتظماً، واعترف أيضاً بأنه كان

قرأ المنشورات اللامركزية وسعى في إذاعتها".

وفي يوم ١٢ آب عام ١٩١٥م أعدم في ساحة المرجة مع إخوانه شهداء الأمة والوطن، مع شهداء القافلة الأولى، وتقدم إلى حبل المشنقة بكل هدوء، وقال كلمات تلخص حياته: "روحي فدى العروبة بلادي واستقلالها، عشت شريفاً وأموت شريفاً".

محمد مسلم عابدين

((كلما اشتد الظلم والتأخر اللذان يهددان شعباً حياً بالهلاك بدأت الأفكار الثورية تولد لعالم جديد وقوى جديدة تهدف إلى إنقاذ الشعب من الكارثة.. وربما اختبأت هذه الأفكار القوية الخصبة في عقل رجل يلبس العمامة ويتحدث اللغة العربية الفصحى، ويبدو وكأنه رجل دين لا علاقة له بالدنيا: أي لا علاقة له بالحكام والشعوب، وربما اختبأت هذه الأفكار على "مصطبة" يجلس فوقها ناس يتدارسون – في العلن – أمور الفقه والنحو وما إلى ذلك، وهم في حقيقة أمرهم يدرسون معنى الثورة وطريقة الثورة... يدرسون" سر الحياة" السليمة، ويفكرون في تغيير الظلم نشر العدل في المجتمع المظلوم، وربما اختبأت هذه الأفكار الثورية على حصيرة جامع يقف الناس فوقها، يتجهون بقلوبهم إلى الله، وهم في أعماقهم يشعرون ((أن الله هو العدل))، هذا الكلام ينطبق تماماً على الشيخ محمد مسلم عابدين الذين يلبس العمامة ويتحدث اللغة الفصيحة ويدارس النحو واللغة والأدب والفقه ويهتم بأمر المسلمين، ويقف أمام الحكام ويرفع صوته عليهم ولا يخاف في الله لومة لائم، لأنه يفهم الإسلام برؤيته الشمولية، فهو نظام شامل كامل متكامل لجميع نواحي الحياة: عقدية وتربية وفكراً وسياسة واقتصاداً ونظام حياة، وكان باستطاعته أن يكون رجلا دين لا علاقة له بالدنيا ولا علاقة له بالحكام والشعوب. لأن شهيدنا يؤمن بالتصور الشامل للإسلام فإنه يرفض الانعزال والانغلاق، فالعلماء المخلصون والدعاة الصادقون يقومون بمنزلة الأنبياء وكان باستطاعته أن يتقرب على الحكام والولاة ويحصل على الهبات والعطايا، ويتردد على أبوابهم ويعينه على ظلمهم ويصدقهم بكذبه، ولأنه يؤمن، أن شر العلماء أقربهم من الأمراء، فإن شيخنا كان يرى المحاولة في اجتثاث الإسلام من جذوره وإقصائه من الوجود والشهود من قبل جماعة الاتحاد والترقي، ولهذا كان عنده الوضوح التام لأهداف ووسائل هذه الجماعة وإدراك تام لما

يجري من محاولات التتريك، ومعرفة لضراوة المعركة التي يخوضها ضد أعمالهم وممارساتهم.

ولد محمد مسلم عابدين في دمشق عام ١٨٩٨م. وقد اشتهرت هذه العائلة بالعلم والمعرفة والتقوى، في هذه الأجواء الدينية ترى ونشأ ودرس دراسته الأولى في المدرسة الشامية الوحيدة آنذاك في دمشق، ودرس على يد عمهم علوم القرآن والأحاديث النبوية واللغة العربية وآدابها، وكان عمه من أشهر علماء الشام في الفقه والعلوم الشرعية، تتلمذ على يديه كثير من رجال العلم والمعرفة، واشتهر بلقب ((أبو الخير)) وعمل في مديرية الأوقاف العامة في دمشق رئيسا للديوان، ثم تولى مديراً بالوكالة لهذه المديرية، اصطدم بالمتنفذين الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالحرام ويستولون على أملاك القاف بوسائل الحيل والنصب والتزوير، فكان لهم بالمرصاد، يعريه، ويكشف أساليبهم الملتوية، فتمكنت هذه الفئة من المؤامرة عليه ونقله بتهمة سياسية، حتى يخلوا لهم الجو في ممارسة استملاك أراضي وأموال الأوقاف، وخلال هذه الفترة أصدر جريدة لم تعمر طويلاً، لأسباب منها أنه حمل حملة شعواء على هذه الفئة الطامعة في أكل الأموال بغير حق. ولشدته في موقفه صدر تعيينه مديراً للأوقاف للتخلص من قلمه ولسانه ووطأته عليهم، وضمان سكوته عنهم وإبعاده من مديرية أوقاف دمشق، ولكنه وقف مرة أخرى في وجوههم وان شوكة مرّة دامية في حلوقهم وقلوبهم. وتنبهت الحكومة الاتحادية إلى جرأته وشجاعته وشعبيته بين الأهلين، وقد استطاع هذا الشيخ الجليل بعلمه وسلوكه،واتسع ثقافته، وبعد نظره، أن يغرس في نفوس الناس والشبيبة لعربية، التربية السليمة، وحب الوطن والاعتزاز بأمجاد الأمة العربية، والتاريخ، والإقبال على تعلم اللغة العربية، وأمرت الشرطة أن تداهم بيته وإحضاره في أسرع وقت، وعندما داهمت الشرطة البيت طلب منهم الإمهال حتى يهيء نفسه للذهاب معهم، ويبدو أنه شعر بالخطر معتقدا بعدم رجوعه مرة ثانية فلذلك استطاع أن يرمي مجموعة من الأوراق في صرّة إلى دار جاره العلامة الصوفي ((الشيخ عارف الصوفي)) وبعد التحقيق معه لم يثبت عليه أي شيء وأخلوا سبيله، إلا أنه بعد أيام قلائل أعيد

اعتقاله وسيق إلى الديوان العرفي وصدر قرار اتهامه بأنه مع كونه غير داخل في الجمعية، كان يكاتب حقي بك العظم، إلا انه قبل نحو سنة أو سنتين بعد البحث عن منزل الموما إليه، كتب حقي العظم خطابا يتعلق بهذه المسألة، وبين في الخطاب أنه ضمن الداخلين في الجمعية هذا الخطاب عرض عليه، وكان معتمداً للجمعية في اللاذقية. وحكم عليه بالإعدام في صباح يوم ١٢ آب عام ١٩١٥. وكما ذكرنا، فالسلطة كلما أرادت أن تعتقل شخصاً ترجع إلى عتيق دفاترها وتختلق من مخيلتها إسكات هذا الصوت الذي يزأر في الآذان ليوقظ أبناء الأمن من سباتهم، يذود عن كرامة الأمة العربية وحريتها، ويقذف بالنار واللهب بكلمات تخرج من قلبه ولسانه تحرق الظلم والظالمين فكانت خطبه في المساجد تثير الحماس في نفوس الناس، وقبل أن نختم الحديث عنه لابد وأن نقف عند وصيته التي تكشف عن طيبته وخلقه الرفيع في أصعب الظروف وأحلكها.

"بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم".

مرحباً بلقاء الله

ديوني: على الشيخ فارس الدمياطي – في اللاذقية مجيدي عدد (١٥٩

إلى عمه – (٧)

إلى الشيخ محمد افندي الأزهري – " هو أدرى بالمقدار

إلى علي أفندي كيال – "بموجب دفتره

إلى الحاج مصطفى شريتح – "نصف ليرة عثمانية

إلى أديب أفندي حكيم – ٤٣ قرشاً

إلى علي أفندي تقي الدين في الشام أو في بيروت ليرتان عثمانية

إلى الحاج أحمد المغربي عشي في بيروت هو أدرى لا أعرف المقدار

دفني - : في الشام في مقبرة باب الصغير.

تزويج ابنتي لابن عمي

عمل إسقاط صلاة، وإسقاط صوم أي كفارة، والشهادة لي بأني تائب لوجه الله تعالى، طلب السماح لي من الشيخ محمد أفندي الأزهري في اللاذقية مما يعلم ومما لا يعلم.

أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمن أوصي عمي أبو الخير، وخالي صادق بالبنات وعن أخيّ وابنتيّ وامرأتي الظليمات، وأوصي صهريّ نوري وفارساً بأخي والله الحفيظ.

إنني أوصي بعمل تهليلة لي لوالديّ وقراءة ختم، وقد وقفت المكرم ودلائل الخيرات الموجودين في جيبي لجامع الورد في الشام في سوق ساوجه، إنني سامحت من كان سبني وأرجو الله تعالى أن يسمح عني وعنه.

هذه الوصية تسلم لعمي أخ أبي وخالي والد امرأتي.

أرجو من امرأتي أن تسامحني بمقدم صداقها ومؤخرها ومالها بذمتي من الحقوق لأنها ابنة كرام.

أرجو من شقيقيّ وامرأتي وكل أهلي أن يقرؤوا لي ما تيسر من القرآن العظيم.

تبت إلى الله من كل ذنب والحمد لله رب العالمين.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

إن لم يتيسر دفني في الشام في باب الصغير، فليكن في شارع عام تمر فيه الناس والسلام على من اتبع الهدى.

لي في الديوان العرفي ٥٣ ليره والبقية ضمن صندوقين وخرجين والليرات عثمانية.

رأيـت خيـال الظـل أكـبر عـبرة لمـن كـان في علـم الحقيقـة راقـي

شـخوص وأشـباح تمـر وتنقـضي تـزول وتفنـى والمحـرك بـاقي

من ديوني التي أرجو أن تؤدى عني أو يستسمح من أهلها، مقدار إلى الخواجه شكري الحلاق تجاه الحوض قرب السرايا ولست أعلم مقداره، سلمت ليرة عثمانية واحدة ومجيدين وعدة قروش وستة عشر قرشاً وعشرة بارات صاغ فرط إلى إدارة البوليس في بيروت، لتضم على التركة مع ساعتي التي لمتها أيضاً.

أرجو أن يخصص لأطفالي معاش الأيتام، لأنه من حقوقي الشرعية، أرجو أني طلب لي سماح مصطفى الجمال خادم جامع الصغير في اللاذقية.

العلاجات الموجودة عندي جعلتها وقفاً وصدقة على فقراء السجن، وإنني أوصي إذا دفنت في بيروت أن يكتب على قبري الفاتحة لهذا الغريب، ولكنني أؤكد كل التأكيد أن يكون قبري في مقبرة باب الصغير في الشام عند قبور عائلتي.

نايف تللو

كان من الإنجازات الرائعة التي حققتها جمعية العربية الفتاة في نفوس الشباب، إعادة بعث الأمل من جديد، ولعل الشهيد نايف تللو واحد من باب العروبة الذين كانوا يؤمنون إيماناً كبيراً في بعث الثقة والأمل في روح الأمة، وعلى هذا المبدأ كان يعمل ويجاهد بقلمه ولسانه، مؤمناً بثقة هذه الأمة التي ما تزال تحس بنبض الحياة، وأنها قادرة على النهوض من سبتها العميق، الأمل الكبير الذي كان يداعبه أن الأمة العربية بالغة ما تطلع إليه من حرية ووحدة، وأن الاستعداد لمواجهة الموت في سبيل هدف نبيل كانت مطلبه الأسمى، وأن الإيمان بفكرة عظيمة هو اكبر دليل على اليقظة والحياة، فلذا نرى أن الشهيد نايف تللو كان في كل مقالة أو مجلس أو مكان يحيي الأمل والثقة في نفس أبناء الأمة.

ولد نايف سليم تللون من أسرة عربية الوجه واللسان، وكان مولده في دمشق عام ١٨٨٥، وسبب تسمية عائلته بـ "تللو" نسبة إلى مسقط رأسه وهي قرية تقع في جبال الأكراد ضمن مدينة حلب.

درس المرحلة الابتدائية والإعدادية في دمشق، وبعد أن أنهى هذه المرحلة عمل موظفاً في مدينة درعا، ثم تنقل بين الوليات العثمانية (زحلة والكرك)، وفي الكرك سيق إلى دمشق من أجل التحقيق معه في أمر العمل العربي السري، وتولي أمر التحقيق في ذلك والي دمشق آنذاك خلوص بك، ووعدوه بالعفو إذا كشف عن أسرار هذا النشاط، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل من الحصول ولو على اسم واحد من العاملين في العمل العربي السري، ولما يئس القوم من ذلك زج به إلى الديوان العرفي في عاليه في بيروت ليتذوق مرار الرحيق المختوم في كؤوس شيب فيها الردى. ومن ألوان العذاب في الديوان العرفي أن زبانية هذا الديوان كانا يفتنون في

التعذيب، والضرب، وكان اخف شيء عندهم وخز الشباب بالإبر، ولا يدعونهم ينامون ثلاث ليال متتابعات ليضطروا للاعتراف والإفادة بما يوافق رجل الديوان العرفي، وكانوا يضعون آلة ضاغطة على صدغي المعتقل يضغطون بها على رأسه فيشعر أن دماغه برز من عينيه، وكانوا أيضاً لا يعطون لمن يريدون التضييق عليه من المعتقلين إلا قليلاً من الخبز الماء كل يومين، ويُضرب بعضهم على أرجلهم بالفلقة، بل وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ إن بعض الشبان كانت بنطلوناتهم ممزقة وسراويلهم ملطخة بالدم،وقد التصقت بأجسادهم من شدة الضرب. من جملة إهاناتهم كانوا يحلقون لمشايخ القرى، ويسجنون الشباب بمحلات مظلمة، ويمنعونهم من الكلام أو الحديث مع بعضهم بعضا، هذه صور مبسطة عن أساليب التعذيب والإرهاب الذي اكتوى بها الشهيد نايف وزملاءه أبناء العروبة وكان يتحمل كل ذلك العذاب بصبر كجلد في سبيل الحفظ على أسرار الجمعية وأسماء منتسبيها ونشاطتهم.وصدر في قرار اتهامه وإعدامه "أنه كان من ضمن الداخلين في الجمعية ومعتمدا لها بالبقاع، وأفاد أيضاً بأنه كان قد أدخل بعض الأشخاص فيها".

في ٢١ص آب عام ١٩١٥م، تقدم إلى حبل المشنقة مستهزئاً بكل جلاديه، واثقاً بأن النصر لهذه الأمة مهما اشتد الليل، ولو ضعف في لحظة ما، لتعرض رجالات وأعلام الرأي العرب إلى الخطر والموت، وكانت شيمته العربية مروءته وأصله وحسن تربيته سبباً في ثباته، آثر أن يموت في سبيل وطنه والأمة على أن يبوح بسر من أسرار إخوانه أبناء العروبة. والشهيد نايف تللو في طليعة المثقفين من شباب العرب الذين كانوا في حوار دائم ومستمر مع قضايا أمتهم المصيرية، ولذا كان يراسل جريدة المقتبس بمقالات تكشف عن مدى ثقافته واضطلاعه بالمسائل العربية والقضايا الاجتماعية بعد نظره في كثير من المسائل.

صـالـح حيـدر

هذا الفتى العربي حمل قضية أمته منذ صغره، وكانت هذه القضية قضية وجود وحياة أمة يشعر بالخطر محدقاً بها فتثير ثائرته، منطلقاً في كل محفل وناد يزأر في الآذان ليوقظ أبناء الأمة العربية من سباتهم، ولا يخشى أذى أو خطراً، ويقذف بالنار واللهب الكلمات تخرج من لسانه يُحرق بها الذين تستخدمهم الحكومة في التجسس على أبناء جلدتهم،ويحرق بها رموز الحكومة أيضاً. هذه صورة من صور جيل الفداء الذين آمنوا بمستقبل أمتهم، وبالرغم من أنه دخل في العمل لسري لكن لم يكن يشفي غليله، إلا أن يرى أمته منتصرة، وهو العربي الجريء الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، يدعو للذود عن كرامة أمته وحريتها، وكان متحمساً للعمل مع أخوانه بناة النهضة العربية الحديثة، مستشعراً مسؤوليته بوصفه عربياً مسلماً مثقفاً، يريد أن يرى بلاده حرة مستقلة وقوية، تنعم بالأمن والحرية والعدالة والإخاء، فهب ثائراً على هذا الواقع الأسود لا يخشى العاقبة ولا النتائج المترتبة على مواقفه وأقواله إنه الشهيد صالح حيدر.

ولد صالح أسعد حيدر في لبنان عام ١٨٨٤م. وهو من عائلة معروفة في وجهاتها وزعامتها في منطقة بعلبك في لبنان. درس المرحلة الابتدائية ثم انتقل إلى الكلية البطريركية في بيروت لإتمام دراسته العليا وتخرج في هذه الكلية عام ١٩٠٤م بعد أن حاز على شهادتها بتفوق.

في عام ١٩١٢م انتخب رئيساً لبلدية بعلبك،وسرعان ما لمع نجمه كرجل جماهيري متفوق. وكان صوته الصدى الحقيقي والمعبر عن أماني وآلام شعبه، فاتجهت إليه الأنظار والقلوب لأنه صوتهم الذي يصدع بالحق ولا يخاف ولا يداري. من مواقفه المشهورة التي كانت حديث أهل بلاد الشام آنذاك أنه ألقى خطبة رائعة

أمام الأتراك في الكرك، وبالتحديد عام ١٩١٥م فحواها أن العرب على أتم الاستعداد لمساعدة لأتراك في الحرب العالمية الأولى، بشرط أن يمنحوا هذه المنطقة الاستقلال، وأثارت عليه هذه الخطبة لحماسية المثيرة ثائرة الحكومة، تحسبوا كل خطواته وأرسلوا الجواسيس يتعقبونه في كل مكان. أما نشاطه السياسي فقد تبلور عندما اتصل مع الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني اللذين كان لهما فضل كبير في إعداد شباب العروبة المتحمسين لنهضة الأمة العربية وبعث مجدها من جديد، لمواجهة التحدي، وإحداث التغيير العربي المنشود في توفير كل الضمانات له التي تجعله قدراً على تكوين الشخصية العربية المتميزة تكويناً متكافئاً للمهمة الموكولة لهم، وكان مبدأ الاختيار لعناصر التغيير يعتمد على ما هو أصيل لان (فاقد الشيء لا يعطيه) فانضم إلى اللامركزية والإصلاح والعربية الفتاة، وهذه كما فصلنا الحديث عنها، تبنت القضية العربية والإصلاح خاصة بعدما اشتد الاضطهاد، وكان هذا الاضطهاد حافزً كبيراً وجدياً ليقظة العرب الذين صمموا على مواصلة المطالبة لنيل حقوقهم بعد أن كشف الاتحاديون عن عنصريتهم المتطرفة، مما حفز العرب على تأليف الجمعيات السرية والعلنية مطالبين في بداية الأمر بالمساواة، بين العرب والترك، وقد أتاح لهم الهامش الصغير في مجلس •المبعوثان) الدفاع عن حقوقهم. وتطورت من المطالبة بالإصلاح إلى لمطالبة على أسس اللامركزية، وكان ور الشهيد صلح حيدر في هذه الجمعيات السرية والعلنية عربياً مشبعاً بقوميته العربية، فهو عضو فعال في نشاطاتها ومؤمناً بأهدافه ووسائلها ومثلها. وعندما عاد جمال باشا السفح من حرب قناة السويس مدحوراً مقهوراً، استعرض قائمة أحرار رجالات العرب وكان في مقدمتهم صالح حيدر، وعندما أحس بذلك حيدر اختفى عن الأنظار في الجبال، فأمر السفاح بالقبض على عائلته ووالده وعمه، وهدده بأنه إذا لم يسلم نفسهن فإنه يعدم والده بدلاً عنه، واستطاع عمه أن يقنعه خاصة بعد القبض على والده، فاستجاب لنصيحة عمه وسلم نفسه وبق إلى الديوان العرفي فأصدر حكم الإعدام عليه بتهمة "أنه كان معتمد اللامركزية في بعلبك، ووجد مصرحاً في المكاتب التي كانت وردت إليه والتي أرسلت إلى الشهيد محمد المحمصاني من

مصـرن انه من ضـمن الداخلين في التشكيلات السرية.

وفي فجر ١٢ من آب من عام ١٩١٥ أعدم شنقاً في سـاحة المرجـة، وعنـدما وضـع الحبل على عنقه قال كلمته الأخيرة "نموت، ولكن بجماجمنا أساس الاستقلال العربي".

علي الأرمنازي

الانجازات الطليعية التي حققتها حركة اليقظة العربية الحديثة في المجتمعات والأحزاب العربية، وحّدت بين العناصر، فنرى أن ابن الأسرة الكبيرة العريقة زميلاً وخدناً لابن الأسرة المغمورة، ونرى الحضري زميلاً للبدوي، والمسلم زميلاً للمسيحي. كما أن معظم المنتسبين لهذه الجمعيات تجمع بينهم زمالة قوية بغض النظر عن الفروق القطرية أو المذهبية أو الاجتماعية، فنجد أن الأرمني الكردي والعربي والمسلم والمسيحي والدرزي انضموا تحت راية هذه الجمعيات التي كانت تهدف إلى غاية نبيلة ومشرفة في التخلص من الظلم والاستبداد، ولذلك نرى في وصية الشهيد عبد الغني العريسي، مفكر ونابغ "جمعية العربية الفتاة" تركيزاً على هذه القضية: "التمس منكم أن لا تفترقوا فرقاً وطوائف" والشهيد علي الأرمنازي كان يشعر بالكبرياء الوطني والانتماء القومي للأمة العربية، ومن منطلق انتسابه إلى أمة ذات ماض مجيد سار على طريق التضحيات والبطولات، حتى يتحقق الهدف العظيم مهما طال الزمن وكبرت التضحيات. وكان علي الأرمنازي واحداً من الذين يفتخرون بالعمل العربي السري مهما كانت النتائج.

ولد في مدينة حماة عام ١٨٩٤، وتربى في بيت مشهور بالعلم والأدب، إذ كن والده علي الأرمنازي من الشيوخ المعروفين في حماة، لى أيدي أساتذة معروفين في أدبهم وعلمهم، وبعد أن أنهى دراسته تمّ تعيينه موظفاً في دائرة القضاة وهي في مقتبل العمر، ولم ترق له هذه الوظيفة، وقدم استقالته واشتغل في سلك المحاماة والصحافة التي كان يهواها منذ صغره، وانتسب إلى حزب اللامركزية في مدينة حماة، وكان عضوا ذا نشاط متميز في الحزب. وفي ١٩١٢م أصدر جريدة نهر العاصي، فالصحافة كانت تعيش في دمه، وتسري في

عروقه، وكان هذه الصحيفة ناطقة باسم الحركة الإصلاحية وحزب اللامركزية، تلك التيارات التي تطالب بالحقوق العربية المشروعة.م وفي عام ١٩١٣م أعدم الكثير من الشخصيات العثمانية، فقد نشر في أحد أعدادها قصيدة نارية وفي الصفحة الأولى لأحد شعراء مدينة حلب الشيخ حسن الرزق ومطلعها:

إلى حضرة السلطان ارسله شعراً عسى أن يرى فيه من العرب الذكرى

فجن جنون السلطة على الصحيفة وصاحبها، ونصحه بعض أصدقائه أن يتوارى عن الأنظار بضعة أشهر، في أثناء ذلك استطاعت نخبة من أصدقائه أن يحولوا القضية من جناية إلى جنحة، وتقدم إلى المحكمة بناء على ذلك وأصدرت المحكمة براءته، ويبدو أن أعضاء المحكمة كان لهم صلة بالقضية العربية، وكانت الفكرة القومية مستحوذة على اهتمامهم، وكان للصحيفة صدى كبير في العالم العربي وخاصة أنها ناطقة باسم زعماء الإصلاح، تنشر مقالاتهم وقصائدهم وأفكارهم ونظرتهم إلى مستقبل العلاقة بين العرب والأتراك، واستطاعت في فترة وجيزة أن تكون ملتقى قادة الحركة العربية ومحط ثقتهم بها، ولهذا شعرت جماعة الاتحاد والترقي بخطورة الصحيفة وصاحبها، وأصدرت في أواخر شهر حزيران سنة ١٩١٥م أمراً باعتقاله ولما دخل على جمال باشا السفاح قال له: "ماذا تقول بالديوث عبد الكريم الخليل، فأجابه: أنا لا أعرف أن عبد الكريم كان ديوثاً، والذي أعرفه أنه كان من أعز أصدقاء جمال باشا ومن ذوي الكلمة النافذة عنده، فاحتدم جمال السفاح غيظاً من جوابه وصفعه على وجهه وأخرجه من عنده، وأرسله للديوان العرفي، وأمر أن يضرب ثم حكم عليه بالإعدام، وكان قرار اتهامه وإعدامه، أنه اعترف بأنه كان على صلة باللامركزية، ثم ادعى بأنه انفصل عنهم، مع انه كان معتمداً في حماة، وقد جاءه نوري القاضي بالختم على حد زعم العرفي.

وكان علي الأرمنازي صديقاً لعبد الكريم الخليل، ولعل سؤال جمال السفاح الآنف الذكر، يكشف عن مدى المودة الوثيقة بين الاثنين. ومن مواقفه النبيلة وهو

في هذه الظروف الصعبة أن سأله أيضا جمال السفاح عن "خالد آغا الدرويش البرازي" ومدى علاقته بالأحزاب والجمعيات العربية، فأجاب أنا لا أعرف هذه الشخصية، وإنما أعرف (خالد آغا الباكير البرازي) نائباً في البرلمان العثماني. وكانت هذه الإجابة الملتوية خوفاً من أن يقع خالد آغا الدرويش في هذه المصيبة، وقد الصقت به التهم المنسوبة إلى ابن عمه النائب في البرلمان الذي لم يكن له أية صلة بالتيارات أو الجمعيات العربية ومعروفاً لدى الحكومة بذلك.

وتعرض علي الأرمنازي لأشد أنواع العذاب والتنكيل، وتحمل كل ذلك بالصبر على الألم، لم ينبس شفه أو بكلمة واحدة تدين إخوانه العاملين بالفكرة القومية.

شهداء القافلة الثانية

في دمشق

١- شفيق بك المؤيد العظيم "دمشق"

٢- عبد الحميد الزهراوي "حمص"

٣- الأمير عمر الجزائري "دمشق"

٤- شكري العسلي "دمشق"

٥- عبد الوهاب الإنجليزي "دمشق"

٦- رفيق رزق سلوم "حمص"

٧- رشدي الشمعة "دمشق"

شفيق مؤيد العظم

هو نائب دمشق في البرلمان العثماني، وصاحب المواقف الأبية المشهورة مع طلعت باشا وزير الداخلية العثمانية، وكانت له صولات جولات مع الوزراء العثمانيين، تشهد له بذلك محاضر جلسات البرلمان العثماني. نشأ شفيق وترعرع في بيت علم وأدب وسياسة، وأسرته عريقة المجد بين الأسر الشامية، وقد نبغ من هذه الأسرة عدد كبير من النوابغ لا مجال لحصرهم في هذا الباب.

ولد شفيق بن احمد بن مؤيد بن مؤيد باشا العظم، في مدينة دمشق عام ١٨٥٧، أدخله والده كتاب الشيخ (محمد بندق) وهو في الثالثة من عمره، فتعلم فيه المبادئ الأساسية للقراءة والكتابة والحساب والقرآن الكريم. ولما وقعت حادثة الستين الشهيرة بتخطيط من الأتراك وبعض أذناب المستعمرين، لم يطلب لوالده المقام في دمشق، فارتحل إلى بيروت مع أسرته، وكان هذا بالتحديد عام ١٨٦٣م والتحق شفيق بمدرسة الكلية الأمريكية، ومدرسة عين ثورا في لبنان، وقد ظهرت عليه مخايل الذكاء النبوغ وهو طالب على مقاعد الدراسة، مما لفت أنظار مدرسيه، وتنبأوا له بمستقبل كبير في عالم لإبداع والسياسة، وكان يحفظ الأشياء الصعبة والألغاز والقصائد الطوال من أول مرة.

عمل في مقتبل عمره في (جمرك) بيروت وفي قلم الدفاتر "الخاقاني" في ولاية سورية برتبة معاون مدير، وان ذلك وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان محط إعجاب وثقة «حمدي باشا) والي سورية، مما أثار نقمة حاسديه فوشوا به على السلطة العسكرية بأنه لم يكن ضمن سجل النفوس أو السجل لمدنين وكان القانون العسكري لا يتهاون في هذه القضية، ويعاقب عليها اشد العقاب، أقلها إدخاله قسراً في الجندية، مع التوصية بإرساله إلى المناطق النائية في أطراف الدولة العثمانية.

ولما علم أن السلطة العسكرية تنوي القبض عليه، بعدما فشلت وساطة والي دمشق (حمدي باشا)، نصح بأن يتوارى عن الأنظار، فسافر إلى بيروت وانتقل إلى الأستانة، يحمل توصية خاصة من والي دمشق، فصدرت الإدارة السلطانية بإعفائه من الخدمة العسكرية ومنحه الدرجة الثانية، ولعل تفانيه في العمل وذكائه واعتماد الوالي عليه كان وراء ذلك، فرجع إلى دمشق ثائراً في وجوه حاسديه.

وبعدما توفي الوالي (حمدي باشا) تم تقسيم ولاية سورية إلى ولايتين، فأمر المشير حسين باشا الوالي الجديد (ناشد باشا) بإلغاء وظيفة شفيق بسبب الخلاف الذي كان مستحكماً بين حمدي باشا وحسين فوزي باشا، وبكلمة أخرى أخذ يستعبد ويصفي كلم من كان له علاقة مع الوالي حمدي باشا. فاضطر والده للسفر إلى الأستانة وقابل السلطان عبد الحميد، ويبدو أن السلطان قد أعجب بشفيق فعينه مترجماً في القصر السلطاني، ولما هرب (مراد بك الداغستاني) مندوب الدولة في صندوق الدين التركي العام تم تعيين شفيق مكانه.

ولما نشب الخلاف بين الدولة العثمانية وفرنسا بسبب دين لوراندوبين واحتل الأسطول الفرنسي "جزيرة مدللي" استشاره السلطان عبد الحميد فيما ينبغي عمله إزاء هذه القضية، فكتب له تقريراً شاملاً شارحاً له المشكلة من جميع جوانبها، وأوصى في نهاية التقرير بضرورة التساهل مع فرنسا التي لا تتنازل عن حقها، وقبل أن تضطر الدولة إلى تقديم ترضيه رسمية تحط من كرامتها، علينا أن ندفع الدين في أسرع وقت ممكن. ويبدو أن هذا التقرير لم يرق للسلطان عبد الحميد، فتم نقله مندوبا لدى شركة احتكار الدخان، ولما أعلن الدستور العثماني، رشح نفسه نائباً عن دمشق، فانتخبته دمشق نائباً عنها في مجلس المبعوثان، فأحست جمعية الاتحاد والترقي بشعبيته الكبيرة وقيمته الصادقة وصلته برجال القصر، فأوعزت الجمعية إلى (ح•سين جاهد بك) مبعوث الأستانة وصاحب جريدة (طنين) المشهورة في حملاتها ضد العرب وتعصبها للأتراك، بتدبير حملة واسعة على شفيق من أجل رفضه في المجلس، ويبدو أن الحملة التي كانت يديرها (حسين جاهد) كان لها أثر كبير، واستطاعت أن تقنع الحكومة برفض شفيق في المجلس، ولكن إصرار الأهلين في

دمشق بالتمسك بمبعوثهم قطع الطريق على الاتحاديين وأعوانهم، وحال دون الاستمرار بقرار رفض دمشق خوفاً من ثورة عارمة بدأت بوارقها في الأفق، ولم تتوقف الحملات عليه حتى بعد دخوله المجلس، على الرغم من الشعبية التي كان يتمتع بها. وأخذ خصومه يدسون له الدسائس ويتهمونه بأنواع التزوير والاحتيال، ونهبوا الحكومة إلى الوظيفة التي يشغلها في صندوق الدين، بحجة أنه لا يجوز للنائب في المجلس أن يتولى عملاً آخر في الحكومة، ففضل النيابة وتخلى عن عمله في شركة احتكار الدخان. وانتخب (حسين جاهد بك) صاحب جريدة "طنين" الحكومة بنت شفة، بل سمحت له بالعملين معاً، لأن الترك كانوا لا يعاملن رعاياهم على قاعدة "الناس متساوون في الحقوق الواجبات" ولا كانوا يطبقون مفاصل القانون، إلا إذا كان لقومهم منافع فيه.

في هذه الفترة ساهم شفيق العظم في تأسيس عدد من الأحزاب الجمعيات منها: حزب الإخاء الربي العثماني، وهو حزب عربي التكوين والهدف، وكان عضواً بارزاً في تأسيس الحزب الحرّ المعتدل، ثم حزب الحرية والائتلاف وهما الحزبان النيابيان اللذان دافعا عن الدستور أحسن الدفاع. ولما أحلت الحكومة الاتحادية المجلس الأول بعد الدستور، رشح شفيق نفسه مرة ثانية للنيابة فأخفق كما أخفق زميلاه (شكري العسلي عبد الحميد الزهراوي) بسبب تزوير الانتخابات، من اجل حرمان الشعب العربي من نائب أقوياء يدافعون عن حقوقهم المهضومة.

وعلى الرغم من المؤامرات الدسائس التي كانت تحاك له في السر والعلانية، وحرمانه الكثير من حقوقه، إلا أنه كان كثري الاهتمام بحالة الدولة، كثير التفكير في مستقبلها، وأصبح بعد إعلان الحرب العامة لا يتغنى إلا بانتصار حلفائها، حتى عاتبه على إفراطه وتعصبه الشديد كثير من أصدقائه ومعارفه، ومع ذلك فإن إخلاصه لم ينجه من انتقام السفاحين، بسبب الصفعة التي صفع هبها (طلعت بك) الصدر الجديد على سلم النيابة، وكانت تثير أحقاد الاتحاديين عليه، حتى جاء اليم الذي صفت فيها جماعة الاتحاد والترقي حسابها مع خصومها ومنهم شفيق. وكان قرار

السفير الفرنسي في الأستانة ومأموري فرنسا السياسيين في مصر وسوريا لأجل إمارة سوريا واستقلال العرب، ودعا القوى العسكرية الفرنسية إلى المملكة، ثم أسس الرابطة اللامركزية، وثبت أنه بعد العفو العام اشتغل بهذه المسائل واتفق مع زعماء سورية على انسلاخ سورية من جسم الدولة، ومما يروى أنه عندما زجوه في السجن قابل صديقه الدكتور.. أحد أذناب جمال باشا وقال: إني أستغرب قبض إخوان على شفيق بك بحبسه وعواطفه نحوكم ومساعدته لكم على ما تعلم. فقال له: إن لشفيق بك ذنباً قديماً ستركل حسناته وهو إهانته لطلعت بك لما كان عضواً في مجلس المبعوثان، ولا بد أن يقتل بهذا الذنب قتلاً.

ومكان سبب الخلاف بين طلعت وشفيق هي القروض التي اقترضتها الحكومة الاتحادية باسم الدولة، ولم تنتفع منها الدولة بشيء، يقول فائز الخوري عن شفيق المؤيد وهو في السجن: "كان هذا الرجل الكبير غريباً في أطواره حتى ساعة لاستنطاق، فقد سئل عن رسائله وعن مخابراته السياسية، فأجاب بكل هدوء وبساطة: "لقد قطعت من العمر شوطاً بعيداً وأنفقت مئة ألف ليره على ما يسمونه ملذات الحياة، فلم يعد لي مطمع بلذة ولا شهوة تشتهيها نفسي، وها أنا قد بلغت الستين من العمر احكموا عليّ بما تشاؤون، فإنني أتمنى أن أموت ميتة الأبطال الشهداء، أما مخابراتي السياسية فكلها صحيحة كما هي مكتوبة بين أيديكم، وأزيدكم علماً بما لا تعلمونه، ثم أخذ يقص عليهم مداخلاته السياسية السرية التي لم تكتب بوثائق.

وفي السجن طال شعره كثيراً بعد أن مكث فيه أربعة أشهر من غير حلاقة، فتدلى شعر رأسه حتى بلغ قمة كتفه وامتدت لحيته البيضاء الناصعة حتى بلغت أسفل صدره، فأراد سفاك سوريا ليلة الغدر به أن يخفف من هيبته على المشنقة فبعث إليه حلاقاً من عنده، فلما دخل عليه ورأى تلك الهيبة المجسمة وذاك الوقار الساكن، أخذته الرعشة وكاد يغمى عليه، فالتفت إليه شفيق وقال له: لا تخف اذهب وأخبراً من أرسلك أنني أريد أن ألقى وجه ربي بهذه الشيبة التي يستحي من عذابها".

وتقدم إلى المشنقة برباطة جأش نادرة المثال، فألقى خطبة بليغة موجزة، بيّن فيها الغاية الشريفة التي كان يهدف إليها رجال العرب، ثم طلب من الحاضرين قراءة الفاتحة، وكان يوم السبت السادس من شهر أيار عام ١٩١٦م – وكان ممن نفذ فيه حكم الإعدام الجائر من القافلة الثانية. كان له من الأولاد ثمانية: منهم اثنان من الذكور، أحدهما (واثق بك) كاتم أسرار السفارة العثمانية في مدريد، والثاني (هشام) وكان تلميذاً في مدرسة الحقوق في بيروت، فنفي مع شقيقاته وسائر الأسرة المؤيدية العظيمة على الأناضول قبل إعدام أبيه.

وكان شفيق مثقفاً ثقافة عميقة ويعد مرجعاً كبيراً في علم الاقتصاد والمال ولطالما اعتمدت عليه الدولة في قضايا اقتصادية مهمة. وكان متضلعاً في العربية والتركية والفرنسية ويلم باللغة الإنجليزية، وله قلم سيال يستهوي القلوب والعقول معاً ولسان فصيح يجلب السامعين، ومن حدة ذكائه أنه تعلم لتركية وبرع فيها كأحد أبنائها في مدة قصيرة بعد أن تجاوز الثلاثين من العمر. ومكان سمحاً كريماً في تعمالاه مع الآخرين، حتى إنه كان يصرف الألوف من الجنيهات على معارفه وأصدقائه ولا يضن بماله على أحد.

وكان شاعراً وأديباً وكاتباً مجيداً موهوباً، من شعره الذي كتبه على صورته البيت التالي:

قلت للشمس إذ علت فتوارت ... من حجاب الإعظام والإجلال

عبد الحميد الزهراوي

هو واحد من جيل الفداء، وشهيد من شهداء الحرية ومناضل في سبيل القومية العربية، ذهبت روحه الطاهرة فداء لأمته ووطنه. ذلك هو شهيدنا المفكر الحر، والمصلح الاجتماعي الفذ عبد الحميد الزهراوي.

ولد عبد الحميد الزهراوي في حمص عام ١٨٨٥م. وبدأ دراسته بتعلم اللغة وآدابها، وعكف على دراسة اللغة التركية فأتقنها، وأتم دراسته في المكتب الرشدي في حمص ثم طلب العلوم العقلية والنقلية على أيدي علماء عصره على أيدي علماء عصره بحمص أمثال الشيخ عبد الباقي الأفغاني، والشيخ حسن، والشيخ عبد الستار الأتاسي، ولما نضج وعيه وتفكيره واطلع على ما كانت تعانيه البلاد العربية من ظلم واستعباد وحرمان، أصدر في حمص صحيفة اسمها "المنبر" وكان يطبعها ويوزعها سراً يثير فيها كوامن النفس ويوقظ بها الشعور الوطني، وينتصر بها للشباب القائلين بالدستور، وكانت مثار إعجاب وتقدير الذين يطلعون عليها، خاصة أن هذه الآراء والأفكار لم تكن مألوفة عند عامة الناس، ثم سافر إلى عاصمة الدولة متاجراً بأقمشة حمص الحريرية، وهنالك اشتغل بتحرير جريدة "معلمات" مع صديقه (جميل بك العظم)، كان طاهر بك صاحب صحيفة معلومات من دعاة الإصلاح وحملة الأفكار التحررية، وعرض على الزهراوي أن يتولى رئاسة الصحيفة فقبل الزهراوي، وأخذ يكتب المقالات التي يستمدها من أمجاد الأمة العربية في الماضي – وينبه العرب إلى سوء الحالة التي وصلت إليها الأمة العربية، وتنبهت الحكومة إلى أن المقالات هذه تنذر بالخطر وتحينت الفرصة من أجل الانتقام منه. وبعدما انتصرت بريطانيا في حرب البوير المعروفة، ذهب الزهراوي مع لفيف من أدباء وكتّاب العثمانيين لتهنئة السفير البريطاني فاجتمع به، وجرى بينهما حديث هم لمساعدة

الحركة الفكرية العثمانية، لكن ذلك أوغر صدر السلطان عبد الحميد عليه، فنفاه إلى دمشق عين له معاشاً لا يسد الرمق. هنا تجلت أنفة الزهراوي واعتزازه بنفسه فكان كلما ضاقت يده عظمت نفسه تضاعف شممه. أخذ ينكب على الدرس الكتابة الجهاد الفكري، فألف رسالته المشهورة في "الفقه والتصوف" التي حمل بها على بعض الاعتقادات السخيفة، فما كان من بعض الجامدين في دمشق إلا أن قاموا عليه وسعوا به وبصحابه إلى الوالي (ناظم باشا) فطلبه إلى الديوان ليستنطقه.

ومن المصادفات الغريبة أن الزهراوي وكان قد أرسل قبل ذلك رسالة إلى "المقطم" بتوقيعه الرمزي (ع.ز) بيّن فيها فقط شروط الخلافة في السلطان عبد الحميد، فلما طلبه الوالي كانت هذه الرسالة في جيبه فظن أنه طلب من جرائها فأخرجها كلمح البصر، وأخذ يمضغها وحاول ابتلاعها، لكن مأمور الشرطة شعر به فأخرجها من فمه بالقوة وساقه بأمر الوالي إلى السجن. أما الرسالة فإنها وضعت على قطعة من الخشب وضم بعضه على بعض بالغراء فأصبحت مقروءة، لذلك اضطر الوالي إلى إرساله إلى الأستانة مكبلاً، وهناك توسط في أمره أبو الهدى الصيادي فأعيد إلى حمص، ومن ثم فر إلى مصر واشتغل بالصحافة، بقي هناك حتى أعلن الدستور سنة ١٩٠٨م. فعاد إلى وطنه ممتلئاً حماساً وعزماً على مواصلة الجهاد والنضال ضد أعداء الأمة العربية، ممثلة بجماعة الاتحاد والترقي، وفي مصر فتح عينه على ما يدور هناك من تقدم في المعارف، وحرية لا بأس بها إذا قيست على ما في بلاد الشام آنذاك. وعلى الرغم من انتقاداته المتكررة لسياسة السلطة، إلا أنه كان عثمانياً حتى أخمص قلمه. فعندما أتت جمعية الاتحاد والترقي قبل أن تتحول إلى عنصرية في سورية، أرسل وفداً إلى حمص لتأسيس فرع لها، فلم يجدوا خيراً من الزهراوي لهذا العمل، فعرض اسمه على محمل الإيجاب على أن يكون في الهيئة العاملة المركزية مع غيره من ذوي المعرفة فأجيب طلبه، ويصف الملقب بالرحالة هذه المرحلة من حياة الزهراوي فيقول: "وفي تلك السنة خرجت وإياه إلى النزهة حوالي "حمص" فدخلنا خياماً مضروبة لبني الحسن يعرف أصحابها، فنادى فارساً منهم له قامة كالرمح وطلب منه أن يقص علينا شيئاً من أعماله في الفروسية، فقام فينا خطيباً وخلبنا بحسن بيانه

وحركاته وإشاراته. فالتفت إليَّ الزهراوي مبتسماً وقال: "هل يمكن تتريك هؤلاء الأقوام" إشارة منه إلى ما ظهر من حركة شباب الترك في الأستانة وسعيهم لمناوئة القومية العربية. ثم همس بأذني قائلاً: "إن مساعدة الفكرة العربية أمر لازم". فقلت له: "لا تستعجلها يا سيد قبل أوانها والذي يهمنا اليوم إيقاف الحركة الرجعية ليس للبلاد عدو سواها".

ثم انتخب مبعوثاً عن لواء حماة، فظهرت منه أعمال في المجلس تدل على استقلال فكره ورأيه، ودفاعه عن حقوق الفرق والطوائف في الدولة. واشتد الصراع الحزبي تحت قبة البرلمان، وأخذ المبعوثون العرب يتوحدون ويتكتلون مع بعضهم بعضاً، وظهر عدم الثقة بين الطرفين الحذر في التعامل والطرح، فقام الاتحاديون بإلغاء حزب الإخاء العربي العثماني العلني الذي خاض معركة شر مع أعضاء حزب الاتحاد والترقي في الانتخابات، ولم يكتفوا بذلك بل تقدما بتشريع جديد ينص على عدم قيام أحزاب تحمل أي طابع قومي، وكان الهدف من ذلك التشريع هو قتل أي فكر حر أو سياسي يطالب بالإصلاح والمساواة دون التفريق بين الأجناس والأديان. في هذه الأجواء المشحونة بكل التوتر والاضطراب تقدم الاتحاديون إلى مجلس المبعوثان بتوجههم السياسي، أو برنامجهم، وركزوا على مناقشة المادة الرابعة من القانون العثماني الذي يدور حول الاجتماعات المتعلقة بالجمعيات العامة في الدولة، وخصص لهذه المادة جلسة من اجل مناقشتها. وفحوى هذه المادة هي: عدم قيام أي جمعية ذات أهداف سياسية، وكان في مقدمة المبعوثين لمناقشة هذه المادة وخطورتها عبد الحميد الزهراوي الذي بدأ تساؤله: "فيما إذا كانت الاجتماعات مجحفة بالحقوق الوطنية"، فأجابه مستشار الداخلية بأن الحكومة لا تريد مساساً بلغة أو بطبائع عنصر من عناصر الوطنية، غير أنها تريد أن يسلك الوطنيون سياسة واحدة. وهي ترى الجمعيات تبالغ في محافظتها على سياسة الجنس، ولم يقتنع الزهراوي بهذه لإجابة فرد: إن الجمعيات العربية لا تتبع طريقاً خفية كما ذكرت بعض الجرائد المحلية، على أنه لم يسمع قبلاً بأن الشعوب أنكرت لسانها وطبائع عنصرها، حتى لا يجوز للعرب

أن ينكروا لغتهم وينبذوا طبائعهم.

وهكذا نرى أن الزهراوي يدافع عن الأحزاب والقوميات عموما، ويؤكد ما أكده غيره من مبعوثي الأجناس الأخرى، من منطلق أن الأمة العثمانية تتألف من عناصر كثيرة ذات صفات في التاريخ كلها مجد وسؤدد، كما كان يرد في الوقت نفسه على تخرصات الجرائد التركية التي اتهمت العرب بأنهم يسلكون طريق الجمعيات السرية لمقاومة الدولة.

في هذه الفترة انضم إلى حزب الحرية والائتلاف -وهو حزب برلماني، تشكل من أبناء القوميات التي تتألف منها الإمبراطورية العثمانية، سنة ١٩١٢، بعد أن استطاع أن يستقطب جميع الكتل والأحزاب البرلمانية المعارضة لحكم الاتحاديين. وقد توصل هذا الحزب إلى الحكم في الفترة ما بين ١٩١٢ – ١٩١٣، - وترأس أيضا حزب (الحر) المعتدل المعارض لجماعة الاتحاد والترقي، وكان معظم مؤسسيه من مبعوثي العرب وحزب الائتلاف، وكان الزهراوي من مؤسسي الحزبين المذكورين، ثم امتزج الحزبان باسم حزب الحرية والائتلاف، فتولى منصب وكيل رئيس الحزب، وه ما يسمى اليوم بأمين عام الحزب. في هذه الفترة أصدر جريدته (الحضارة) وكانت تسير على مبدأه الثابت وهو الاعتدال، حتى كان رفاقه – لشده هذا الاعتدال والتروي – يلومونه، وحتى أن كبار رجال الاتحاد والترقي يعجبون من اعتداله مع معارضته لرأيهم وكان كثير منهم يقل ليت جميع المعارضين مثل هذا الحر المعتدل.

في إقامته في الأستانة سواء أكان مبعوثاً أم لم يكن، كان بيته محج الناس على اختلاف الأديان واللغات، يستمدون منه آراءه السديدة، كان هذه الجلسات تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل وكان مع كل هذا لا يأخذه ملل، ولا ضجر ولا سآمة، مما يدل على سعة صدره وحسن مجلسه ومعاشرته وحسن استقباله. وفي أواخر دورة المجلس حصلت مناقشة بشأن المادة ٣٥ من الدستور العثماني، ووقع الخلاف الشديد بين المجلس وأعضاء الحكومة، فانتهى الأمر إلى فض المجلس، وتجديد الانتخاب ثانية. فعاد الزهراوي إلى وطنه، فأوحت الحكومة الاتحادية إلى جميع المراكز

وأوعزت للولاة أن يكون انتخاب المبعوثين ممن لا يخالف رأيهم، وكانت ترسل البرقيات والرسائل للمراكز بالوعد والوعيد، التخوف، والتهديد، وفي هذه الأحوال وتحت شدة الضغط لم يتمكن الأهالي من انتخاب الزهراوي؛ لأن حريتهم سلبت حتى امتنع الكثير عن التصويت. على أثر تلك الإجراءات سافر إلى الأستانة، للقيام بأشغال جريدة الحضارة، فانعقد المجلس من مبعوثين صار تعيينهم من قبل الاتحاديين في الباطن – وإن كان في الظاهر بالانتخاب، – وتفاقم الخلاف بين الاتحاديين وحزب الائتلاف، وشكل حزب الائتلاف الوزارة ففضوا المجلس، وعاد الزهراوي إلى سورية، فوقعت حرب البلقان وصرف النظر عن الانتخاب إلى أن تضع الرب أوزارها. في أثناء ذلك سافر إلى مصر فانتخب من حزب اللامركزية – المؤلف هناك – رئيساً للمؤتمر الذي انعقد في باريس، من أجل مطالبة الدولة العثمانية بإصلاح بلاد العرب، وإعطاء هذه الأمة المهضومة حقها الدستوري، وعلى الرغم من أنه لم يكن عضواً في حزب اللامركزية، إلا أن الحزب رشحه لرياسة المؤتمر العربي؛ لمكانته العلمية، والاجتماعية، والسياسية، ولمواقفه المشرفة في مجلس المبعوثان، وموافقته للحزب في أهدافه الإصلاحية.

بعد الانتهاء من أعمال المؤتمر بقيت في باريس هيئة لمتابعة قرارات المؤتمر برئاسة رئيسه عبد الحميد الزهراوي، وقد لفت هذه الهيئة وفداً من أعضاء المؤتمر السفر إلى عاصمة الدولة بناء على توصية من عبد الكريم الخليل. وكان الوفد مؤلفاً من سليم سلام،والشيخ أحمد طبارة، وأحمد مختار بيهم، من أجل إقناعه جماعة الاتحاد والترقي، بتوقيع اتفاقية باريس، وتنفيذ ما جاء فيها، وإخراجها إلى حيز الوجود. وقد مكث الزهراوي في باريس خمسة أشهر، وفي هذه الأثناء كان يكاتب الحزب ويعمل بمشورته، فخيرة الحزب بين الإقامة في مصر أو (الأستانة)، وان يفضل السفر إلى الأستانة، بينما الحزب يفضل حضوره إلى مصر.م وبناء على دعوات عبد الكريم الخليل المتكررة، سافر إلى عاصمة الدولة، وبدأ في المفاوضات الرسمية مع جمعية الاتحاد والترقي، ممثلة بمدحت شكري سكرتير الجمعية. لم يمض خمسة عشر يوماً حتى أدرك الزهراوي مماطلة الاتحاديين في تنفيذ القرارات وما جاء في

الاتفاقية، وقد حاول السفير إلى مصر، ولكن عبد الكريم الخليل أصر عليه بالبقاء، وطلب منه إمهال الاتحاديين بعضا من الوقت. وقد صرّح إلى احد الصحفيين أن الحكومة لا تفي بوعودها "ولكن ما فائدة الوعود ونحن نريد أعمالاً لا أقوالاً.. وعندما سأله مندوب الصحيفة". ولكن ما هو السبب في مماطلة الحكومة"؟ قال "أظن السبب، الخلافُ القائم في جمعية الاتحاد والترقي، فإن بعضهم يؤيد مطالبنا ويروم معاملتنا بالحسنى، وبعضهم الآخر يرفض طالبنا كل الرفض، ويشير باستعمال الشدة معنا ولا نعلم أي الفريقين يرجح، فإن استطاع أولهما إقناع ثانيهما كان لنا ما طلبنا وإلا ساءت العاقبة كثيراً".

وفي أثناء المحادثات استطاعت الحكومة الاتحادية أن تقنع الزهراوي بأنها بصدد إقامة مدرستين سلطانيتين "ثانويتين" في دمشق وبيروت، وأساتذتهما عرب، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم، والدواوين، ولكن هذه المشاريع والمطالب بحاجة إلى المال. من اجل تحقيق بقية المشروعات التي تم عليها الاتفاق، صدر قرار بتعيينه في مجلس الأعيان، وعندما انتشر خبر تعيينه في البلاد – ولاسيما عند الشبيبة العربية، رأت في قبول هذا المنصب "أكبر ضربة على الإصلاح الذي لم يكن قد نُفّذ منه شيء على الإطلاق، فأظهرت عدم ارتياحها إلى عمله وتبرأت منه، وألقت عليه تبعة الحوادث التي كانت تتوقعها. وأدرك حجم الغضب، والاستياء عند الشبيبة فأبلغهم أنه مستعد لتقديم استقالته إذا أصروا على ذلك، وأنه لم يقبل هذا المنصب إلا لمساعدة الحكومة إلى تنفيذ الإصلاح بالسرعة اللازمة مع بعض زعماء العرب الذين وافقوا على قرار تعيينه، حتى يكون قريباً من المناصب العالية، فأجابته الشبيبة قائلة: إنها قطعت كل صلاتها السياسية معه، وإن حزب اللامركزية هو المسؤول عن أعماله، فإذا شاء أن يقرر الاستعفاء أو عدمه، فما عليه إلا أن يستشير ذلك الحزب الذي عين باسمه عضواً في مجلس الأعيان".

وطالبت الشبيبة: الاجتماع مع عبد الكريم الخليل؛ لاستيضاح ما جرى في أمر الإصلاح، وعن عدم ممانعته في قبول الزهراوين ومجمل ما قال الخليل: إن قبول الزهراوي في مناصب الأعيان خير من عدم قبوله، فإنه يقدر أن يفعل في المجلس ما لا

يقدر على فعله وهو في خارجه، وأن الاتفاق السري الذي أبرمه باسم الإصلاحيين مع جماعة الاتحاد والترقي يحوي فوائد عظيمة لا سبيل للحصول عليها إلا بالتدريج ومع الزمن، خوفاً من هياج العنصر التركي وسائر العناصر العثمانية على الحكومة ومطالبتها بمثل ما نال العرب منها، وإن من أهم الأسباب التي أدت إلى قبول الزهراوي هذا المنصب عظم أطماع الأجانب في بلادنا العربية ورغبتهم في انتهاز فرصة اختلافنا مع الأتراك؛ لتحقيق آمالهم فيها. وهذا السبب وحده يكفي لتبرئة الزهراوي. ولعل الهدف من هذه التعيينات هي خطوة أولى لضرب المؤتمر العربي، ومقرراته ورجالهن وأصبحت لدى الزهراوي القناعة التامة في هذه الفترة بأن عهد طلاب الإصلاح أيديهم إلى الاتحاديين ولعل أجمل تفسير لهذا المجال ما وصلت إليه د. سهيلة الريماوي في تبرير مسلكي الرجلين وهماك الزهراوي، عبد الكريم الخليل حول هذه المسالة يتجه في نقاط ثلاث:

١- إنهما كلاهما – لم يكونا – متسبين لأي حزب ليمارس عليهما أي ضغط انضباطيين سواء في تكوين الرأي أو في المسلك.

٢- إنهما كلاهما كانا يقيمان في الأستانة ويتأثران بأجواء الخلافة، والحكومة فيها، وإذا كان مسلك عبد الحميد الزهروي مختلفاً بعض الشيء، عن مسلك عبد الكريم الخليل؛ بسبب الصلات القوية بين الزهراوي وحزب اللامركزية، فمما لا شك فيه أن الاثنين قد دفعا حياتهما ثمناً لحسن ظنهما بحزب الاتحاد والترقي وحكومته. فقد كان عبد الكريم الخليل من قافلة الشهداء العرب الأولى وعبد الحميد من قافلتهم الثانية.

٣- إن الزهراوي كان من الرعيل الأول، وهو أقرب في عقليته وتكوينه إلى تغليب أمل التفاهم مع الدولة العثمانية على ضرورة النزاع معها، وإلى تغليب أسلوب الحوار على أسلوب الصراع. كما تدل على ذلك مجموعة رسائله التي وجهها إلى حزب اللامركزية.

أما وجهة نظره في هذه المسألة فإنها تحصر في أنه كان كبير الثقة بجماعة

الاتحاد والترقي، وبنى آمالاً وطموحات عظيمة – خاصة أن الحكومة بدأت تتقرب إلى رجال الإصلاح، والشبيبة العربية، وتعمل على إقناعهم بحسن نيتها – فكثر تردد الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقي على المنتدى الأدبي، وكثرت خطبهم فيه، فكان لا يمضي أسبوع أو بعض الأسابيع إلا وزوره طلعت وأنور وجمال ومدحت شكري، وغيرهم، فيبادلون الخطب الحماسية، وعبارات الوداد والإخاء مع أعضاء المنتدى، وكان طلعت يردد في المنتدى (وإذا فر العرب منا فإننا نتمسك بهم ونلزمهم، ونضمهم إلى صدورنا، ونصافحهم مصافحة الأخ لأخيه). وقد أظهر رجال الجمعية ضروبا من الخداع، وأنواعا من سياسة التلون، فأقنعتهم بعزمها على تغيير سياستها وإصلاح سلوكها في القضايا والمسائل العربية، وقد بعث على تغيير سياستها وإصلاح سلوكها في القضايا والمسائل العربية، وقد بعض الزهراوي رسالة سرية إلى صديقه رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) ومما جاء فيها: (فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية، وينوون نية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب، ويسعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل،ويعترفون بأخطائهم الماضية، ينوون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان. أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان، لأدلة كثيرة ظهرت لي).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان يدافع عن الاتحاديين في كل مجلس وناد، وابجع كل من اجتمع به يوم مجيئه مصر في فترة مجلس الأعيان على أن يتخذ في مباحثاته خطة المدافع عن الحكومة الاتحادية دائماً، وكثيرا ما أعجز أصحابه عن تعديل شيء من أفكاره اتجاه الحكمة الاتحادية (هكذا يقول صاحب المنار، ويضيف: وكنت أقعد معه مجلسين للمناقشة في كل يوم وليلة –مجلسا قبل النوم ومجلسا في الصباح – فرأيته بعد ذلك كله معتقدا أن الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب، وأنه يجب مسايرة العقلاء منهم على ذلك، وأننا ننال بهذا من الحقوق ما لا يرجى أننا له بالسعي مع مجافاتهم). هذا كان اعتقاده بجماعة الاتحاد والترقي. أما شدة تمسكه بوطنه ووجوب الوقوف في وجه من يطمع فيه، فقد قالت جريدة (الأهرام) عنه ما يأتي (ومما امتاز به هؤلاء جميعاً – عني جماعة الإصلاح – شدة

عصبيتهم الجنسية العثمانية، حتى كان الزهراوي يقول عند ذكر مطمع دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية (إن هذا ينال بعد أن تزه أرواحنا).

ولما ظن الاتحاديون أنهم فرقوا الجمعيات الإصلاحية بإرضائهم بعض أفرادها وأخمدوا الحركة العربية في البلاد العربية، غيروا خطتهم فجأة وتمسكوا ببعض زعماء العرب – ما قال طلعت بك – ولكن لإعدامهم لا لمصافحتهم مصافحة الأخ لأخيه).

وفي يوم باهت من شهر جمادي الآخرة من عام ١٩١٦م طُلب عبد الحميد الزهراوي من الآستانة للديوان العرفي في لبنان، وبعد بضعة أيام طلب الخلوة بجمال باشا السفاح، فسُمح له، دون أن يدري أحد ما دار بينهما من حديث، وفي أوائل رجب سيق على قطار خاص مع ثلة من رجال لعرب الإصلاحيين إلى ساحة المرجة، وفي منتصف الليل شد وثاقه كما شد وثاقهم جميعاً في القشلة العسكرية في البرامكة، ونصبت مشانقهم، وكان آخر المشنوقين في تلك الليلة، وبعدما أزيح الكرسي من تحت قدميه، قُطع الحبل، فأعيد إلى المشنقة مرة ثانية. فهذه كانت نتيجة إخلاصه وتفانيه لحكومة الاتحاد والترقي.

وهكذا سكت ذلك الصوت المدوي الذي آمن بالحرية، والفكر، وبالإصلاح.

الزهراوي الصحفي الصادق

الصدق والتزام الموضوعية والجرأة أهم ما يحتاجه الصحفي وما ترجوه الأمة ممن يحمل القلم في التوجيه ودنيا الإعلام، الصدق في سوق الخبر، والصدق في التقديم وصدق التعليق، والصدق في تصوير الواقع، وقصد الخلاص مما أصاب الأمة من كوارث وما حل بها من نكبات، وأن يكون موضوعياً في ما ينقل ويعلق، ويكتب دون زيف، أو مبالغة أو تهويل في الخبر، أو القضية أو المواضيع التي يتحدث عنها،

وأن يكون ملتزماً بقضايا أمته المصرية، وأن يكون في الصفوف الأمامية من قضاياها؛ يطرحها ويناقشها بكل موضوعية وتجرد وصدق وجرأة.

والزهراوي لم يكن صحفيا وهو يهاجم الجامدين الذين يرون الإسلام دينا كهنوتيا ولكنة صار صحفيا وبدا يسلك طريق الصافة الشائكة الخطرة وهو يصور آلام الأمة، ويهاجم الطواغيت دون خوف أو تراجع، ويعري العابثين بمقدرات الأمة العربية، وكان لا يجامل أحداً ما يسكت على صاحب باطل أو ظالم، والذي يقرا مقالاته يرى مدى إحساسه العميق بمصير أمتهم وألمه لما أصابها من ظلم واستعباد وهوان، وكمان سعيه الحثيث في عالم الأدب والفكر والتربية لإنهاض الأمة. وأما الموضوعية فلقد ذكرنا أنه من حملة الأقلام المؤمنة، والفكر الملتزم – منذ الجانب المهم في حياته، أن نقف عند عناوين مقالاته الصحفية في جريدة الحضارة التي أصدرها في الأستانة لمدة ثلاث سنوات، وهي مرآة لن يجب أن يرى، (من هم العرب) (الأحاديث الحاضرة) (رجال اليوم المبعوثان) (الأعيان) (النظارة) (الولاة) (المفكرون) (المتبعون) (خاطر السياحة) (اليوم وبعد اليوم) (تعديل القانون الأساسي) (أخبار العالم) (السياسة الحضارة) (الائتلاف مأمول والاختلاف لا يزول) (الحق والواجب في الانتخابات) و (تربيتنا السياسية)... الخ، وهذه المقالات الوطنية الصادقة التي يدعو بها للعروبة دون أن يتنكر للخلافة التي كان يريدها سليمة من الشوائب، عزيزة في كل جانب، معترفة للعرب بحقوقهم القومية في ظل الجامعة العثمانية "والمتبع لمقالات الزهراوي يرى خلال نزعته العثمانية شعوره القوي بضرورة دعم القومية العربية وشد أزرها، وهو السبب الذي أثار حفيظة الأتراك عليه، ولاسيما بعد أن قام مع نفر من الأعلام العرب وأحرارهم بتأليف حزب الحرية والائتلاف الذي يطالب بالإصلاح ويندد بسياسة الاتحاديين الرامية إلى التتريك، وكبت حريات الأقوام الذين يعيشون في ظل الإمبراطورية العثمانية. "واتخذ من الصحافة وسيلة ليدافع عن وطنه الكبير ويدعو إلى إصلاح شؤون أمته، وهو الذي كان يشعر بانهيار الخلافة ويتألم لذلك،

إذ يرى فيها انهيار دولة إسلامية كبرى، جديرة أن تنفع علم العدل، ولكنها أخفقت في ذلك، ولم ترع حقوق الأقوام المنضوية تحت لوائها، ولا أكرمت القوميات التي يتألف منها كيانها".

وكان يدعو إلى المحبة بين الناس بغض النظر عن الأصول والمنابت النحل، خاصة بعدما وجد أن أبناء الأمة العربية يجهلون جغرافية بلادهم، وفي هذا الصدد يقول: فالسوري مثلاً – كما يقول – لا يعرف ما في العراق والعراقي لا يدرك ما في سورية والحجازي لا يرى ما في طرابلس الغرب، والمصري لا يعلم ما في اليمن وهلم جرا...." وهذه الصرخة من الزهراوي تكشف لنا عن مدى إحساسه الكبير اتجاه أبناء الأمة العربية ذات الرسالة واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والرغبات، فالميول واحدة، ولكنها أصبحت غريبة لأن حجم المؤامرة أكبر من آمال أبناء الأمة العربية وأحلامهم. ونادى بأواصر الصداقة والتعايش المبني على الاحترام والتقدير بين فئات المجتمع، دون النظر للعرق أو اللون، أو الدين "الاختلاف الديني قديم ولكنا لم نر على عراقته في القدم انه وقف الدهر كله حائلاً دون تعاون المختلفين فيما فيه فائدة مشتركة كعمران المزارع، وإقامة المتاجر والمصانع، والتوسع في الاختراع، وتكثير أنواع الأمة أن مطامع الأوروبيين في العالم العربي ليس نتيجة الدافع الديني، وإنما في المقام الأول هو الضعف والجهل الذي استشرى فينا. وإن كنا نختلف مع الزهراوي في هذا الرأي فإننا من خلال التاريخ نجد أن مطامع الأوروبيين كان ناجماً عن دافع ديني، زرع في أذهان الحكام الأوروبيين من قبل الرهبان والقسيسين ويقول في هذا المجال: اللهم هل كاف من تذكير الناسين أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين وإنما هو هجوم قوة على ضعف، علم على جهل، وغنى على فقر، فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء!؟" وعرّى الاتحاديين وكشف عن أساليبهم في هدر الأموال على ملذاتهم الخاصة، وفي تدبير المؤامرات ضد خصومهم، ويقارن بين الحكومة الاتحادية، والحكومة الائتلافية" التي يرى أن وزارة اليوم تحقن الدماء

وتكسب أموال العثمانيين والغريب يحدث كل هذا في شهرين، رأوا كل ذلك في أقرب زمن وأقصره فهل يحتاجون بعد ذلك إلى برهان! نحن نقول للعقلاء الذين دخلت صدورهم من الغرض الأعمى والغايات القاتلة صدورهم من الغرض الأعمى والغايات القاتلة والمطامع الآكلة، جربتم الاتحاديين فزاغوا عن سبيل الهدى، فجربوا اليوم أهل التجارب والاقتدار أنهم قد يكونون أوسع فكراً وأرحب صدراً وأقدر على عمل الخير، خصصاً وأنكم رأيتم من بوادر أفعالهم ما يزيد أملكم في توالبها". هذه الأفكار والآراء التي طرحها بكل جرأة وموضوعية وحرقة وصدق تكشف عن ثقافته السياسية والدينية واللغوية والأدبية ما تكشف عن أسلوب أدبي رفيع، وبيان مشرق بعذوبة العرض، وبوضح وموضوعية، وهذا لا يتأتى إلا لعدد قليل من أصحاب الأقلام الكبيرة كالتجارب العظيمة ومنهم الزهراوي.. وقد نشر مقالات في التربية في غاية الأهمية في "جريدة ثمرات الفنون البيروتية"، - قبل إعلان الدستور – وما نشره في المؤيد، والمعلومات والمنبر وغيرها في الصحف العربية، ونشر في مجلة المنار عدداً من المقالات في الحب والبغض الفقر والتصوف والإمامة".

هذا هو الزهراوي الذي كان صاحب مدرسة وفكر ومنهاج، يكاد يكون أمة، خاض معارك بجانب الحق، وجاء عطاؤه في مختلف الميادين التي خاض فيها معاركه ضد الجامدين، وأعداء الإسلام، والعروبة، فعطاؤه متنوع، فهو شاعر فحل، وأديب موهوب، وفقيه متفتح، وسياسي واع، ومفكر إسلامي كبير، ومصلح اجتماعي صادق وداعية قوي وصحفي ملتزم.

صفاته

لا يختلف اثنان على أن الزهراوي من نوابغ رجالات العرب المعاصرين، ولم يكن فقيهاً وعالماً فحسب، ولا رجل نضال، أو مصلحاً اجتماعياً فقط، وما كان سياسياً ولا حقوقياً أو خطيباً أو بليغاً فقط، وإنما كان كل ذلكم، وهو فوق ذلك شعلة من الإخلاص والتوقد الجراًة.

وكان من خصائص الزهراوي شخصيته التي تعد عيوباً في نظر رجالات السياسة انه حسن النية، وحسن نيته وصفاء سريرته يبالغ في حسن الظن بكل أحد يظهر له إرادة الخير والحق، فلما قال له الاتحاديون – إنهم يعترفون بما كان من خطئهم في تنفير العرب منهم، وفي محاولتهم تتريك جميع العناصر العثمانية وأنهم يرغبون في إصلاح ما افسدوا في ذلك، وتوقف تجديد قوة الدولة على العرب، صدقهم ذلك، لأنه معقول عنده، وعدّ توجيههم منصب الأعيان إليه على ما كان من شدّة معارضته لهم برهاناً إليهم ويساعدهم على الإصلاح، وإنهم إذا أحجموا حل محلهم المنافقون وطلاب المنافع". ومن خلا إطلاعنا على سرته وفكره" نلمح فيه صفات قلما اجتمعت في رجل غيره، فهو إنسان محب للناس جميعاً، ويريد أن يتحاب الناس، ويبتغي الخير بعضهم لبعض – على اختلاف الجنس والعرق – وكان يقول "أن تبنى التربية على محبة الناس بعضهم لبعض قدر الإمكان وإن كان بعضهم أجنبياً عن بعض، وكان يلح في الدعوة إلى طرح التعصب جانباً، داعياً إلى الألفة والتحاب التعاضد وما ذكرنا سابقاً، في مدة إقامته في الأستانة سواء أكان مبعوثاً أم لم يكن كان بيته مجمع الفضلاء وأصحاب الأديان على اختلاف لغاتهم، مع تفاوت رتبهم، يستمدون من آرائه السديدة حتى كانت جلساته على مراتب، لكل فريق وقت يقضيه فيأتي فريق آخر حتى تنقضي الساعة السبعة بل الثامنة من الليل وكان مع زل هذا لا يأخذه ملل ولا ضجر ولا سأم مما يدل على سعة صدره وحسن مجلسه.

ومن مظاهر شجاعته ما يرويه الشيخ أحمد نبهان الحمصي "أنه في أول سنة من مبعوثيته وقعت حادثة ١٣، فحوصر المجلس من قبل العسر – بحجة الارتجاع عن الدستور – وهدّدوا المبعوثين بالرصاص حتى أن أحدهم قتل محمد بك أرسلان مبعوث اللاذقية رمياً بالرصاص في باب المجلس، ومنهم من رمى نفسه من إحدى النوافذ العالية حتى تحطم خوفاً على نفه من القتل، وفرّ كثير من المبعوثين حفظاً لحياتهم، وبقي الزهراوي مع بضعة أشخاص ثابتي الجأش غير مبالين بتلك القوة الهائلة التي تهددهم وهم يخابرون المراكز بالهاتف) ويذكرون حقيقة ما هم فيه، حتى كادت تلك القوة تقضي على بقية المبعوثين، ثم خرج الزهراوي يخترق صفوف

العساكر بلا اكتراث حتى وصل على منزله وانفض الجمع، هذا الثبات في مثل هذا الموقف الحرج يدل على شجاعته وقوة يقينه".

وقد وصفه الذين اجتمعوا به في نطاق العمل السياسي والصحفي، أنه كان وقوراً ذا ذهن حاد وفكرٍ وذاكرةٍ عجيبة، يتوقد ذكاء، واسع الصدر، لين الجانب، بطيء الغضب، لا يقابل أحداً بمكروه، لا يمل من جليسه كيف ما كان ولا يمل جليسه من محادثتهن يعاشر كل إنسان على قدر علمه، أكثر أحاديثه في مجالسه بما يعود بالفائدة، لا يستغيب أحداً ولا يحب أني تاب احد بحضوره، قليل الكلام الفارغ فيما لا ينفع، شجاعاً، شديد الصبر على الشدائد. قوي اليقين بربه، كريم الخُلق، جميل الخَلْق والهيئة، يحبه من يراه حينما يراه، عفيف النفس، لا يبالي بزخارف الدنيا، بعيداً عن التكلف، شديد الحث والتدقيق في المسائل، يتبع الأدلة والمستندات، واقفاً عند الحق، يحب أم تكون الحجة مع غيره ما أمكن، معتدلاً في شؤونه كلها، متمسكاً بمبادئه، محافظاً، عرف ذلك منه كل من عاشره حق المعاشرة".

آثاره

الذي يشتغل في السياسة والخدمة العامة تأخذ جُل وقته وجهده. وكانت طموحات الرجل في ذلك العصر اكبر من طموحات عصره، ومن هذا المنطق لم يترك الزهراوي آثاراً أدبية بحجم فكره، ووعيه ورؤيته ولكنه ترك عدداً من المؤلفات والمقالات تدل على عمق ثقافتهن وشمول معرفته السياسية، وخاصة ما نشره في جريدته (الحضارة) التي أصدرها في الأستانة ثلاث سنين.

أما كتبه فنذكر منها "النحو والبلاغة والمنطق" وكتابا في "الفقه" كتبه بتشجيع من صديقه رشيد رضا، وأحمد فتحي باشا زغلول، وآخر "رسالة في الحب والبغض" نشر في مجلة المنار فصولاً من كتاب "رسالة في الحب والبغض ذات منحى فلسفي. أما الكتاب الذي يستحق الوقوف عنده والتحليل فكتاب

"خديجة أم المؤمنين" نشر هذا العمل – قبل أن يطبع في كتاب – في مجل المنار في العدد الأول إلى العدد التاسع من المجلد الحادي عشر.

وله مجموعة من المحاضرات والرسائل والخطب والمقالات، وقد صادرتها جماعة الاتحاد والترقي عندما ألقوا القبض عليه في منزله في الأستانة وأرسل إلى (عاليه) الديوان العرفي.

وكان ينظم الشعر وله مساجلات لطيفة مع بعض أصحابه تدل على خفة روحه وحسن أسلوبه دقة معناه، ونختار من شعره قصيدة لنطلع على متانة أسلوبه وحسن بيانه:

لا تكـــذبينا يـــا صـــبر	لا تخـــدعينا يـــا فكـرْ
إن الحقـــائق تحـــت طـــي النـــ	ـــشر فـــوق المنتظـــرْ
لكـــن برؤيتهـــا دعـــاوي النـــا	س تعيـــــي منحـــــصر
وســـوى ســـراب لم يـــروا	والآل كـــم غـــر النظـــر
آنـــى التـــصور يـــا حجـــا	للـــسر في هـــذي الـــصور؟
الكـــون مـــبنيٌ علـــى الـــ	حركـــات كـــل في قـــدر
مجمـــوع ذر يقتـــضي	كـــل لهـــا ضـــم الأخـــر
والأرض تجمعنـــا فنحـــ	ـــسب أنهـــا إحـــدى الكـــبر
والـــشمس تعرنـــا لنـــا	فظننتـــا المعنـــى الأغـــر
صـــور تغـــيرّ لا نعـــي	صـــفة لهمـــا غـــير الغـــير
ويجـــل مـــصدر أمرهـــا	عـــن أن تحـــيط بـــه لفكـــر
هـــو مـــصدر بوجـــوده	تقـــضي اشـــتقاقات الأثـــر
وتحـــيرت في ذاتـــه	وصـــفاته فطـــن غـــرر

والخبيرة المثلى النبا ... عد عن دعاوٍ لخبير
كم مدعٍ لمعارف ... علياء عرف بالنكر
ما أنت يا إنسان هل ... تدري دماغك لِمْ شعر
أفأنت تدرك من جميـ ... ـع الكون عنه فهد ظهر
لِم ذي الدعاوي يا فتى ... أأحاط منك به البصر
أأحاط منك به الحجى ... خُبرًا كما هو فاتسير
أعرفت من قبل المؤثـ ... ـر كل تفصيل الأثر
أعرفت يا هذا الفضا ... ء وما به من كل ذر
دع عنك دعوة واستمع ... قولًا مفيدًا مختصر
الناس عثر في الغرو ... ولاجئون إلى الغرر
ويرى بنو الإنسان أنـ ... ـهمو خلاصة ما فطر
دعوة بها يسلون ما ... يلقون من تعب وضر
فهمو رهان الكدح ما ... داموا وتلك هي السير
ذو الحال نائب من مضى ... والعمر بجملته خبير
سيان ذي الأنعام في ... حاج الحياة وذا البشر
فتسلَ فيما اسطعت إن ... فكرت فيما قد حضر
واعبر على المقياس من ... ماض إلى ما ينتظر
واعلم بأن المفلحيـ ... ـن بذي الحياة أولوا العبر
والكون ظرف جواهر ... والسر فيه ما ظهر

رواية خديجة

أما رواية خديجة التي قدم لها صاحب مجلة المنار يقول فيها: "لأسلوب القصص المعروفة بالروايات تشويق للمطالعة لا ينال منه الملل وجذب إلى القراءة لا يخشى معه السأم، فإذا هي أودعت من الفوائد النافعة في التاريخ والآداب والأخلاق السياسة وشؤون الاجتماع ما يتفق مع اللذة، كانت من أقوى ذرائع تهذيب الجمهور دفع طبقات العامة إلى مستوى يتصلون به مع طبقات الخاصة.

وإنه ليحزننا أن نرى أكثر القصص والروايات – كما يقال – خالية من هذه الفوائد، مشتملة على كثير من المفاسد، تغري الفتيان والفتيات بالغرام وتجرئ الحي على ارتكاب الحرام وتعلم الأغرار فعل الشيطان... .

"هذا وإننا نحن المسلمين قد أصبحنا وأمسينا أجهل الأمم بتاريخنا... فنحن الآن في حاجة إلى وضع تاريخ الإسلام في أسلوب علمي؛ لأجل الخواص، وإلى إبداعه في أسلوب قصصي يسهل تناوله، حتى على العام وقد كان الوضع الأول آخر عمل توجهت إليه همة الأستاذ الإمام، وفي عزما أن نخلفه فيه إن شاء الله... وأما الثاني فقد شرع فيه صديقنا السيد عبد الحميد الزهراوي العالم الإسلامي والكاتب الاجتماعي. وقد سمّى الرواية الأولى (خديجة)... ".

ونأتي إلى القصة فنجد الزهراوي يبدؤها بمقدمة طويل تشرح سبب وضعها يقول فيها:

"..... ولما كانت سيرة السيدة الشريفة المساعدة في وضع الأحجار الأولى من هذا الحادث العظيم (وهو قيام العرب بعقيدة جديدة وانضمامهم جميعاً إلى كلمة النبي... وغلبتهم على الأمم) لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت أن أقدم هذه الأوراق اللمحى الفوائد الأدبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مقتطفاً هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة، ولكن رأيت من اللازم جداً قبل دخولي بالقارئ على سيرتها أن أمر بها على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة... ".

*وهكذا يتحدث الزهراوي عن العرب بادئاً بالعرب البائدة، والعاربة المستعربة وولد إسماعيل منهم، ثم يدافع عنهم مفاخراً معظماً بشأنهم وأخلاقهم، وعاداتهم وتاريخهم في الجاهلية... وعلم النسب عندهم. ويذر حضاراتهم في العراق والشام، اليمن وتدمر، وملوك هذه الممالك ويتحدث عن كندن وامرئ القيس... كل ذلك ليثبت أصالة نسب السيدة خديجة في أسلوب علمي وبحث كأبحاث كتب التاريخ. ويصل به الأمر إلى ذكر صفحات عن سلالة عدنان وفروع قبائل العرب قبيلة قبيلة وفخذاً فخذاً... (يستغرق ١٥ صفحة).

*ثم يبدأ الفصل الأول فإذا هو عن (مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة وذكر زمزم وجمهورية قريش وعام الفيل (في ٧ صفحات) ثم يأتي الفصل الثاني فإذا هو حديث عن (بيوتات قريش وخصائصها)، وأعمال كل بيت من سقاية ورفادة وسدانة وأعنة... ولا ينسى ختاماً وصف الفضول (في ٦ صفحات) وأما الفصل الثالث فيتناول (ديانة أهل مكة عند البعثة) الوثنيات الأولى، ويمر في ذلك كله بذكر بعض الأحوال الاجتماعية عن الرقيق والنساء.

ثم يأتي الفصل الرابع عن (مقام النساء في قوم خديجة) وقصة الوأد وبيان مقام المرأة العظيم بذكر القصص والأسماء الكثيرة (في ٩ صفحات٩).

وفي الفصل الخامس (مقام خديجة عند قومها)، وهو مقام كريم عظيم والزهراوي يبرهن عليه في جمل إنشائية، كأنها مقال في المديح. وفي الفصل السادس يتناول فضائل (خديجة) والفضائل عند قومها. ويأتي هنا ور البحث في أخلاق العرب من كرم وشجاعة ويأتي ور القصائد أيضاً والفخر... وحديث عن علوم العرب بالطب النسب والأدب (في ١٢ صفحة).

وفي الفصل السابع يتحدث عن (جمال خديجة والجمال عند قومها) ويدافع عن نفسه (بذكره الجمال بين مزايا السيدة).. ويذكر محاسن النساء العربيات وشغف العرب بالحسن.

وفي الفصل الثامن حديث عن ثرائها، والثراء عند قومها – وأن هذا الثراء ليس

بالعظيم – ويأتي هنا المجال لبحث التجارة، والأسواق وسوق عكاظ ومتاع الغنى من رقيق، وزرع، وضرع، ومعدن في الجاهلية، وثروة خديجة وتثميرها. ويأتي الفصل التاسع بحديث (زواجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم). وكلام عن ابنتها هند من أبي هالة النباش بن زرارة زوجها الأول، وعن زوجها الثاني عتيق بن عاب المخزومي، ودفاع عن ذكره لهذا الابن الذي قتل في وقعة الجمل فيما بعد.. ويأتي الفصل العاشر بذكر (محمد صلى الله عليه وسلم) قبل الزواج من خديجة، وهي القصة النبوية ذاتها مع مقدمة إنشائية قوية. وتختم السيرة في الفصل الحادي عشر (بالحب الشريف). وفي فلسفة الفضيلة والحسن والقلب كالطاهر الذي يحب المثل الأعلى للفضائل والمحامد. وللمرة الأولى تقترب السيرة من أن تكون قصة وتهجر التاريخ فهنا تظهر نجوى خديجة لنفسها في الحب: (تفاؤل خديجة). ولا ينسى الزهراوي كيف يهاجم بقسوة العادات، والتقاليد ويصوغ ذلك في نجوى أم المؤمنين لنفسها... وفي هذا الفصل والفصل الذي وسم (بالزوج) وختم الرواية يبدأ ما يمكن أن يسمى رواية. (راجع العدد ٥٥٦ – صفحة ٧-٩ من مجلة المنار المجلد الحادي عشر).

(هذه هي الرواية.. أو ما يحسبون أنها كذلك وهي ليست أكثر من بحث تاريخي عادي، قد سرد سرداً بأسلوب الحديث والمقالة.. ولعل الزهراوي قد احتلاها حيلة، واعياً أو غير واع، ليقدم بين يدي البعث القومي العربي صوراً من المديح والفخر والاعتداد بالماضي الرائع، في مرحلة الطفولة).. لد اعتمدنا على عرض الدكتور شاكر مصطفى لهذا العمل.

ونتفق مع الدكتور شاكر مصطفى أن هذا العمل ليس روائياً بالمعنى الدقيق، فالكاتب يجمع بين المقالة والنفس القصصي، فلم يكن يملك القدرة الكبيرة في معرفة المقياس والرؤية الفنية في ذل العهد. وهذه إشكالية جيل بكامله فالفنون النثرية في ذلك العهد تكاد تقترب، وتختلط مع بعضها بعضاً، إضافة إلى أن المصطلح النقدي كان غائباً عن هذه الأجناس الأدبية وغائباً أيضاً عن أذهان هؤلاء الكتاب في ذلك الوقت، مما دفع بعضهم إلى الخلط الناجم عن التصور النظري لحدود

الجنس الأدبي؛ حتى بدت صورته التطبيقية خليطاً متناثراً من هذه الأجناس، وتبعاً لهذه الحقيقية فقد تقتصر الرواية إلى حد غير مألوف، حتى تصل في بعض الأحايين في حجم القصة القصيرة، وقد تنعدم حيوية شخصياتها وتستطيع أحداثها أن تنحل وتفقد حركتها حتى تغدو مجرد أفكار مرتبة منطقياً يطغى عليها طابع المقالة كما يقول الدكتور إبراهيم السعافين في كتابه (تطور الرواية في بلاد الشام)

فكان هدف الكاتب من هذا العمل: هو أن يثقف ويهذب، ويربي، ويعلم الجيل. فالهدف الأساسي من هذا العمل هو الجانب الأخلاقي والتربوي أكثر منه الإبداعي، أو أن يكتب رواية أو قصة بشروطها الفنية المعروفة.

ولعل هذه النوعية من الأعمال تتيح مجالاً كبيراً لإثارة الوعي وبث الأفكار الصحيحة في نفوس الناشئة، والذي يستقرئ نتاج رواد عصر النهضة؛ يجد أن معظم أعمالهم لا تخرج عن مجال التعليم، والتثقيف والمحافظة على الآداب العامة، ولاسيما أن الحياة الاجتماعية قد فرضت هذا اللون، ولقد أقبلت الصحف والمجلات على نشر هذه الأعمال من أجل لتسلية والإقبال على قراءة الصحف، وإثارة القراء. ولذلك عندما قدم صاحب مجلة المنار أشار إلى عنوانها: تاريخ العرب والإسلام في سلك القصص والروايات.

عمر الجزائري

ابن المجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري، "اختار أهل الشام ان يكون الأمير عبد القادر الجزائري رأس حركتهم ورئيساً للدولة التي عزموا على إنشائها، وذلك لشرف نسبه، ولأنه بطل قومي مجاهد، وسياسي مدبر فذ، ورجل علم وأدب وأخلاق ومكارم، ولأنه أنشأ دولة عربية قومية في بلاد المغرب الوسط، وناضل في الدفاع عنه ضد الاستعمار نضالاً كان أسطورة ذلك الجيل وآية أعجوبته، حيث وصل بأمته مرتبة عز نظيرها. وبد اصطفاه أهل الديار الشامية دون أن يخطر لأحدهم أنه ليس من أهل المشرق، أو أن المشرقي أولى منه بهذه الولاية، لأن النزعات الإقليمية لم يكن لها أي اعتبار في ذلك الزمن، فكان ابن الجزائر وابن دمشق وبغداد وبيروت وسائر بلاد العرب مواطناً عربياً قبل أي شيء آخر".

هذه الصفات الجليلة ورثها عمر عن أبيه، ولد في دمشق عام ١٨٧١م ودرس على يد كبار علماء الشام، فنشأ محباً للعرب والعروبة، انضم إلى حزب العهد الذي فصلنا الحديث عنه، عند حديثنا عن الشهيد علي النشاشيبي، وعندما كشف جمال باشا السفاح عن وجهه القناع باستئصال الأحزاب والحركات القومية العربية وقرر سحقها وضرب رجالاتها شعر مر الجزائري بالخطر فهرب إلى منطقة الزاوية، واستطاع الأمير شكيب أرسلان أن يقنع عمه الأمير سعيد الجزائري بتسليم عمر أنه سيتوسط له عند جمال باشا السفاح. واقتنع برأي الأمير أرسلان واتصل بعمر، وأقنعه بالعودة من منطقة الزاوية إلى دمشق، خاصة عندما علم ما شاع عنه من اتهامات ووشايات ليست بذات أهمية، وأنه سيفرج عنه بعد التحقيق معه.وبعد أن انخدعت الأسرة الجزائرية بهذه الخدعة سلمت ابنها معتقدة أن الأمير عمر بريء، ولم يكن له أي نشاط علني ضد الحكومة الاتحادية، وقد رافق سعيد ابن أخيه إلى

القدس من أجل مقابلة جمال السفاح، وسأله عن سبب طلب عمه فأجاب السفاح إن عمه موقوف منذ هذه اللحظة، لأنه يهدف إلى هدم كيان الدولة وسيحال إلى الديوان العرفي وكما أن عمه كان واسطة التعارف بين الشهيد شكري العسكري والشهيد عبد الوهاب الإنجليزي وقنصل فرنسا، وبعد مناقش طويلة ومستفيضة بين جمال باشا السفاح وسعيد الجزائري، وعدة وعدا قاطعا أنه سيحافظ على الأمير عمر حتى لو أن الديوان العرفي حكمه بالإعدام، فإنه سوف يخفف الحكم إلى السجن، ولكمن هل للإجرام منطق يركن إليه؟، لم يوف جمال بعهده، وسيق عمر إلى الديوان العرفي مقيداً بالقيود، ولم يصل الأمر عند حد ذلك، بل طلب السفاح من جلاديه أن يعتقل الأمير علي باشا الجزائري شقيق عمر، واعتقله مع ولده الأم عبد القادر إلى أن صدر حكم الإعدام على عمر، وذلك خوفاً من رجالات الأمر أن يطلقوا سراحه وينقذوه من حكم الإعدام.

وجاء في قرار حكمه "أنه كان يتقاضى الأموال من المعتمد الفرنسي إلى زمن الحرب العالمية، وكمان ممن أمر التزام جانب فرنسا، وهو الذي قدم شكري العسلي وبعض أشخاص غيره على المعتمدة الفرنسية، وأن مقدار ما أبداه من المعونة في التزام جانب الفرنسيين مدرج في أوراق السفير المعتمد. إن نص الاتهام يجانب الواقع لأن عمر الجزائري وبقية أسرة عبد القادر الجزائري كان لهم اتصال مع القنصل الفرنسي بسبب كونهم جزائريين، وكتاب فرنسا تعتبرهم من رعاياها، وتدفع لهم رواتب كتعويض عن أملاكهم الكبيرة والموروثة في الجزائر، وحتى الوثيقة الخاصة بالأمير عمر التي أرسلها سفير فرنسا في الأستانة يوم ٢٧ يناير من عام ١٩١٣ إلى قنصل دمشق، لم تُدِنْه وهذا نصها "وأظن أن الأشخاص الذين رجوك بواسطة الأمير عمر كلنا يفكرون بالاطمئنان على أنفسهم قبل كل شيء، فيجب عليك أن تصغي لهم بمحبة ووداد لأن معرفة السوريين من مسلمين ومسيحيين بأنه يسوغ لهم أن يثقوا بنا من الأهمية على جانب عظيم.

شكري العسلي

هو أحد مبعوثي دمشق في (البرلمان) العثماني ومن أبرز زعمائها، ومفتش الملكية، وقد اشتهر بالخطب الرائعة التي كان يليها في مجلس النواب العثماني، دفاعاً عن العرب، وخاصة الخطبة المشهورة، التي حذر فيها من خطر الصهيونية.

ولد بدمشق سنة ١٨٧٨م، وتلقى دراسته الأولى فيهان ثم دراسته العليا في المدرسة الملكية في الأستانة، وعاد إلى مسقط رأسه دمشق ليتدرب على الأعمال الإدارية في ديوان الحكومة. وكن والي مشق آنذاك (ناظم باشا) فأظهر له احترّاماً تقديراً لما وجد في هذا الشاب من النبوغ التفوق، فلذلك اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في المسائل الداخلية الدقيقة، وهي النواحي الإدارية والمالية، لتكون السنوات الثلاث التي قضاها في ملازمة الوالي مدرسة عملية كبرى استفاد منها الشيء الكثير، فأخذت معارفه وثقافته تنضج – بالرغم من صغر سنه – وخصوصاً أنه كان يلازم شيوخ عصره. وانتظم في حلقة دمشق الكبرى" المعروفة بحلقة الشيخ طاهر الجزائري" وكانت هذه الحلقة تضم نخبة متميزة من رجال الفكر، والأدب، ويدعون إلى تعليم العلوم الحديثة، مع الاهتمام بتاريخ العرب وتراثهم الفكري والعلمي، إضافة إلا الاقتباس من العلم الغربية. ولعل وجود الشيخ الجزائري أضفى على هذه الجمعية نكهة خاصة. وكما عرف عن الشيخ جرأته، هو ورجال حلقته في نقم سوء الإدارة ودعوتهم إلى المساواة والعدل، والحرية، وتنديدهم بالحكام واستبدادهم. كما أن العسلي مشاركاً مشاركة فعالة في هذه الحلقة، يستمع ويناقش فيما يدور فيها، وبعد ذلك أدخله والده في المدرسة البطريركية، ومن ثم المدرسة البستانية، ومنها إلى المدرسة الكلية الأمريكية، ثم إلى مدرسة عين تورا في لبنان – ولم يبلغ العشرين من

عمره – وكان نابغاً بين أقرانه. وعندما أُلن القانون الأساسي سنة ١٣٢٧هـ، كان العسلي في مقدمة المتورين، عونا للأحرار، وأخذ يشرح للأهلين فوائد الحرية والدستور، ويدعوهم لمساعدة هذه الحركة الفكرية بكل قواه؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الاستبداد هو سبب المصائب على الأمة والوطن. وقد انتدبته الحكومة لإخماد ثورة في قضاء الطفيلة آنذاك. وبعد التحري عن الأسباب التي دعت لهذه الثورة، وجد أنها هي ظلم القائم مقام ولاسيما خروجه على الأدب، وجهله بطبائع البلاد وسلب الأهلين أموالهم، وبحسن إدارة العلسي استطاع أن يعيد المياه إلى مجاريه، عن محبة وطيب خاطر. وتولى قضاء الناصرة، وفي مدّة حكمه توفي مبعث "دمشق" محمد العجلاني، فاجتمع قادة الفكر والرأي على ترشيح العلي خلفاً له. لذلك جمعية الاتحاد والترقي لم يرق لها هذا الترشيح، ووصل الأمر عندها أنها منعت الوالي "إسماعيل فاضل باشا" من استقبال ضيف سوريا " محمد علي باشا شقيق الخديوي السابق؛ لأنه على زعمها عربي – واجتمعت الهيئة المركزية برئاسة "مصطفى شكري بيك" المدعي العام، وقررت تخريب ما اجتمع عليه أهل دمشق من ترشيح العسلي، وقررت ترشيح أحد أعضائها الدخلاء والأغراب وهو مدير معارف الشام آنذاك، والعدو الألد الذي كان من أكبر المشجعين على توسيع هوة الخلاف بين الترك العرب. لكن إصرار أحرار دمشق استطاع تفويت هذه اللعبة على الاتحاديين، وأخذوا يعملون بكل إخلاص وجدّ، حتى أوصلوا العلسي إلى مجلس المبعوثان، بالرغم من أنف الحكومة الاتحادية. دخل المجلس فتسابقت إليه الأحزاب تخطب وده. ومن العجيب أنه بقي محافظاً على اتحاديته؛ لأنه كان يحب سياسة الاتحاديين في "دمشق" واليت محلياً لا تنطبق على ياستها في المركز العام في الأستانة، وكمان يحسن الظن حتى انكشفت له الأمور على حقيقتها، وزال ذاك الطلاء اللامع، فرأى بعينيه المؤامرات التي تحيكها زمرة الاتحاد والترقي على العرب، ووجد أن ثلاثة أرباع الذين طردوا من وظائف الحكومة بعد الدستور – لأسباب ملفقة – هم من أبناء جلدته، فلم يسعه البقاء على صحبه هذه الجمعية. وعندما ناقش المجلس الأمور المالية باغت العسلي الاتحاديين في خطاب ناري زعزع أركانهم،

وبين فيه بالأرقام التي لا تقبل أدنى شك أن العرب يزيدون على نصف سكان الدولة، ولا يوجد منهم في النظارات خمسة في المائة من الموظفين، بل ربما لا يوجد في وزارة المالية واحد في المائة منهم، ولعل هذه الكلمة أزالت القناع الذي كان يسدله الاتحاديون على أوجه العرب كلما أرادوا أن يظهروا شيئاً من علامات التململ والضجر، وهذه الوقفة الشجاعة من العسلي بينت للأتراك أن ساعة الحساب أزفت، وأن احتقار الأمم له حدّ معين لا يجوز أن يتعداه.

ومن مواقفه الشجاعة أيضاً في مجلس المبعوثان أنه قال "إن في وزارة المالية (١١١) تركياً و (١١٣) إسرائيلياً وعشرة من الأرمن وأربعة أروام، ولا يوجد واحد من العرب، فقاطعه أحدهم بأن شوكت أعظم رجل من العرب، فقال شكري: يوجد (١٥) مليون عربي ولا يوجد إلا شوكت واحد، وانتقد بشدة قلة الموظفين العرب مع كثرة المتخرجين منهم.

وتساءل في مجلس المبعوثان أيضاً بقوله: "هل من المعقول أن الأمة العربية التي منها صاحب الاختراعات والاكتشافات في إنجلترا وأمريكا، ومنها عضوان في مجلس المبعوثان في الولايات المتحدة والنظارة في الوزارة المصرية؛ فهل من المعقول أن أمة كهذه ليس فيها شبان أكفاء لوظيفة مقيد (مسجل) في دائرة الصدارة، أو مميز قلم الداخلية.

وحمّل شكري الاتحاديين مسؤولية التخلي عن طرابلس، وقال إن العرب هم الذين حاربوا، وان الحكومة عاملت الأهالي بشكل سيء ولم تساعدهم في حربهم، وانتقد عقلية جمعية الاتحاد والترقي وعنصريتها.

ونشر مقالاً شديد اللهجة في صحيفة النبراس ضد الحكومة الاتحادية؛ لإضاعتها طرابلس بسبب الإهمال والسياسة، وليس هذا فحسب، بل لأنها كانت تصرف المال على أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في بنغازي، وليس على السلاح والذخيرة لأولئك العرب، الذين يناضلون ليخلصوا بلدهم، وأضاف بأن العرب لا يصلون إلى المراكز العلية، وأن الضباط العرب الكبار يُسرّحُون إذا لم يصبحوا أدوات بيد جمعية

الاتحاد والترقي، وأن الحكومة تعمل جهدها لتسبب التوتر بين المسلمين والمسيحيين، ولتعوق تقدمهم وتخلع العرب وتبعدهم عن تقدمهم وتشجع الصهيونية على التوسع في سوريا وفلسطين، لكن العرب صمموا على الخلاص من ذلك كما تخلصوا من طغيان عبدالحميد، ولهذا هم يمدون حزب الحرية والائتلاف الذي يدعم الحرية.

وكان العسلي من أشد خصوم الصهيونية، ونبه إلى خطرها مبكراً، وقد رفض اقتراح الاتحاديين بيع ثلاثة ملايين (دونم) لليهود في فلسطين بمساعدة وزير المالية جاويد، فسقط المشروع بعد أن عارضه العسلي وكشف غاياته وأخطاره.

وانتقد تقصير الحكومة بما يخص شؤون التعليم والتدريس، ووزير المعارف. ورفض والي بيروت تحويل مدرسة الصنائع إلى مدرسة إعدادية، حيث لا يرسل أبناؤها إلى المدارس الأجنبية، وانتقد تدريس التجويد والقرآن باللغة التركية، مع أن القانون يقضي بتعليم العربية، وتمنى أن تحول نفقات المفتشين إلى مدارس ابتدائية.

ونقل العسلي مع زملائه العرب في مجلس المبعوثان مطالب العرب في مقابلة لهم مع وزير الداخلية جلال بك – من خلال تقرير مطول عن حالة سورية – وطالبوا فيه بتعيين والٍ جديد؛ لأن الحالي لم يقم بأي عمل نافع، وطالبوا أيضاً بتعيين متصرّف ملكي عاقل وحكيم ويعرف اللغة العربية لأهالي (الكرك). وحمل حملة كبيرة على حكومة الاتحاديين بمقالة نشرها في مجلة المقتبس جاء فيها "إن العرب حانقون على من يُعلمون الأحكام القرآنية بالتركية، خلافاً لما طرحه ناظر وزير الداخلية، والعرب غاضبون لأن الدولة قربت الأسفال والجواسيس من أمثال طنين لتفرق العرب عن الترك، وهما عنصران متحابان، والعرب غاضبون على من جعلهم يترحمون على العدل أيام السلطان عبدالحميد، وغاضبون على نقل الضباط العرب إلى أماكن بعيدة، وغاضبون على من أغضبوا الدولة بطيشهم وعدم تدبرهم، وغاضبون على من استبد بالأمر أكثر من عبدالحميد، فهذه شكوى العرب، وليس لهم شكاوى من العنصر التركي نفسه الذي يشكون الشيء نفسه".

وفي عام ١٩١٢ جيشت الدولة العثمانية في تلك الفترة جيشاً كبيراً للانتقام من دروز حوران، فأعملت السيوف في رقابهم، وشتتت الطائع البريء منهم، لأنها عجزت عن الوصول إلى المجرم فكان يحيى الذي سُلِّمَ إلى الحكومة عن طيب خاطر ثلثي المشنوقين من الدروز في ساحة المرجه في دمشق بينما كان سليم الأطرش الذي كان يعرف خداع الاتحاديين، وأخذ يقطع السابلة ويشن الغارات على القرى المجاورة أغاظ هذا العمل مبعوث سوريا فأخذ يستعد له، ولكن جرى بعد ذلك ما هو أدهى وأمر من ذلك؛ إذ غدرت الحكومة بالشيخ نوري الشعلان شيخ قبائل الرولا وخادم الدولة الأمين بعد أن أمنته على حياته وماله، ودعته لوليمة فساقته منها إلى سجن القلعة، ومنها نفته بقصد اغتياله خارج الولاية، وعندما علم شكري العسلي بذلك أخذ يعمل بكل الوسائل والطرق حتى أنقذ حياته وأخرجه من مأزقه الحرج واستطاع أن يخرجه من السجن.

وعندما انتهت دورة المجلس النيابي عاد المبعوث يستعد للانتخابات القادمة فخرجت دمشق عن بكرة أبيها لاستقبال نائبها الجريء في محطة سكة الحديد، وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، ووصلت التقارير إلى الحكومة الاتحادية أن العرب قد أفاقوا من غفلتهم، وأن مبعوثيهم لم يكونوا إلا مخالفين ومعارضين لهم، وأخذت جمعية الاتحاد والترقي تعيد حساباتها من جديد، واستطاعت عن طريق أعوانها التضييق على شكري العسلي حتى حملته على السفر إلى مصر وبقي هناك حتى سقطت وزارة "كوجك سعيد باشا" فرجع إلى دمشق لتجديد الحملة القلمية على الظلم، والاستبداد الذي يكتوي به العرب.

وبعدما أعلنت حرب البلقان الناشئة عن طيش الاتحاديين وعم حكمتهم وترويهم ظهرت حركة الإصلاح في سوريا، وانضم إليها الكتاب والعلماء والأعيان في عامة الأقطار، كان في مقدمتهم العسلي. وعندما شعرت الحكومة الاتحادية بخطورة مقالات العسلي أغلقت "جريدة المقتبس" فاضطر إلى إصدار صحيفة أخرى أسماها "القبس" والذي يطالع مواد هذه الصحيفة يدرك غزارة المواد التي نشرها وسعة ثقافته، وغزارة علمه.

وقد عرف عن شكري العسلي أنه لا يحابي في مبدأ، ولا يهادن في الحق ولا ينظر إلى الأمور من باب الربح والخسارة، فقد استدعته الحكومة الاتحادية من بيروت إلى دمشق وأبلغته قرار وزير الداخلية بتعيينه متصرفاً لمدينة اللاذقية، وكان جواب العسلي الرفض بالطبع قائلاً: "إنني رغبت بالاستخدام في عهد الوزارة السابقة أي الوزارة الائتلافية بعد أن اعتقدت أنها ستدخلنا في الدور القانوني، وأنها عازمة على الإصلاح، أما الآن فإنني قبل أن أرى آثار الإصلاح، وأرى القانون قد وضع موضع التنفيذ، لا يمكنني قبول أية وظيفة "وعلى الرغم من أن الوالي طمأنه لقرب صدور قانون الولايات، وأن اللغة المحلية، ستكون لغة التدريس... إلا أن العلسي رفض الوظيفة، وقد أرسلت الهيئة الإدارية لجمعية العربية الفتاة في باريس رسالة تؤيد هذا الموقف وتشجعه.. وهذه الطريقة التي سلكها والتي صار عليها أعضاء الجمعيات العربية الإصلاحية في رفض الوظائف، وأصبح العنوان البارز في الصحف الإصلاحية العربية" نحن طلاب إصلاح لا طلاب وظائف" وقد حاولت الحكومة الاتحادية استرضاء العسلي بشتى الطرق والوسائل، ولكنها لم تلقح بذلك، ووسطهم صديقه القديم سامي العظم في إقناعه لكنه رفض، وإن جميع الرسائل التي كانت تصله بشأن ذلك لا تفض إلا في حلقة الإصلاحيين، ولا يبت في أمرها إلا بعد استشارة إخوانه، وافتتح مع صديقيه فايز الغصين وعبد الوهاب المليحي مكتباً للمحاماة، فقد كانوا يفضلون مهنة المحاماة على الوظائف العالية، وكان شعارهم إننا أصبحنا ملكاً للأخوان، أي أن مكتبنا مفتوح بابه على مصراعيه للجميع فلا يجز لنا الإفراط في شيء من الأمر، وخاصة بما يتعلق بالإصلاح، وعندما غير رجال الإصلاح في التكتيك من خططهم عقدوا جلسة خاصة أرغموا فيها العسلي على قبول الوظيفة التي عرضت عليه وهي تفتيش "الإدارة الملكية" وقد تميز بهذا العمل.

صفاته

كان العسلي آية في الذكاء وقوة في الذاكرة يحفظ القصائد الطوال متى تليت على مسمعه مرة أو مرتين فقط، وكان يهتمُ بما ينشر في المجلات الأدبية وخاصة فيما

يتعلق بالغاز الخاصة، فيحلها كلمح البصر مما يحتاج إلى حله تفكير طويل، ثم تصدر المجلة واسم العسلي في رأس قائمة هذه الألغاز وهي في الغالب حسابية وجغرافية وفلكية. وكان مثالاً للإخلاص الصدق والمحافظة على الآداب وتجلت غيرته الوطنية في أبهى صورها ومعانيها عندما أذاع بعض الوشاة أن البيروتيين – عندما أغلقوا مدينتهم للإصلاح – نشروا على بيوتهم الرايات الأجنبية. عندما سمع هذا الكلام جمع إخوانه من الإصلاحيين للاحتجاج على هذا العمل الدخيل على شيمنا وعاداتنا وتقاليدنا. وسافر إلى بيروت ليتحقق من هذا الأمر، ولكنه تبين بعد حين أن الأتراك هم الذين روجوا هذه الإشاعة لغاية في النفس.وقد أجمع كل من رآه بعد الحرب على أنه كان من أخلص الناس للجامعة العثمانية يشهد بذلك ليس العرب أو من كان قريباً منه بل المنصفون من الأتراك أيضاً، ولو ان الهدف من محاكمته في الديوان العرفي تحقيق الحق وإزهاق الباطل لأفادته مثل هذه الشهادة وبرأته أعماله الوطنية ولاسيما ان عدداً من الأتراك كانوا يشهدون له بإخلاصه.

ولكن كان الهدف من ذلك هو تطبيق خطة تركية عنصرية طورانية، لا تنمو إلا في نظر أصحابها وزعمهم إلا بسحق الأمة العربية وتذويبها وفقدان هويتها.

نفى جمال السفاح زوجة العسلي بعد إعدامه إلى أقصى بلاد الأناضول وبعث سائر أعضاء أسرته إلى مجاهيل البلاد التركية.

وفي أوائل رجب من عام ١٩١٦ سيق العسلي إلى المشنقة فكان آخر كلام نطق به على سدة المشنقة قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون).

شكري العسلي الروائي الأديب

هذا الأديب والروائي شخصية نادرة في عالم الإبداع والسياسة والفكر والإدارة، بل هو أندر الشخصيات فيجيله، فقد نبغ منذ فجر شبابه بما يمتلك من ملكات ومواهب وقدرات فائقة، جعلته في طليعة رجال عصره. فلقد ترك عدداً من الأعمال تستحق الدراسة والتحليل والاستقرار منها: "القضاء والسنوات" "والخراج في

الإسلام" ونشر كثيراً من المقالات في الصحف المجلات، تعالج قضايا اجتماعية وإدارية وتربية وأدبية، وكان يحب الرسم المسرح ويشجعه. ولقد عثرنا له في مجلة المقتبس مجلة محمد علي كردي على عملين في القصة هما رواية "فجائع البائسين" نشرها عام ١٩٠٧ وقصة "نتائج الإهمال" نشرها عام ١٩١٣.

وقد اتكأنا على ما جاء في كتاب الدكتور شاكر مصطفى "محاضرات عن القصة في سوريا – "ورواية "فجائع البائسين" "طويلة النفس. لأنها تروي حياة كاملة لشخص اسمه •سعيد). وهي تبدأ في ليل الأربعاء السابع والعشرين من شهر شباط، مع آلام الوضع والتفتيش عن القابلة.. وتنتهي بالغسل الكفن الحمل على الأعناق إلى التراب!... وفيما بين يدي القابلة ويدي حفار القبور ينشأ سعيد ويكبر ويتعذب ويموت:

١- يولد أولا في فصل كامل ثم ينمو من بعد في دار (علي باشا) الذي كان والد سعيد يعمل (جنياً) في خدمته وفي الوكالة على بيته.

٢- وكان للباشا ابنة اسمها جميلة في مثل سن سعيد، وقد كان اجتماعه بها في منزل واحد واشتراكهما في العمر، سبباً في ارتباطهما برابطة الإخاء المتينة، وألف كل منهما صاحبه حتى صارا كأخ وأخته لا يطيقان افتراقاً. وفي غضون ذلك أدخل الباشا سعيداً في المكتب الابتدائي ثم الإعدادي.

٣- وإنما خلال ذلك حب الاثنين أحدهما للآخر حتى تمنا ذات يوم من الاعتراف وأبوح! والتقيا مرة أخرى فأقسما على الحب والزواج والوفاء بالعهد أبداً.

٤- وتخرج سعيد الأول من المدرسة فشد الرحال إلى (الأستانة) لإتمام تحصيله ولم يجد أحسن عائدة عليه من (دار المعلمين) فإنه يأمل فيها أن يقبض مشاهرة (ليرة عثمانية) يستطيع العيش بها لاسيما بعد نقل الباشا من دمشق إلى مكان بعيد! وأقبل على الدرس والجد متحاملاً

على فقرة حتى انتهت الدراسة وعين براتب ثمانمائة قرش شهرياًن ولكن موت أبيه ألقى على عاتقه بعبء العائلة كلها، فظل يعمل حتى وصل راتبه الشهري على ألف ومائة قرش وصار معاوناً لمدير مكتب بيروت الإعدادي.

٥- وتزوج سعيد من شهيرة أخت صديقه (رفيق) فركبته الديون. ثم إن أمها نددت عليه عيشه ودفعت ابنتها دفعا لهجره، وبالرغم من أن الزوجة وضعت غلاما إلا أن أمها أقامت الدعوة على والده تطالب بالنفقة... وكانت النتيجة أن زادت ديون سعيد فقرر الزواج من زوجة أخرى كيداً بزوجته الأولى.

٦- اتفق أن عُيّنَ الباشا في بيروت فعاد سعيد يتردد على بيته. والتقى بجميلة وكانت لا تزال على العهد فألحت عليه باللوم ناقشته في زواجه ثم في تفكيره بالزاج الثاني، ثم أعلنت له أنها ستظل عانساً لان من طبعها الثبات على العهد، ولأنه ليس أل رجل خان الجنس اللطيف! فتاب عندها خجلاً وأسفاً وكاد يفكر بالانتحار! وعرض عليها الزواج فرفضت أن تكون ضرة ورفضت أن تكون سبباً في طلاق! ولكنه ألح وأعلن طلاق شهيرة، فقالت إنها تقبل به إذا قبل أبوها، ولأنها سبق أن وعدت سعيداً بالقبول... وفي هذه الأثناء وصله خبر وفاة ابنه!

٧- أخذت جميلة ابنة الباشا تهيّئ الجو في دارها لقبول فكرة الزواج من سعيد... وألحت لأمها بالفكرة وناقشتها الأم ثم اقتنعت وقررت أن تفاتح الباشا الذي كانت مصيبة سعيد بزوجته، ثم بابنه قد جعلت قلبه يرق له، فلم يرفض فكرة الزاج إن قبلت به ابنته... وأرسلت جميلة إلى سعيد بالخبر فأخذ يبني قصور الآمال!.. وتم العقد والعرس. واستقبلت العرس زوجها بخطاب عن مكانة المرأة ونقد لتبرج، ثم كانت ليلة العرس نقاشا طويلا حول ذلك... ثم تسلم سعيد إدارة بيت

الباشا وعظمت منزلته وتوفر لديه المال بعد وفاه!

٨- أما الزجة الأولى شهيرة فاصطدمت مع أمها حين اكتشفت أنها كانت السبب في شقائها الزوجي، وبينما كانت تبكي جخلت عليها إحدى صويحباتها لتخبرها بزواج سعيد من ابنة الباشا. فأغمي عليها! ثم اصيبت بالسل فماتت!

٩- مرض الباشا بعد ذلك. ثم مات ولم يترك شيئاً من المال لاستقامته. وكانت جميلة قد حملت، وجاءها المخاض بابنة سميت (خيرية)، بينما ذهب الموت بالهانم الكبيرة، زوجة الباشا.. فعاد عبء البيت على سعيد يرهقه!

١٠- خرج سعيد يوماً إلى النزهة في بعض القرى فرافقه في الطريق رجل ما لبث أن غدر به فقتله قائلاً: خذها جزاء عملك بشهيرة! "فهذا هو سعيد ولد بائساً فسعد بالاسم عاش شقياً فسعد بالخيال والآمال، ومات تعساً فسعد بالخلاص من العناء والشقاء، فرحمة الله على روح سعيد الطاهرة!"

وأما قصة (نتائج الإهمال): فقد نشرت سنة ١٩١٣. في المقتبس أيضاً وهي "- كما قال صاحبها – "... قصة واقعية حذفت منها لئلا يفهم الناس أبطالها ونشرتها، لتبرهن للذين لا يفهمون معنى الحرية أن الحرية الفاضلة إنما وجدت لرقي الشعب وراحتهم،ولكنّ أمثال هذه الحرية الفاسدة لا تقوم شعبا بل تكون علة انحطاط بعلمه أدبه وأخلاقه وماله". تبدأ القصة بوصف فتاة رآها تدخل "مكاناً عاماً تعرض فيه الصور المتحركة" (سينما)، متبرجة. "كأنها ذاهبة إل مرقص على النمط الأفرنكي" وكانت وحيدة "ليس معها محرم". وراقب صاحب القصة أعمالها فإذا بها تتعاطى كؤوس الحان مع حبيب يغازلها، ولم تمض بضع دقائق حتى دخل فتى مصري وبصق في وجه الفتاة، ثم رجع، وأتى برجل من الشرطة يراقبها بينما خرجت هي مع صاحبها في عربته. فركب الفتى مع الشرطي عربة أخرى،

وركب صاحب القصة عربة ثالثة إلى أحد المخافر، على أن الفتاة لم تدخل المخفر مع صاحبها ولكن تركته أمام الباب وانصرفت ووقف هو يتحدث مع الفتى المصري والشرطي... حتى تصافحا افترقا.. فلنا صاحب القصة من صدي الفتاة يسأله إيضاح الأمر، وبعد أن تعرّفا، جلسا إلى مقهى قريب، فعرف أن الفتاة طالبة في مدرسة داخلية، وأنه عرفها عن طريق صديق له أغراها بكتبه الغرامية، وكان موعدهما الليلة، أن الفتى الذي هاجمهما بالشتيمة أدعى أنه ابن عمها، وليس بذلك، ولكنه من جمعية سرية لمكافحة الفجور.وقد كاد الحبيب والفتاة يشكوانه إلى الشرطة لاعتدائه على حريتهما "بئست تلك الحرية".. وقد تصافيا على باب المخفر! وتاب الحبيب على يد صاحب القصة توبة نصوحاً عن ملاحقة الفتيات!

هاتان هما القصتان.. ولست أستبعد أن يكون لكاتبهما قصص أخرى لم أعثر عليها.

"وقصة نتائج الإهمال. "فهي تعالج بدورها وضعً اجتماعياً آخر، لدق نشرها سنة ١٩١٣، بعد سنوات أربع من إعلان الدستور العثماني، وتفشي أفكار الحرية بين الناس... ولكن هذه الحرية لم تفهم كما يجب لها أن تفهم وقد أسيء استغلالها. فالقصة نوع من ردة الفعل التي شعر بها المتنورون أمام المفهوم الفاسد للحرية: "إلا حرية الرقص، والمداعبة، وتناول الكؤوس على رؤوس الأشهاد، التفاخر بالمقامرة، واعتبار القمار: دليلاً على المدنية، وحرية التبرج. وفي الجملة، حرية كل شيء يمس الفضائل، ومحاسن الأخلاق ويجرح العاطف الشريفة "بينما "الحرية الفاضلة" التي "وجدت لرقي الشعوب وراحتها" هي "حرية الكلام والاجتماع والجمعيات وحرية الكتابة، والطبع والمطبوعات، حرية التعليم التي فيها الحياة.." والعسلي يقف من قصته هذه على منبر، ليضع الحد الفاصل بين الحرية في شكليها المرذول والمثالي. وليدافع في الوقت نفسهن عن المبادئ الجديدة بسبب سوء استخدامها وفهمها، إلى أعنف النقد"..

"ومن الواضح أن وضع هاتين القصتين، في مكانهما من التطور التاريخي

الاجتماعي يعطيهما اكبر القيمة. فالقصتان، في أعماقهما، تاريخ لجانب من العلاقات والمفاهيم الاجتماعية في فترة ما قبل الحرب الأولى، وتعكسان وضعاً اجتماعياً جديداً ينمو ضمن ذلك المجتمع القديم ويناضل ضد المساوئ والمضاعفات التي تأخذ عليه الطريق. وأبطال العسلي قد وفق في إعطائها الحياة وحرارة الواقع، ولكنه صور فيها الجانب البورجوازي من المجتمع العربي الحديث في فترة من فترات نموه وتطوره".

تعمدنا في هذا الباب أن نُجمل ما كتبه الناقد الدكتور شاكر مصطفى في كتابه القيم محاضرات عن القصة في سوريا المنشور عام ١٩٥٧ وذلك لسببين:

أولهما: أن هذين العملين غير منشورين في كتاب مستقل فقد نشر العسلي هذين العملين في مجلة المقتبس، نشر (فجائع البائسين) عام ١٩٠٧ على أعداد متوالية منذ ص ٥٠ إلى ٣٥٠ والثانية (نتائج الإهمال) عام ١٩١٣ في نفس الصحيفة.

وثانيهما: أن الآراء التي طرقها الدكتور شاكر مصطفى تستحق الدراسة والمناقشة والرد وخاصة انه أول ناقد قد أشار إليهما ودرسهما دراسة موضوعية إضافة إلى أن هذين العملين قد صدرا في فترة لتحولات الصعبة في حياة الأمة العربية، وهي الفترة التي كانت تعيد فيها الأمة العربية علاقتها مع خطر التتريك، وتحس بنبض الإيقاع الجديد الذي بدأ يتسرب لها من خلال المؤثرات، والتيارات الحديثة وبفضل أبنائها الدارسين في الغرب.

وقبل البدء بمناقشة هذه الآراء فلا بد أن نبين أنّ موهبة العسلي في تلك الفترة ليست موقع جدال، فقد ساعده عمله الإداري والسياسي ومشاهدته في مختلف المواقع والأعمال التي خدم فيها في مختلف أرجاء الدولة، ساعده أن يطلع على الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأن يعرف أدق الخصائص واني ضيف على الموضوع الذي يعالجه لمسات من دفقه العاطفي، وسمو الخيال، كما أنه وظف قراءته المتنوعة – وخاصة ثقافته الفرنسية – في تطويع أسلوبه في التعبير عن

مشاعره، ومشاعر الناس الذين يتحدث عنهم.

كما أن أفكاره كانت بعيدة عن أساليب كتاب عصره من سجع، وبديع ورصف الكلمات البيانية المنمقة ومطولات ليس لها أية ضرورة.

إن هذا العمل ليس بالرواية بمعناها الدقيق ذلك أننا لا نستطيع أن نحاكم هذا العمل بالخصائص الفنية والأصول المتعارف عليها عندنا للفن الروائي، وقد أحس بذلك الناقد الدكتور إبراهيم السعافين بقوله "فهي أشبه ما تكون بقصة قصيرة من حيث الحجم، غير أن أحداثها تتسم بالشمول والاتساع، كما أنها تشغل مساحة زمانية ومكانية كبيرة. فنظرتها إلى الحياة لا تأتي من زاوية خاصة، بل تشمل موقفاً عاماً من الحياة ومن الناس، وتصطنع مجال الرواية التي تمثل عصراً أو بيئة، وتخوض في التفاصيل الدقيقة لحياة الأبطال، وقد أعفانا مؤلفها من الاجتهاد، فاعترف بأنه اختصر رواية بغية تقديم أفكار إصلاحية وقد اختتمها ببيان الغاية التهذيبية والتثقيفية، والتي درج الروائيون على ذكرها في هذه الفترة".

إن العسلي لم يفشل في تصوير ما تئن منه الحياة الاجتماعية من بؤس كما ذكر الدكتور شاكر مصطفى – وإنما استطاع أن يعرض ما تمور به الحياة الاجتماعية آنذاك من حرمان، وفقر وبؤس، مطلع هذا القرن، – فهي صورة حقيقية واقعية لهذا الواقع المرد الذي كانت تعيشه الأمة العربية في ذلك الوقت.

كما أن الرواية بمعناها الحقيقي والدقيق لم يكتمل نموها الفني وملامحها العامة في بلاد الشام غلا في فترة متأخرة، وبالتحديد في أواخر الأربعينيات من هذا القرن، فظهور مثل هذه الأعمال يأتي منسجماً مع تطور الرواية فنياً، فمن هنا فغن معيارنا لنقدي على مثل هذه الأعمال يختلف عن معيارنا النقدي عن الأعمال التي ظهرت ما بعد فترة الخمسينيات وخاصة التي استفادت من تقنيات الرواية الحديثة.

لقد أراد العسلي من هذين العملين أن يبث أفكاره الإصلاحية في هذا اللون من الفن وما جاء بهما من التعبير التقريري المباشر أحياناً نراه مقصوداً حتى يصل على أذهان القراء بوضوح تام. وهذا الأسلوب ينسجم تماماً مع الهدف والغاية التي

يسعى إليها الكاتب في أن يقدم رؤيته بصورة واضحة ومباشرة فيما يدعو إليه من أفكار وتوجهات من عدالة، ومساواة، وحرية، وإصلاح اجتماعي، والنهوض بالتعليم ومحاربة الأمية. وهذه الأفكار تحتم على الكاتب أن يركز على المضمون أكثر من الشكل أو من التكنيك الفني.

عبد الوهاب المليحي (الإنجليزي)

سيرة حياة عبد الوهاب المليحي تكاد تطابق سيرة حياة شكري العسلي وبين هذين الرجلين الكبيرين تقابل كبير الشعب متعدد الانحناء، تقابل يؤدي إلى التجاذب والتقارب ولا ينتهي إلى التدافع والتنافر، لأنهما يسيران معا في خط واحد وعلى مبدأ واحد، ومن اجل هدف واحد في الطموح والهدف والغاية والوسيلة.

فبيئتهما واحدة وممارستهما التحضيرية والتجهيزية واحدة، وظيفتهما في إدارة الحكومة واحدة تقريباً. ولا يذكر المليحي إلا ويذكر معه العسلي، لأن صحبتهما كانت متلازمة وحركتهما متفقة، وهذا لا يمنع من أن يكون هناك بعض الصفات يمتاز بها الأول عن الثاني، إن كان في العاطفة العقل المحافظة التجديد، أضيق صدراً بعيدا ع الاختلاط بالناس. وكثيراً ما بدأ منه الفكر وظهر من رفيقه العمل، أي انه رجل فكر وأدب اثر منه رجل عمل، ومع ذلك فإنهما لا يتوازيان ولا يتناقضان، يزدوجان كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر ولا يستقل بفرد جناح))

ولدا المليحي في دمشق عام ١٨٧٨ ودرس في المدرسة الرشيدية (عنبر). وسبب لقب أسرته بالإنجليزي أن أحد أجداده كان حاد المزاج يلتهب كالبارود الإنجليزي.

انتظم في حلقة دمشق الكبرى "المعرفة بحلقة الشيخ طاهر الجزائري، التي تحدثنا عنها عند الحديث عن العسلي، وتولد من هذه الحلقة الفكرية والعلمية حلقة أو جمعية سرية سياسية في دمشق تضم بين أعضائها عدداً من العرب وعدداً من الأتراك، أما هدفها فهو السعي للقضاء على اتباع السلطان عبد الحميد وحكمه

المطلق. ويطالب أعضاؤها بالشورى وعودة الدستور. وكان المليحي من أبرز أعضاء هذه الحلقة السرية" وانظم إلى جمعية النهضة العربية التي تفرغت أيضاً عن حلقة دمشق الصغرى، وأسسها الطلبة العرب الذين تابعوا دراستهم في إستانبول عام ١٩٠٦. عين قائم مقام "لقضاء الباب" في ولاية حلب، ومن المعروف أن هذا القضاء أن متعبا للحكام لاسيما أن هذا المنصب كان يتخاطفه أبناء الأعيان في حلب وأبناء العائلات المتنفذة، وجاء تعيينه إلى هذه الولاية من أجل إزالة المخاصمات والمضاربات بين أبناء هذه العائلات، ولعل سيرته الطيبة هي التي دعت الحكومة إلى تعيينه في هذه الولاية، ومع ذلك فإن هذه المناصب الرفعة لم ترق له كثيراً وقد بقي :إلى آخر حياته يفضل الخدمة في إدارة المعارف العامة على التصدّر في الدواوين. ولهذا السبب اتخذ مهنة تعليم اللغة الفرنسية في مدرسة الطبية بدمشق عملا له حينا من الدهر. وقد ذاعت شهرته في مجال التدريس، حتى أن والي سورية ناظم باشا اتخذه معلماً خاصاً لأبنائه، ولم تكن دروسه مقتصرة على اللغة الفرنسية فحسب وإنما كان يدرس الفلسفة وقوم الأخلاق، ومن الوظائف التي شغلها قبل ذلك إدارة قضاء "سروج" وهو قضاء متسع الإرجاء يسكنه عشائر من الأكراد، ورأى إهمالهم الواضح في زراعة الأرض، وأول عمل قام به تشجيعهم على زراعة الأرض واستخراج خيراتها، خاصة أن مستعمري الجرمان كانوا يأتون إلى هذه المنطقة ويستولون على أجزاء منها. وعندما عاد إلى دمشق جلّ سكان المنطقة قد اشتغلوا بزراعة الأرض واستصلحوا الأرض المهملة واستغلوها فعادت عليهم بالنفع والخير.

وعندما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨م، قابل العرب هذا الإعلان بفرحة غامرة، وأقيمت المهرجانات في مختلف الولايات العربية، وتسارع الشعراء والأدباء إلى نظم أروع القصائد والخطب تعبيراً عن فرحتهم بالحرية والديمقراطية والمساواة والعدل، وتناسى العرب في غمرة الفرح كلي شيء تجاه العثمانيين، معتقدين أنه لم يبق في الإمبراطورية المترامية الأطراف لا عرب ولا ترك ولا أرمن ولا أكراد ولا جنسيات أخرى، بل أصبحوا كلهم عثمانيين منتمين إلى الدولة، متساوين في الحقوق

والواجبات، واتجهت الأنظار إلى عاصمة الدولة "الأستانة" التي ستكون لهم المهوى والمهبط في حلبهم ترحالهم، إلا أن هذه النشوة التي أرقصت أهل التجديد وأثارت في رؤوسهم عواصف الطرب، كان تأثيرها في المليحي ضعيفاً باهتاً، حتى خيل لكثير ممن يعرفه أنه لم يكن من طلاب الحرية والإصلاح والمساواة، ولم يبد عليه شيء من التغير بعد الانقلاب، ومن هنا يتبين لها بعد نظره وصدق حدسه، خاصة بعدم تبدد الحال إلى واقع مؤلم ومحزن وانهارت الأماني والآمال والأحلام التي عقدت على الدستور واتضحت أضاليل "جماعة الاتحاد والترقي"، وانكشفت عنصريتهم واستبدادهم وتنكيلهم بالعنصر العربي.

وعندما انتظم في جمعية الاتحاد والترقي قبل أن تتحول عنصرية، وجرى العرف في هذه الجمعية أن المنتسب إليها تربط عيناه يوم دخوله ويحلف اليمين وهو واضع يده على الكتاب الذي يؤمن به وعلى شيء من آلة الحرب، لكن المليحي رفض هذا التقليد الأعمى، ولم يستسلم لهذا العُرف يوم دخوله في هذه الجمعية وحلف اليمين قائلاً: إن الوعد عند الحرّ مثل اليمين المغلظة والذي لا شرف له لا عهد له ولا إيمان. فاضطرت الجمعية قبول ذلك على مضض، وهو الرجل الوحيد الذي انتسب إليها دون تلبية هذا الطلب. وعندما ظهرت النغمات التركية ضد القومية العربية انشق مع ثلة من رجال العرب، وكانت له حملات قوية على مروجي لعبة التفريق،ودافع عن مآثر أمته الماجدة بكل جرأة، ودعا إلى الرابطة التي تضم العنصرين العربي والعثماني دون تمييز. وترك عمله في قضاء الباب، وتفرغ لكتابة المقالات السياسية والفكرية والتربوية وإلقاء الخطب في المنتديات الثقافية والتطوعية، مدافعاً عن كيان الأمة العربية والأمة العثمانية دون تفرقة. وكان يحذر الدولة من أن هذه الحروب التي تخوضها الدولة ليست إلا حروب منافع، لا حروب عواطف، وأن التيار الغربي الذي تحول إلى بلادنا في هذه الأيام هو لانتجاع المنفعة أيضاً، فالواجب على الأمم الضعيفة أن تتيقظ وتأخذ عدتها من إدارتها وحزمها في الأمور الإدارية، كما أنه لا يقبل سياسة الترقيع التي امتازت بها الحكومة التركية في أواخر عهدها ودعتها باسم "إدارة مصلحة" لذلك كان يصدر حكمه القطعي في القضايا والمسائل التي كان

يهرب منها الكثير من الحكام الإداريين. والمسائل الإدارية تقسم عنده إلى قسمين جوهريين: حق، وباطل، ولا ثالث من كبار ضباط أركان الحرب اسمه فريد بك إلى البصرة، ليكون قائداً عسكرياً في الظاهر، ومؤتمراً على قتل طالب آل النقيب في الباطن أحس طالب أن هناك مؤامرة تحاك له في الخفاء، فأرسل إليه عبدا من عبيده وقتل اتحاديا آخر معه أسمه بديع نوري بك عند جسر العشّار في قلب المدينة وأمام ملأ من الناس. جرم القتل ثابت أيضاً والخصومة بين الحكومة من جهة وطالب النقيب من جهة أخرى، أما الحكومة فإنها عينت مدعيا عاما من الاتحاديين للتحقيق، فأتى من "بغداد" وفحص الأوراق ورأى من "المصلحة أن يعدل تقرير الأطباء ويحرف تقرير احد القتيلين بعد استلامه بزمن، ثم أجاب الحكومة المركزية جواباً لم يشف غليلها ولم يعين العاتق الذي يجب أن يقع عليه الجرم. في هذه الأجواء قام المليحي بحملة شديدة على الاتحاديين، وجاهر على ملأ من الناس بضعف سياسة الحكومة التي أرادت أن تتخلص من أحد رعاياها، فلجأت إلى المؤامرات الفردية السرية التي لا تليق بغير قطاع الطرق، وطلب من رفاقه إرسال برقية احتجاج شديدة اللهجة إلى ناظر الداخلية على هذه الفوضى المهلكة. ولم يعبأ بالاعتبارات الخاصة ولا النتائج المترتبة على ذلك. وكما ذكرنا فإن المليحي اشتهر بين رفقائه ببعد النظر، فكان يرى الحوادث البعيدة التي لا يراها غيره إلا بالمنظار قريبة واضحة ليس عليها غشاء من الحمق والتعصب. وكثيراً ما كانت الحكومة تخترع الحوادث من مخيلتها وتكسوها بالزينة بواسطة عملائها، فكان يرى ببعد نظره ما تجرّ وراءها من الحوادث المؤلمة، فتظهر عليه علامات التوجع والتألم، بينما يكون غيره متفائلا بالخير. ولعل هذا السر في وصفه أنه من حزب المتشائمين.

وعندما زجت الدولة العثمانية نفسها في الحرب كظن كثير من المتنورين ان نتيجتها ستكون خيراً للبلاد العربية مهما تقلبت الأحوال، لكنهم غفلوا عما رآه المليحي من المصائب والفظائع التي ستحل بالناس وتقضي عليهم قبل وصول التّرياق الشافي إليهم ولم تمنعه شدة الظلم حينئذ من المجاهرة بالحق والحمل بقوة على الفظائع

التي اقترفتها الحكومة بحق الناس من نفي وتشريد وتعذيب ومصادرة أموال وضرائب متعددة الأسماء والأنواع. إزاء هذه الأحول كان المليحي الصوت العريض الذي يرتفع عند الصمت، ولا يخاف في (الله لومة لائم) مما دعا جمال السفاح أن يطلبه إلى دمشق ويوبخه على انتقاداته، لكن المليحي أجابه بكل صراحة ووضوح أن وظيفته هي تفتيش الإدارة الملكية في ولاية بيروت، لذلك يعدّ سكوتي عن كل خلل يصدر من موظفيها الملكيين اشتراكا في الجرم. وإذا سكت عن التنبه إلى أغلاط الحكومة باعتباري مفتشاً، فمن يحق له يا ترى أن ينقدها ويبين للمراجع المسؤولة اعوجاجها؟ وعلما سمع السفاح الكلام الذي وقع على قلبه كخنجر مسموم أضمر له الحقد، وأوعز إلى طلعت بك ناظر الداخلية بنقله إلى ولاية أخرى، وتم نقله مفتشاً على ولاية "بروسه" وقد أحس المليحي بما كان يدبر له، وأن هذا التعيين الجديد كان في الحقيقة تغطيه حتى يغدروا به، ولا سيما أن الجواسيس يحيطون به من كل جانب، فعزم على السفر وودع زملاءه وإخوانه وقلبه يحدثه من عدم لقائهم مرة ثانية. ولما وصل إلى الأستانه أظهر له طلعت بك شيئاً من الوداد المخادع الذي اتصف به، وخيّره في البقاء في الأستانة، فقبل وباشر عمله في دائرة التفتيش وبقي هناك إلى أن أتاه الطلب من (ديان التفتيش السري) في عاليه فسيق كالمجرم بعد ما أعطاه ناظر الداخلية كتاب توصية إلى والي بيروت يسأله فيه العطف على حامله!!!.

وبينما هو سائر في محطة "الزبداني" ذاهبا إلى "حتفه" في دمشق نزل مع صديقه الأمير عمر الجزائري من القطار لاستنشاق الهواء والتمتع بآخر نظرة من ربى "بلودان" قال له صديقه: إلى أين، فوضع المليحي يده على عنقه كمن يخنقه سيء، إشارة منه إلى المشنقة التي حضرت له ولأصحابه في تلك الليلة، ومما يروع له القلب أن زوجته كانت ليلة إعدامه نائمة مع والدتها في بيت جدّها، فلما كانت عائدة إلى بيتها سمعت الناس قرب ساحة الإتحاد" يذكرون المشانق، فشعرت والدتها بانقباض في صدرها وأشارت على ابنتها تغيير الطريق، ولكنها لم تبال وما زالت سائرة وهي ماسكة بيدها ابنها الصغير (عصام) حتى وصلت إلى الساحة، فرفعت رأسها وتأملت ثم صرخت صرخة دوى لها المكن، إذ رأت ملابس تعرفها، ووجها طالما ابتسم لها،

وانكبت على قدمه تبكي وتعول حتى جاء رجال (الشرطة) فضربوها بكعوب البنادق وفصلوها عمن تود الذهاب معه إلى ظلمة اللحد.

كان المليحي أديباً عالماً وله قلم خصب في اللغتين التركية والعربية، ومعرفة ممتازة بالفرنسية والإنجليزية، وكان له اهتمامات كبيرة في التاريخ والاقتصاد، وعكف قبل الحرب على تأليف كتاب في التاريخ ولكنه لم ير النور. وله مقالات ومحاضرات وخطب نشر جزء منها في الجرائد والمجلات ولا سيما في مجلة المقتبس.

صانك الله من أفول ودامت ... بك مزدنة سماء الكمال

لا تطي الأبصار نور محيا ... ك فجئنا إليك بالتمثال

رفيق رزق سلوم

لم تكن دماء الشهداء الزكية التي عطرت هذه الأرض سوى برهان ساطع على الغاية المشتركة، والمصير المشترك، وكان القاسم المشترك بينهم التعليم فكان المسلم زميلاً للمسيحي بغض النظر عن الفروقات الدينية أو المذهبية أو الاجتماعية في العمل النضالي العربي في عصرت اليقظة العربية، ولهذا جمع صداقة قوية ومتينة بين الشيخ عبد الحميد الزهراوي ورفيق رزق سلوم، لقد جمع بينهما العمل المشترك في الصحافة والعمل الوطني والإنساني.

ولد رفيق عام ١٨٩١م، وتربى في بيت من أكرم بيوت الروم الأرثوذكس في حمص، وأدخل المدرسة الروسية الابتدائية في مدينة حمص في الخامسة من عمره، وبعد أن أنهى هذه المرحلة دخل المدرسة الأكليركية في دير البلمند بالكورة (لبنان) فدرس فيه مدة أربع سنوات، وحصل على شهادتها بالتفوق، ورجع إلى مسقط رأسه في حمص وعلم في المطرانية الأرثوذكسية، ولكن، نفس الفتى لم ترتح لهذه الإقامة في المطرانية، وكأنه لم يخلق لهذه الخدمة وليس مستعداً للرهبنة والخدمة في الكنيسة، وإنما خلق محباً للعمل، بيروت الاستعداد للحياة الاجتماعية والعمل السياسي، ولم يتم مدة الدارسة في المدرسة بل خرج منه ودخل المدرسة الأمريكية في بيروت، وبعد سنة من الدارسة في المدرسة الأمريكية عرفه أستاذه خالد الكريم بالشيخ عبد الحميد الزهراوي الذي نصحه بدراسة الحقوق في الآستانة.

وسافر إلى بناءً على نصيحة الشيخ الزهراوي ودخل كلية الحقوق، وكان لا يتجاوز السابعة من عشرة من عمره، فانكب على الدراسة حتى أصبح موضع إعجاب الجمعي من زملائه وأساتذته، وفي هذه المرحلة كان يراسل بعض الصحف والمجلات وينشر مقالات وقصائد وأخبار ثقافية واقتصادية. وقد أسس مع شباب

العروبة المنتدى الأدبي، وكان وكيلاً لهذا المنتدى، وقد أصدر المنتدى مجلة باسمه كانت مجال أقلام شباب العرب وأدبائهم في كل ما يتصل بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وأمانيها، وغدت مظهراً من مظاهر الفكر ودعامة من دعائم حركتها.

وعلى صفحات هذه المجلة نشرت أولى القصائد والأناشيد التي تشيد بأمجاد العرب وتعرب عن أمانيهم، والتي كان شبان العرب يرددونها ويتغنون بها في اجتماعاتهم الخاصة والعامة" ، وكان رفيق مشرفاً ومشاركاً في هذه المجلة ينشر بها قصائده ومقالاته التي تمجد العرب والعروبة، وبعد أن أنهى دراسة الحقوق انتظم في الجيش ضابطاً عندما خاضت الدولة الحرب الكونية الأولى.

وفي السابع والعشرين من أيلول من عام ١٩١٥ وصلت عنه وشاية فقبض عليه وهو في بيت عمه الأديب والشاعر أبي سلوم في دمشق، وسيق إلى سجن عالية، وصدر قرار اتهامه وإعدامه، وبأنه كان يكتب الأشعار لتهييج الذين يسعون للاستقلال العربي، وتشجيعهم، كما اعترف هو بذلك على حد زعمهم، وكان من الأعضاء المنسوبين باللامركزية، وفي السادس من أيار ١٩١٦ أعدم شنقاً في ساحة المرجة بدمشق مع قافلة الشهداء الثانية، وقد بعث وهو في السجن رسالة إلى ذويه صف فيها ألوان العذاب الذي ذاقه خلال الفترة التي قضاها في السجن، والتحقيق الذي جرى معه:. ومن الطريف في الأمر انه أحضر ذات يوم عوداً على المعتقل فكان يضرب عليه من حين إلى آخر، وأخذ يشدو قول صفي الدين الحلي:

أخلوا المساجد من أشياخنا وبغوا   حتى حملنا فأخلينا الدواوينا
إن القوم أبت أخلاقنا شرفاً   أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا   خضر مرابعنا حمر مواضينا

كما ذكرنا في معرض حديثنا أن رفيق كان مريداً وتلميذاً للزهراوي في أفكاره الاجتماعية والثورية، فصاحبه وتعلم منه وهو أنبغ رجل من أشرف بيت في حمص كما ذكرنا في أثناء حديثنا عنه، وكان يطالب باتحاد الطوائف العربية بعامل اللغة

والمنفعة والأصل والسلالة، ولما جاء الأستانة مساعدة الزاهروي رأى جميع طلبة المدارس الرسمية العالية وكلهم من المسلمين، على هذا المشرب او المبدأ الذي شرب كأسه الأولى من يد الزهراوي، فانتظم في سلك أعضاء المنتدى الأدبي وانتخب وكيلاً للرئيس فيه، وكان حظه من اللغة العربية أوفر من حظوظ إخوانه أعضاء المنتدى الذين لم يتعلموا شيئاً في غير مدارس الدولة، تمكنت النزعة العربية في نفس هذا الشاب بما كان يسقي غرسها في نفسه مما كان يسمعه من كلام مدرسي الأتراك وطلابهم في مدارس العاصمة (الأستانة) من الحث على العصبية التركية وما يقولون في حق العرب والعربية، وما كان يقرأ في جرائدهم وكتبهم، وما يقف عليه من أخبار جمعياتهم، فكان يقابل غلو متعصبي الأتراك بجنكيز خان وهولاكو خان المفسدين اللذين دمرا المدنية العربية الإسلامية، وقام بنظم القصائد في مدح الرسول الكريم وإنشادها في احتفال المولد النبوي الشريف في المنتدى الأدبي، فهذا سبب من الأسباب التي حملت جمال باشا السفاح على شنق رفيق سلوم مع إخوانه أبناء العروبة.

وقبل أن نتحدث عن موهبته الأدبية والعشرية، لا بد وأن نقف عند اللحظات الأخيرة في حياته وهو يستقبل الموت بكل هدوء ورباطة جأش، يصف صاحب كتاب "زيتين داغي" معنى داغي "جبل الزيتون" فالح رفقي اتاي" هذه اللحظات الحاسمة في حياة الشهيد رفيق سلوم بقوله: "أنه كان مثالياً حقيقياً. قد قابل الموت بوجه ضاحك بسام، كان آخر من سيق إلى المشنقة ستة أشخاص كانوا قد صاروا قبله جثثاً هامدة تتدلى من بين أعواد ست من المشانق. "ورفيق رزق يلوم عندما وصل إلى رأس الميدان، ورأى المشنقة الفارغة، قال مبتسماً" يظهر أن موقفي هناك..

وأخذ يسير نحوها. ولكنه عندما قرب من المشانق ورأى جثة عبد الحميد الزهراوي المتدلية من المشنقة الأولى أخذ طوراً جدياً وسلم عليها، صائحاً" – مرحباً. يا أبا الحرية.

"وعندما صعد على كرسي المشنقة لمح بين الحاضرين شاباً تركياً كان زميله في حقوق الستانه ووجه إليه كلخمة وداع".

ويدهش مؤلف الكتاب بثبات رفيق سلوم خلال إعدامه ويقول: "إن السير نحو الموت، دون حقد ودون أسى لهو من أصعب الأمور"

أما الجنرال (علي فؤاد اردن) الذي كان رئيساً لأركان الجيش الرابع، تحت قيادة جمال باشا فيعطينا صورة تفصيلية عن هذه اللحظات لأنه من شهود العيان، وقد سجل في مذكراته كان ما حدث في ذلك اليوم العصيل يقول عن "رفيق سلوم" لقد سار نحو المشنقة الفارغة، بخطوات سريعة، كأنه يريد الالتقاء بها على الفور. إن المأمور الذي تولى أمر لف الحبل حول عنقه، رمى طربوشه على الأرض، ولكن رفيق صاح به قائلاً "لا يحق لكلم أن ترموا طربوشي إلى الأرض، وبناء على ذلك، رفعوا الطربوش من الأرض، وأعادوه على رأسه، كان الطربوش قد تلوث بالتراب. إنه لم يلاحظ ذلك، ولو أنه لاحظه لصاح بهم: "نظفوا طربوشي من الغبار"

لم يبق على انتهاء حياته إلا بضع ثان، وأنا كنت أمعن النظر – تحت ضوء مصباح اللوكس القوي – في هذا الشاب الذي أظهر من رباطة الجأش وبرودة الدم ما يحير الألباب.

وفي اللحظات المحدودة التي تفرق بين الحياة والعدم، تغيرات علائم وجهه بسرعة حتى أصبح أبيض مثل الجبر، ثم اصفر تمام الاصفرار"

ونثبت في هذا الفصل الرسالة التي بعثها لوالدته قبل إعدامه بأيام:

كتاب رفيق رزق سلوم

"سلام وتحية وبعد فهذه قصتي إليكم أحببت أذكركم تاريخ سجيني باختصار وأوصيكم ببعض أمور لابد منها لأنني متيقن من زمن غير بعيد أن وقت الموت قد قرب وانه لابد أن تشيع بعض إشاعات لا صحة لها لذلك أحببت

أن اذكر لكما كل شيء كما وقع تماما.

ألقت الحكومة القبض علي في (١٤) أيلول شرقي قبل الظهر بساعة، وأوقفتني بسجن الضباط وبقيت هناك خمسة أيام لا اعرف سبب سجني، ويوم الجمعة صباحاً أخذوني إلى عالية للاستنطاق، فسألوني عن تاريخ حياتي في الأستانة، وتاريخ حياتي في دمشق وعن علاقتي مع المرحوم عبد الكريم الخليل، لأنهم ادعوا بأنني كاتم أسراره، وأنني كاتب عبد الحميد الزهراوي الخاص، وان لي قصائد وأناشيد وطنية أحض فيها الناشئة العربية على طلب الاستقلال، هذه هي التهمة الموجهة إليّ، وقد دفعت هذه التهم بالحجة القاطعة، وعرفت الذين وشوا بي من بيروت ومن طرابلس الشام، ثم زاد الطين بلة، أحد رفاقي المسجونين معي، وهو رشدي من غزة، فكان يتظاهر أمامنا بالصداقة، ويذهب إلى الديوان العرفي فيفتري عليّ بعض أمور لكي يظهر إخلاصه للحكومة. ويخلص من الإعدام، لأنه اعترف على نفسه صراحة ولم سبق له وسيلة ينقذ بها حياته إلا التجسس.

ثم بعد ذلك جاء أخي العزيز شاكر إلى عاليه، وأرسلني ديان لحرب إلى القدس لأنهم لم يجدوا علي دليلاً يثبت دعواهم، وقالوا إن الذي أمر بتوقيفي جمال باشا، وأن مسألتي تتعلق به رأساً، فحبسوني بالقدس خمسة أيام عند قومندان المركز، ثم استدعاني الباشا وألقى علي نفس الأسئلة التي ألقيت علي في الديوان، وتهددني بالضرب وبأنواع العذاب، فأجبته نفس الأجوبة التي أجبتها في الديوان، فغضب كثيراً، ثم استدعاني إليه ثانية، وحاول أن يقنعني لأقص عليه شيئاً عما قام في ذهنه من الخيالات الوهمية، فأكدت له أنني بعيد عن السياسة بعد السماء عن الأرض، وحينئذ أمرهم أن يعذبوني، فأخذني الضابط بنور الدين ومعه بايرام وجندي آخر إلى غرفة خاصة،وربطوا يدي ورجلي بالحبال، وبدأوا يضربونني ضرباً أليما، وأغمي علي من شدة الضرب ثم أفقت فعادوا إلى ضربي ثانية، فأغمي علي ثانية، ثم أفقت فعاودا إلى ضربي حتى تكسرت في أيديهم عدة عصي، وأغمي علي ثالثة وأنا أقول لهم لا أعرف شيئاً، ثم أعطاني الضابط نور الدين قلماً وورقة، وكلفني أن أعترف،

وأعطاني فرصة مقدار ساعة وقال لي: إذا لم تعترف أحضر آلة لقلع الأظافر، فأقلع أظافرك وأطيل عذابك، حتى تموت وأطرحك في الوادي للوحش، فرأيت أن إصراري بهذه الصورة يجعلهم يتوهمون أني أعلم بعض الأمور واصر على إنكارها، فوعدته أني عزمت على الاعتراف، ورجوت أن يمهلني إلى الصباح لأن رشدي ضاع من شدة الألم، فأخذت وكتبت له بالورقة بأن المرحوم عبد الكريم الخليل كان كلفني من ست سنوات الدخول في جمعيته، فرفضت طلبه، وأنني لا أعلم شيئاً غير ذلك ، وذكرت له في الورقة تاريخ الإصلاحات، واني كنت من حزب عبد الحميد الزهراوي صديق الحكومة الذي رضي بالإصلاح بالرغم من معارضة كثيرين الاعتراف بالجبر والإكراه.

وبعد أن قرأ الورقة ضربها في وجهي وقال هذا لا يكفي، فقلت له إن لي علاقة بجمعية أخرى ولكنها ليست سياسية،ومقصدها تشويق الطلاب ليذهبوا إلى أوروبا ويتعلموا فيها، وليس في ذل ما يخالف قانون الحكومة او إدارتها، ثم ذكرت له أني استعفيت من هذه الجمعية أيضاً، وقدمت استقالتي إلى صديقي سيف الدين الخطيب، وهذا أرسل استعفائي إلى توفيق الناطور في بيروت، وكان سيف الدين حاضراً فاعترف أمام الباشا أني استعفيت وأن الجمعية المذكورة لا تشتغل بالسياسة، وبعد هذا الحادث بيومين رجعت إلى عاليه وبقينا نحو خمسة وثلاثين يوماً ما سألونا عن شيء.

وحضر جمال باشا فأمر أن يستطقونا من جديد، فشرعوا يتهددوننا بالضرب، لأنهم رغبوا أن نوافقهم على بعض الإقرارات فرفضنا بتاتاً، وهكذا استطقونا وقضينا أثناء الاستطاق من العذاب ما يشيب له رأس الطفل، وكانت الحكومة في أثناء ذلك توسع دائرة التحقيقات بواسطة جواسيسها، وقضينا هذه المدة ننتظر الإعدام يوماً فيوماً، أما عن حمص فلم تسألني الحكومة شيئاً لأني قلت لهم أني خرجت من حمص صغيراً، ولا معرفة لي بأحد أبداً، قد صار لي من اليوم ستة أشهر وثمانية أيام ونحن ننتظر الإعدام يوماً فيوماً، لأن الحكومة لا تطبق قوانينها، بل لها سياسة خاصة في هذه

الحالة، وإلا فإنه لا يوجد جرم في الحقيقة أبداً، ولكن هي السياسة قاتلها الله".

وصيته قبل فترة الإعدام

"هذا هو تاريخ حالي من حياتي في السجن، وكنت أتلقى كل هذه الأمور بصدر رحب، وكنت أضحك من هذه الأوهام وانتظر الموت كما ينظر العطشان على الماء، لأني مؤمن بالله وبالآخرة، ومعتقد أن الآخرة أحسن من الدنيا وإذا كان في الموت فراق الأحباب، ففي الآخرة أجتمع بوالدي وأخي وأختي وكثيرين من أقاربي، ولا يؤلمني إلا أمر واحد، وهو أنكمن تعبتم كثيراً لأجلي، ولم تحصدوا شيئاً من تعبكم، ولكن استشهادي هو أعظم واشرف نتيجة تحصدونها، فتصوروا أني مسافر إلى أميركا وأني ناجح في أعمالي، وهل نجاح أعظم من هذا النجاح؟ أنتم الآن لا تدركون معنى هذا النجاح لكن المستقبل سيعرف حقيقتي، وحينئذ ترفعن رؤوسكم افتخاراً.

أما من جهة المعيشة فلا أخاف عليكم، لأنكم بجميعكم قادرون على تحصيل معاشكم، ولا يوجد عندكم أولاد صغار وعجز، فإياكم والحزن، لأني أكره الحزن والحزانى، وثقوا بأن روحي ترفرف دائماً فوقكم فأرى كل حركة من حركاتكم، فأراكم ولا تروني، فإذا حزنتم أهرب من عندكم، وإياكم أن تغيروا ثيابكم أو عادة من عاداتكم، ولقد تركت لكم أثراً من بعدي. أذكر منه كتاب (الاقتصاد) وإذا وجدتم المقالات التي كتبتها في المقتطف في رسالات خصوصية، وأني أحمد الله لأنني عشت شريفاً وأموت شريفاً، وأما الجواسيس الذين تكلموا عني فإنني أسامحهم، واكتبوا على قبري هذه الأبيات:

إن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم	وإن حفظوا ودي حفظت لهم عهداً

ثم إنني لا أنسى الجميل والالتفات الذي لقيته في بيت عمي بالشام، وأشكر جميع الأصدقاء الذين ساعدوني، سواء مادة أو معنى، سلام لجميع الأقارب وعليكم

أن تعتنوا بتربية أولاد أخي الثلاثة على المبادئ القومية وعلموهم أن يعيشوا لأجل الوطن.

أما الذي علي فهو خمسمائة ليرة ذهبية لأخي شاكر، جزاه الله عني خيرا، ولا حاجة أن أوصيك يا أخي في العائلة وأن لا يكون موتي سببا ليأسك، بل كن رجلا كبيرا كما عرفتك، وما الحية إلا منام أو خيال يتقضي، فلنجتمع في أحضان سارة وإبراهيم حيث ندرك أن الدنيا لم تكن سوى منام رأيناه انقضى وليكن الله معك".

في ٢٢ آذار ١٩١٦

رفيق رزق سلوم

رفيق سلوم الأديب الشاعر

رفيق سلوم أديب فذ، وشاعر مطبوع، طويل النفس حاضر البديهة ذكي القلب، ترك ثروة كبيرة وضخمة من نثره وشعره لو جمعت لكانت في موسوعة كبيرة، وقد نهل من ينابيع الفصاحة العربية، وهو في مقدمة شعراء القومية العربية الذين ثبتوا على حب الوطن والذود عن حماه، وكان (السفاح جمال) غاضباً من شعره، الذي كان يلقيه أمام المسؤولين الأتراك في أثناء عرض المسرحيات:

ومن شعره يمدح العرب:

إن كان في موتي حياة ترتجى للعرب اقبل يا حمام وعجل

ومن شعره في ذم الأتراك ندما اشتدت قبضتهم على البلاد والعباد

فالترك فيهم قد اجتمعت كل الرذائل من ذل ومن عار

كونوا على الترك ابطالا ضراغمة صبوا الصواعق من جمر ومن نار

وأوصى أن يكتب على قبره الأبيات التالية، وهي تكشف عن طيبة نفسه وخلقه الرفيع:

وإن الـــذي بـــيني وبـــين أبـــي وبـــين بـــني عمـــي لمختلـــف جـــداً
فـإن أكلـوا لحمـي وفـرت لحـومهم وإن هـدموا مجـدي بنيـت لهـم مجـداً
وإن ضـيعوا غـيبي حفظـت عيـوبهم وإن هم هـووا غـيي هويـت لهـم رشـداً
وإن زجـروا طـيراً بـنحس تمـر بـي زجـرت لـه مطـيراً تمـر بهـم سـعداً

شعره:

كان شاعراً خطيباً قوياً في أسلوبه ونظمه ونثره، ومـن نظمـه قـصيدة نقتطـف منهـا بعض أبياتها، وقد غلبت فيها روح الحرية والتسامح والإخاء الفكرية، التي كان يتمنى أن تسود في أرجاء الدولة، وكان ينظر للأديان بنظرته الحضارية الممتدة الشاملة:

هو الحق مثـل الـشمس في الكـون يظهـر ولـيس بـضير الـشمس أرمـد ينكـر
سـلام علـى البـادي الأمـين محمـد وكـل رسـول جـاء بـالحق يجهـر
لـئن كنـت مـن أتبـاع عيـسى فـإنني أحـب جميـع المرسـلين وأشـكر
ولا سـيما ذاك القريـشي مـن أتـى ليهـدي بـه أهـل البـسيطة أبـصروا
لـك اليـوم مـني شـاعر لا يهمـه تعـصب أقـوام لفـضلك أنكـروا
رفعـت لـروح الله عيـسى مكانـةً وقـد جـاء عيـسى قبـل ذاك يبـشر

ولما أبلغكم الإعدام قال هذه الأبيات وهي آخر ما نظمه رحمه الله:

لا العـرب أهلـي ولا سـورية داري عـن لم تهبـوا لنيـل الحـق والثـار
إن نمـتم عـن دمـي لا كنـتم أبـداً وكـان خـصمكم في المحـشر البـاري
أنـا الـذي دمـه في الأرض منتـشر كأنمـا هـو نهـر في الفـلا جـاري

قلت ظلماً وغدراً بل وتضحيةً عنكم بأيدي وحوش كلها ضار

وقد نشر جل إنتاجه الأدبي في المقتطف والمهذب والمقتبس والمفيد وحمص ومجلة لسان العرب التي أصدرها المنتدى الأدبي في الآستانة وكان يحرر جريدة الحضارة مع أستاذه الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وله من المؤلفات: كتاب (حياة البلاد في علم حقوق الاقتصاد) وكتاب (حقوق الدول).

وكان يجيد اللغة الروسية واليونانية والتركية إضافة إلى اللغة الأم.

رشدي الشمعة

هذه الشخصية الفذة تذكرنا باللوحة التي رسمها الفنان العالمي المعروف رافاييل الذي جمع فيها بين فيلسوفين عظيمين من فلاسفة اليونان هما أفلاطون وأرسطو، وقد اختار رافاييل أن يرسم أفلاطون في هذه اللوحة وهو يشير بإصبعه إلى السماء. أم أرسطو فقد رسمه رافاييل وهو يشير بإصبعه إلى الأرض وأنه أقرب إلى الشعراء ورجال الفن منه إلى الفلاسفة والعلماء والمفكرين، أما أرسطو فهو فيلسوف العقل والحكمة والتفكير الواقعي الذي ينبعث من الأرض وما عليها من أشياء وكائنات وتجارب.

وصورة أفلاطون هي نفسها صورة "رشدي الشمعة"، كان هو الآخر يشير بإصبعه إلى السماء لا إلى الأرض، فهو صاحب خيال واسع وإحساس صادق وقد جمع بين الموهبة الأدبية وإرادة الفن والفكر السياسي الواعي ولكننا نضعه بين رجال الأدب والفن في المقام الأول.

هو رشدي بن أحمد (باشا) بن سليم الشمعة حسيني الأصل، انتقل أجداده من وادي العقيق (بالحجاز) إلى دمشق سنة ٨٢٥هـ. ولد عام ١٨٥٦ وأسرته ذات مجد وحسب علم وأدب. فوالده الشخصية الدمشقية بوجاهته واحترامه بين الناس ومكارم أخلاقه العالية، فنشأ رشدي في هذه الأجواء، أجواء العلم والشعر والأدب، فكان في بيت هو ملتقى العلماء والأدباء والشعراء يتساجلون في الشعر ويتحاورون في قضايا الفكر الأدب والسياسة، فاختزن الفتى في ذاكرته ما يدور في هذه الجلسات من قضايا وآراء وأفكار مما أفاد في تطوّر حياته الفكرية والأدبية والسياسية.

تلقى تعليمه الأولي في دمشق، وأكمل دراسته العالية في إستانبول وتخرج بفي كلياتها. انتسب في أثناء دراسته في إستانبول إلى المنتدى الأدبي وشارك في تأليف

عدد من المسرحيات مستمداً من التاريخ العربي والإسلامي موضوعاته. وانتخبته دمشق نائباً عنها لما كان يتمتع به من مكارم أخلاق ووجاهة وقومية صادقة، وسجل في مجلس المبعوثان مواقف مشرفة كانت مثار إعجاب الأهالي، وعندما نشأت في الدولة العثمانية الأحزاب الجمعيات ذات الطابع السياسي والقومي، كان نصيراً لهذه الأحزاب الجمعيات، وانظم في حزب (الحر المعتدل) الذي كان يضم ٢٣ نائباً، وهذا الحزب كان يستقطب أركان المعارضة في مجلس المبعوثان من اجل معارضة الاتحاديين. وعندما عاد إلى دمشق قام هو وزميلاه عبد الوهاب الإنجليزي وشكري العسلي بصياغة لائحة إصلاحية على غار لائحة بيروت، وأخذ المجلس العمومي للولايات يناقش هذه اللائحة، لأن رئيسه أحمد باشا الشمعة من الائتلافيين – ولم يكد يمضي أسبوع واحد على دراسة المجلس لهذه اللائحة حتى حصل الانقلاب – الاتحادي عام ١٩١٣، فأهملت هذه اللوائح الإصلاحية المقدمة من الجمعيات الإصلاحية في بيروت ودمشق، وسقوط الحكومة الائتلافية قضى نهائياً على الأمل الذي راود العرب وهو الوصول إلى تحقيق اللامركزية الإدارية عن طريق الجمعيات الإصلاحية. وعندما أيقن الاتحاديون أن الأمة العربية لا تؤخذ على غرة، ولا تسمح بوجه من الوجوه أن يتقمص من جنسيتها، وأن أساس كل نهضة في الأمم وحياة الشعوب مبني على كواهل المتعلمين والعقلاء والنابغين، وأن الفكرة التي حاولوا تنفيذها في بلاد العرب لا تتم إلا بالقضاء على هذه الطبقة المتنورة وهدم ذلك الأساس المتين، أخذوا يداورون رجال هذه النهضة وشبانها وعقلاءها، فوعدوا الإصلاحيين مواعيد كثيرة حتى تحين الفرص التي تمكنهم من رقاب هذه الطبقة من المتنورين ليستأصلوهم استئصالاًن وربما كانوا عارفين بأنهم سيدخلون في حرب عامة في صف الألمان، وأن البلاد ستقفل أبوابها من كل جهة، والقوة الذاتية التي في البلاد سيقذف بها إلى أقصى ميادين الحرب، فتكون الفرصة سانحة لهم لتنفيذ خطتهم الشنعاء التي أدمت قلوب العرب، وندما أعلنت الحرب ودخلت حكومة الاتحاديين فيها فما كان من العرب إلا أنهم فوا عن كل طلب من مطالب الإصلاح واندفوا كجسم واحد لخدمة الحكومة، ولم يكونوا يعلمون ما خبأه لهم أولئك الغادرون،

ففي هذه الظروف الصعبة أخذوا يقبضون على كل من تنسموا منه ريح الحرية، وكل من كان يطالب مع المطالبين بالإصلاح، وكان من ضمن الذين ألقى القبض عليهم رشدي الشمعة الذي كان من أبرز زعماء البلاد "مطالبين بالإصلاح، وجاء في قرار اتهامه" أنه كان يلقي في دور التمثيل محاضرات تشجع الانفراد العرب واستقلاله، وكان مشتركاً في تشكيلات الجمعية اللامركزية وفي جميع نشاطاتها السرية بصفة عامل لها".

وفي يوم بلهت من صباح يوم السبت ٦ أيار ١٩١٦م أعدم شنقاً في ساحة المرجة بدمشق مع شهداء القافلة الثانية من شهداء العروبة.

ومما يثير في النفس الأسى والحزن أن ابنة الشهيد رشدي الشمعة كانت مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها، فأمر السفاح جمال بإبعادها مع بقية أفراد العائلة قبلي التنفيذ بنحو أسبوع، ولكن الطبيب استرحم وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها، إلا أنّ أحمد جمال باشا الملقب (المسلم الصراح) الذي أصر على رأيه وأصدر الأمر بنفي أسرة رشدي بك الشمعة مهما يكن مرض كريمته خطراً، فحملت على ظهور الجمال وسيقت هي ووالدتها إلى محطة البرامكة ومنها إلى محطة رياق، حيث أطل أخوها الصغير من الشباك عرضاً فرأى أباه في قطار بيروت آتياً من عاليه ليشنق في دمشق مع من سيشنق في ذلك اليوم، فصرخ الولد صراخ الفطيم عندما يرى مرضعه الحنون فصار ينادي "أبي! أبي" ومدت المريضة رأسها من الشباك لتحقق هذا الحلم بنفسها فرأت والدها يبتسم في وجه ولده ابتسام المحروق على تقبيله، فصاحت من شدة الانفعال وأرادت أن تخاطبه وتودعه الوداع الآخر وتطلب رضاه، ولكن الجنود الموكول إليهم حماية "المؤمنين" في هذا "الجهاد المقدس"! لكموها على وجهها فسقطت على المقعد أمام عيني أبيها الذي بقي مبتسماً ابتسامة الاحتقار، وما أمسى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها إلى حماة، وهي تشير بيدها وفمها من غير وعي، كأنها تقبل الأيدي التي طالما حملتها في صغرها.

رؤيته الممتدة:

نشر رشدي الشمعة مقالة مهمة في صحيفة المقيد في العدد (٤٥٨) في ٣ آب من عام ١٩١٩٠ بعنوان (أي الحزبين أولى) وهذه المقالة تستحق الدراسة والتحليل والتعليق لأنها تحمل في طياتها نبض الإيقاع للحياة الجديدة، التي يحلم بها ويتمنى أن يراها متحققة على أرض الواقع.

وكانت هذه المقالة ردا على سؤال صحفي عن الأحزاب في مجلس (المبعوثان) وعن غاية هذه الأحزاب وأهدافها، وقد كشف الشمعة في هذه المقالة من الشروط الأساسية لحركة التاريخ المجتمع وحتمية التطور الإنساني، ومقومات بناء الدولة الحديثة. وف هذه المقالة الشاملة الجامعة يطرح الكاتب فيها رؤيته وفكره وموقفه من الحرية الديمقراطية العدالة المساواة وحرية الرأي والرأي الآخر والاجتماع السياسي وحرية الأديان حرية التعليم، وحرية الجمعيات السياسية، وحرية المطبعات والصحافة.

ويرى أن جميع رعايا الدولة متساوون في الحقوق والواجبات دون تمييز أو تفريق بين الأفراد والجماعات، دون النظر إلى الدين الجنس الطبقة، تحمل هذه الرؤية المتقدمة رأي حزب الحر المعتدل الذي انتسب إليه ودافع عن مبادئه وأهدافه.

وقد طالب الشمعة بأن تكون الوزارة مسؤولة أمام مجلس (المبعوثان)وأن يعين من جلس الأعيان أو الشيوخ بطريقة الانتخاب، وأن يُوضع قانون انتخابات نزيه وحر، وأن تعيد الدولة النظر في أجهزتها، ولاسيما الجهاز الإداري المالي، وأن يكون الجيش بجميع قطاعاته حامي الخلافة، وسياج الدولة، ومحافظاً على الأمن الداخلي يصون الإنجازات. ومستيقظاً للأخطار الخارجية ويكون هذا الجيش عينا على الخلافة وعينا على الأماكن المقدسة.

ويؤكد أنه عندما تحقق هذه المطالب فإن كل فرد من أفراد الأمة العثمانية يكون مستعد لبذل الغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن دولته.

ولعل هذه المقالة من المقالات المبكرة التي كشفت عن أمراض الدولة وعلاجها،

وكأنه يقول إن هذه القضايا هي القادرة على إعادة عقل الدولة إلى بهائه واكتماله، حمايته من التلقين والانكسار والتعصب والتحيز، وهذه المطالب هي الضمان الوحيد للامتداد بين الالتزام بتأصيل الثوابت ورسم الاستراتيجيات لضبط علاقته بالثابت المتحرك الجديد في دورة الزمن، وفهم دوره واستيعاب حركته ودعوته إلى إطلاق طاقات العقل والإبداع الخلاق إلى أقصى مدى، حتى تدخل الدولة النهضة الشاملة، وتتجاوز التخلف والسكون والمرض والموت الذي يجثم على صدرها، وتفتح نوافذها لتستقبل ما يتناسب مع هويتها وحضارتها، وعندئذ تصل إلى مصاف الدول المتقدمة.

وقبل أن نختم الحديث لابد لنا من أن نقف عند جهوده المبكرة في تأليف المسرحيات القومية التي تجلت فيها القومية العربية بكل معانيها وصورها. والذي يقف عند عناوين هذه المسرحيات المتنوعة يجد أن هذا العطاء المسرحي منسق إلى درجة كبيرة مع مجمل التيارات المسيطرة على الجدان الجمعي التي رافقت اليقظة العربية ضد عملية التتريك. فالكثير من جهود الشمعة في هذا المجال كانت مستمدة من الماضي من أجل استلهامه، فتعرض أعمالاً وقضايا أو تحكي قصة هادفة أم بطولة خالدة، أو إنجاز قائد لامع في التاريخ العربي، له صولة وجولة، أو تؤرخ لحوادث تنم عن مواقف مضيئة من الماضي لتكشف مواطن الخلل، ومضيف أدت إلى عواقب وخيمة على سبيل الإفادة منها وتفادي مخاطرها في الحاضر ولهذا نجد أن اختيار الكاتب لهذه المواضيع بحد ذاتها كان اختياراً هادفاً وموفقاً، يتناغم مع النزعة العربية الاستقلالية التي تواجه النزعة الطورانية التي كانت على قدم وساق.

كما أن سبب انتقاء هذه النصوص المسرحية هو استجابة لمشاعر السخط اتجاه المغالين من الطورانيين الفاعلة في الوجدان العربي، وحفز ذاكرته إزاء مؤامرة الاتحاديين في إعدامه، وكانوا لا يستطيعون التعرض إليه لما يتمتع به من حصانة برلمانية حتى اشتعلت الحرب وكانت فرصة سانحة تصفية الحساب معه.

شهداء القافلة الثانية
في بيروت

١- باترو باولي

٢- جورجي الحداد

٣- سعيد عقل

٤- عمر حمد

٥- عبد الغني العريس

٦- الأمير عارف الشهابي

٧- الشيخ أحمد طباره

٨- توفيق البساط

٩- سيف الدين الخطيب

١٠- علي محمد حاج النشاشيبي

١١- محمود جلال البخاري

١٢- سليم الجزائري

١٣- أمين لطفي الحافظ

بترو باولي

قامت الحركة العربية على أساس أن كل من آمن ببلاد العرب وطناً وبالعرب إخواناً يُعدّ عربياً بغض النظر عن دينه أو مذهبه، وقد تجلى هذا المفهوم فكرةً وواقعاً في أدبيات الأحزاب العربية السرية، ولم يقتصر على مفهوم التآخي بين المسلمين والمسيحيين فحسب وإنما شمل القوميات الأخرى، وعندما بدأت ألوية الجمعيات العلم، حملت في ثناياها الأفق الإنساني دون تعصب أو انغلاق. وقد كتب في هذا الصدد رفيق العظم، رئيس حزب اللامركزية إلى محمود المحمصاني أحد أعضاء الهيئة الإدارية في جمعية العربية الفتاة "رسالة عن هذا المفهوم ومما جاء فيها: "إننا جماعة مبدؤنا الديمقراطية وعندنا أن كل أبناء الوطن السوري سواء في الحقوق والواجبات، وأن اليهود إذا تجنسوا بالجنسية الوطنية كانوا كغيرهم من أبناء هذا الوطن.

ومن هذا المفهوم الواسع انضم بترو باولي إلى الجمعيات العربية تحت لواء العروبة مؤمنا برسالتها العظيمة، وبأهدافها النبيلة وبقيمها الرفيعة.

ولد بترو باولي في مدينة بيروت عام ١٨٨٦م ومن التبعة اليونانية أصلاً، وأكمل المرحلة الأولى من دراسته في مدرسة الثلاثة أقمار، وانتقل إلى الدراسة الأكليركية الروم (الأرثوذكس) وأمضى في المدرسة سنتين، ثم دخل مدرسة (كفتين) الداخلية، في هذه المدرسة الداخلة تزد بالثقافة العربية والفرنسية واليونانية، وظهرت موهبته الأدبية في هذه المدرسة، وكان يرأس النشاطات الثقافية والعلمية، ويشارك في الأمسيات الشعرية والمسابقات الثقافية، ويراسل الصحف.

وعندما أعلن الدستور العثماني استقبله العرب والقوميات الأخرى بحماس كبير، وكان العرب يتوجهون بكل صدق في حل المسألة العربية تحت راية الدولة

العثمانية دون التعاون مع الدول الأجنبية، ويبنون الآمال الكبيرة بالتعاون مع الأتراك في سبيل حماية الدولة من المطامع الأجنبية، وكان له مواقف مشرفة عن طريق المقالات التي كان يدبجها في الدفاع عن الدول العثمانية في جريدة الوطن التي أنشأها في هذا العهد، وأصدر صحية أخرى بعنوان (الوحدة) أمرت السلطة بإغلاقها بصفته يوناني الجنسية، وعمل محرراً في جريدة (المراقب) التي يرأسها جرجي عطية، استمرت هذه المجلة في الصدور حتى الحرب العالمية الأولى فتوقفت عن الصدور بسبب الضائقة المالية التي كانت تمر بها البلاد وفقدان الورق، في هذه الفترة أصبحت الحكومة الاتحادي تراقب نشاطاته ويثيرها ما كان يكتب في الصحف، فألقى القبض عليه أرسل إلى دمشق، ومكث أربعة أشهرة في السجن، وقدم للمحاكمة أمام المجلس العرقي، فأطلق سراحه بعد أن دفع البدل النقدي عن الخدمة العسكرية، وبعد الخروج من السجن شددت عليه المراقبة ورصدت حركاته وسكناته. وألقى عليه القبض مرة ثانية، ثم سيق إلى سجن حلب ومكث شهراً وانتقل إلى سجن قنية، ولم تثبت عليه أي تهمة، وبعد وساطات كبيرة أطلق سراحه، وبقي تحت المراقبة، وألقي القبض عليه للمرة الثالثة وسيق إلى سجن أزمير فأمضى فيه سبعة أشهرن وفي عام ١٩١٦ سيق إلى الديوان العرفي، وتمت محاكمته أمام الديوان بعد أن أمضى ستين من سجن لآخر تحت التعذيب والإرهاق النفسي، وفي الساعة الثالثة من صباح السادس من ١٩١٦ دخلت الشركة إلى غرفة الشهداء ونادوا على ثلاثة منهم هم بترو باولي وجرجي حداد وسعيد عقل، فلما سمع الجميع صوت الشرطة وكانوا قد جمعوهم في غرفة واحدة علا ضجيجهم وأخذوا ينادون: حبذا الموت بالمشنقة في سبيل الله والوطن.. خذونا كلنا سوية إلى آلة الإعدام، وأخذوا يتمشون صفوفاً في الغرفة ذهاباً وإيابا وهم يرددون بصوت عال جهوري نشيد

نحـــــن أبنـــــاء الألى ســـادوا مجـــدا وعـــلا

نــســل قحطـــان الأبـــي جـــدّ كـــل العـــرب

أخذ الجنود الرفاق الثلاثة مكبلين بالقيود إلى ساحة الإعدام، وكان الظلام دامساً السكينة المخيفة سائدة على تلك الساحة، لا يسمع فيها سوى صدى أصوات الشهداء الذين كانوا يرددون نشدهم في دائرة الشرطة، أو صهيل جواد جندي أو طقطقة سيف ضابط على بلاط الشارع، تقدم الثلاثة بقمصانهم البيضاء إلى الصف الأول من المشانق التي كانت منصوبة في جهة ساحة الاتحاد الغربية، ففحص الطبيب أجسامهم (لأن القانون يقضي بعدم إعدام المريض) وكان شرطي من الديوان العرفي يتلو نص الحكم بالإعدام في ذلك الوقت وهو يحرك رأسه ويديه بطريقة غريبة وعجيبة.

فغضب المرحوم بترو بولي من كل هذه الحركات و "الرسميات" وخرج فيهم بصوت، جهوري:

– عجلو بنا وخلصونا من وجوهكم اللعينة، كان الأولى بكم بدلا من أن تفحصوا أجسامنا بدقة ألان تحاكمون بالعدل... إننا لا نخاف الموت.

ومن لم يمت بالسيف مات "بجبلة" تعددت الأسباب والموت واحد .. خلصونا .. عجلوا.

وكان رجال الشركة المكلفون بحراستهم قد جاءوا بكاهن ماروني ودعا باترو باولي وجورجي حداد إلى تتميم واجبهما الديني معتذراً بقولهم: "لا يوجد الآن كاهن، من الروم، فاعترفا أمام الكاهن الماروني، نحن نقوم بواجبنا الديني وربنا يغفر لنا على يد كاهن ماروني كما يغفر بواسطة كاهن أرثوذكسي، وقال "والله لو قدر لي أن أتم واجباتي الدينية عن يد شيخ مسلم لما تأخرت"

وصعد إلى منصة المشنقة ورفس الكرسي برجله فهوى.

جـــورجـي الــحـداد

جاهد في العلم السياسي حتى تعرض للموت، وكان سياسياً كأبرع ما يكون السياسي المحنك، كان أديباً مبدعاً ومتفوقاً كأرقى ما يكن الأديب المبدع وتعطينا كتاباته الصورة الواضحة عن فكرة وحياته. شرع قلمه ليدافع عن حياض أمته منذ المقال الأول، يدافع عن لغتها وتاريخها، يفتخر بمآثر العربية وأمجادها العريقة إنه جورجي الحداد.

ولد جورجي بن موسى الحداد في مدينة زحلة قرب بيروت من أعمال لبنان، ثم انتقل مع أسرته إلى دمشق طلباً للرزق، وكان والده يعاني من مرض أقعده عن العمل، فكان اعتماد الأسرة على ما تقوم به والدته من عمل إذا إنها كانت تتقن مهنة الخياطة، فكان الصبي جورج يساعد والدته في جمع الثياب من المنزل وتوزيعها على أصحابها. ويبدو لنا أن والدته كانت على درجه كبيرة من الإبداع والإتقان في تفصيل الملابس وخياطتها.

تلقى تعليمه في المدرسة الطائفية الأرثوذكسية بتشجيع ودعم من فارس الخوري، الذي تولى رعايته واهتمامه به منذ صغره، وقد ظهرت عليه معالم النبوغ والذكاء.

وبعد إتمام دراسته في هذه المدرة عين فيها أستاذاً (مشتركا) بين مدرستي الاليانس ومدرسة الآباء العذابين، وإلى جانب عمله مدرساً، كان يعمل محرراً في أكثر من صحيفة منها (العصر الجديد) التي كان يصدرها الأديب المحامي ناصيف أبو رزق، وصحيفة الراوي لتوفيق الحلبي، ومجلة النعمة، كما كان يراسل مجلة المقطم، ونشر فيها كثيراً من الدارسات والبحوث والمقالات والقصائد.

وبين أيدينا رسالة تكشف لنا بعض جوانب من حياته ورؤية للأدب والإبداع،

ومن هذه الرسالة نقتطف ما جاء بها، وقد ذكر البلاغة قائلاً: إنه حدود جامعة مانعة كما يقول المنطقيون، أنا أقرأ رسائل بعض كتاب الخلفاء في الدولة العباسية وبعدها، فأرى جلها عبارات مرصوفة، يقولون إن فيها بلاغة ولكن أجهدت نفسي في اكتشافها فلم أتوفق. هم وضعوا قواعد البلاغة كما يشاءون ثم أصبحوا يعرضون عليها كتابات الكتّاب فيطرحون ما خالف تلك القاعدة. أحكامهم ظالمة جائرة لو عدلوا لقاسوا البلاغة بواقع الكلام في النفس لا بمطابقتها القواعد أو منافاتها لها من صحة التّركيب وانتقاء الألفاظ هذان من الظواهر وإنما تحتاج إلى الجوهر. ومن معانيه الرائعة "إذا كان للصوت تموجات فللنفس تموجات أيضاً والأبيات إحدى هاتيك التموجات ". وكما ذكرنا في المقدمة فإن جورج كما يعتز بانتسابه إلى الأمة العربية الماجدة، ويرى أن هذه الأمة لا تصل درجة الرقي إلا إذا انتشر العلم والمعرفة والثقافة بينهم، ومؤمناً أن العرب لا يصلح أمرهم، والقسم الأكبر منهم في جهل، فمعمل جاهداً على بث روح التعليم وحث إخوته على الإقبال على العلم والمعرفة، وقد تعرض في سبيل ذلك للمضايقات، فقد حملت عليه جريدة "المشكاة" حملة شعواء وطلب أكثر من مرة إلى الديوان العرفي. وقد انتخبته جمعية الحية والائتلاف كاتباً لها لما يتمتع به من ثقافة وإطلاع واسع وثقة الجميع به قبل ذلك، وفي أثناء ذلك عطلت الحكومة جريدة الرواي فانقطع للتّربية والتعليم، وقد بعث برسالة إلى أحد أصدقائه في مصر بعد إعلان الحرب يصور فيها الحالة التي وصلت إليها الأمة في عهد (الاتحاد والتّرقي) وما تعاني من فقر وحرمان وأمراض وكساد على أنواع البضاعة، وما جاء فيها "أما حالتنا فمضحكة – ولكنه ضحك كالبكاء – الناس موتى ولا أعمال ولا أموال ولا أماني ولا آمال يستعيذون بالله مما وصولا إليه، ويستجيرون به مما كتب في غيبه يضرعون إليه أن لا تكون الآخرة شراً من الأولى، والحكومة تفرض الإعانات وتجمع الضرائب وتحشد الجيوش وتجند الكتائب، وأظن ما جمعته من دمشق وضواحيها من الإعانات النقدية والحبوب والمواشي لا يقل عن ١٢٠ ألف ليره هذا عدا التكاليف القانونية والبدلات العسكرية".

وكان جورجي صاحب مبدأ أصيل لم يتزحزح عنه لا في التّرغيب ولا في

الترهيب، وكان على درجة كبيرة من السمو في الأخلاق والرفعة والصبات على المبدأ مما كلفة غالياً، وفي إحدى رسائله يخبر فيها أحد أصدقائه مما ذهبنا إليه من مثانه في الخلق وإباء وشهامة يقول: (بعد أن فاز الاتحاديون في الانتخاب عمدوا إلى إذلال مناوئيهم ومخالفيهم وأنا من زعماء هؤلاء المخالفين، فحالا مراراً أن يسقطوني في حبائلهم، ولم لم أكن أخبث منهم أدهى لما سلمت من شرورهم. وفي ذات يوم أرسل الوالي يطالبني بواسطة مدير السجن ليسألني عن السجل المقيدة فيه أسماء أعضاء حزب الحية والائتلاف، ولكني أبيت مواجهته وقلت للمدير: إذا كان لناظم باشا غرض عندي وجب عليه أن يسعى إلي وأنا أجل نفسي عن الوقوف ببابه وتعفير الجبهة بأعتابه واحتمال صلف خدامه وحجابه. فقال المدير: بل يقابلك على الرحب والسعة مقابلة صديق لصديق. فقلت له: أنا في غنى عن ذلك فقال: إنه أحب التعرف إليك لما سمعه عنك. قلت: فلا أذهب إذاً لأقول له أنا فلان. قالوا بما آذيت نفسك. قلت: إنما أو أوذيها إذا تركت إبائي وأوردتها موارد الذل والهوان.

قالوا لا بد بك من مواجهته، قلت: إذا كان عندما أمر قطعي فخذوني بالقوة وعندئذ أكن معذوراً، ولكنهم لم يؤمروا بذلك فتركوني وشأني. ولما قنطوا من استمالتي بالعنف والإكراه عمدوا إلى اللين والمصانعة، فعرضوا عليّ أن أكون اتحادياً وأتولى رئاسة تحرير المشكاة سليم عنجوري بك أن يحمل عليّ في الجريدة، فخصص لذلك مقالة افتتاحي تهجم عليّ فيها تهجماً شديداً وأطال في الكتابة ما شاء. لكنها كتابة مقسطة لا يقيم لها العقلاء وزناً. أغلقنا صحيفة الراوي لأن الاشتغال بالسياسة في هذه الأيام خطر جداً، أما أشغالي اليوم فهي تحرير مجلة النعمة، وإعطاء دروس العربية في المدرسة العاذرية، ومراسلة المقطم، فما ترونه من المقالات بعنوان لمكاتبنا الدمشقي فهو لي، وأكتب حيناً فحيناً مقالات لصحف تنقدني عليها أجرة وافية، وحيثما أردت الكتابة فسحوا لي المجال شاكرين، فأنا من هذه الوجهة مكتف والحمد لله).

الشاعر الموهوب

لقد جمع الحداد بين هموم السياسية وهموم الشعر ونظمه، ولم يحدث أي تعارض بين السياسة والشعر في شخصيته، بل حدث بينهما تفاعل وامتزاج وإخصاب، فغذّت الأحداث السياسة والقومية والوطنية اللاهبة عاطفة الشعر وأججتها، فكان شاعرنا مؤمنا شديد الحماسة للقومية العربية، وقد استطاع أن يستلهم التّراث العربي الإسلامي ويهضمه ويتمثله، فجاءت قصائده تحمل نكهة روحه وعمق ثقافته وكان قلمه يقطر سماً زعافاً يقذفه في وجه أعداء الأمة، وهذه قصيدة يثور فيها ما وصلت إليه حالة العرب من سوء تحت حكم جماعة الاتحاد والترّقي.

أقمنا هنا بين المذلة والردى ... لنا الله في دورين أحلاهما مر

نراد على تقبيل من لا نودّهم ... وإجلال من رد السلام لهم وزر

القت ظهورا بالمداجاة بتهم ... فبت كأني في ضمير العلى نكر

إذا انكرتني عن ظلال مواطن ... فما بي – وأيم الله – عند العلى نكر

وإن جهلتني في الرخاء فإنما ... بمثلي إذا جاشت يشدَ لها أزر

سئمت مقامي في بلادي كأنني ... أسيرَ وثاقٍ قد برى جسمه الأسر

ولولا تكاليف الحياة وخطرةٍ ... بعهد الصبا فيها للج بي الهجر

وله قصيدة ألقاها في إحدى الحفلات في دمشق حاول إثارة حماس الجمهور الذي كان يستمع إليه باسترجاعه صور من الماض العريق، ويسترجع تلك الأيام المشرقة التي شهدت غزة العرب ومنعتهم.

ذوادوا عن اللغة التي وردت بها ... آي الكتاب ونزلت تنزيلا

هي روح نهضتكم ومعقد مجدكم ... فتعهدوها بكرة وأصيلا

وحياتكم يا قوم فاحتفظوا بها ... أو ترتضون عن الحياة بديلا

وتعهدوا الأخلاق فهي إذا التوت ... تركت ممردة الصروح طلولاً

سعيد عقل

هذا الفتى العربي كان مسكنا بالهم القومي منذ نعومة أظفاره، دخل الزمن العربي في اشتعاله، وعاش غضباً يمثل فيه مرحلة الغضب الساطع، وكان النجوم قصائده، والأمة هواه، والعروبة نخوته شعرا وغناء، اعتلى صهوة التحدي، ليصغي لصهيل خيل الأمة، ملأ فضاءات صحفه نشيدا وغناء بأمجاد أمته، وهز شجرة الروح كلي تساقط على أرض أمته، حتى يراها محررة من كل قيد، وكوكب مضيئة.

إنه سعيد بن فاضل سعيد عقل، ولد في الدامور (لبنان) عام ١٨٨٨، ودرس دراسته الأولى في مدرسة غزير، ثم التحق بمدرسة الحكمة المعروفة بتميزها على مدارس ذلك الوقت، خرجت هذه المدرسة من نوابغ وأعلام في مختلف التخصصات، وفي هذه المدرسة بدت قيثارته تعزف الألحان الأولى، وهذه المرحلة كانت بداية شاعريته تظهر وتبرز، وهي مرحلة الشاعرة المتامية، وفيها يمتلك الفتى المقدر على بعض الاستمتاع بالشعر ونظمه، إضافة الى على أعلى الدرجات في التحصيل العملي، وكان موضع اهتمام مدرسيه وتنبأوا له منذ صغره أن يكون في مقدمة الرجال العظام، ويكون له شأن في عالم الإبداع والمبدعين، ثم انتقل من مدرسة الحكمة إلى مدرسة الشويفات وأخذ درس الحقوق ويتعلم اللغة الأجنبية، وفي هذه المدرسة كتب مسرحي شعرية مثلت على برج البراجنة وكانت حديث الناس من طالب لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمرها لما تحمل من مضامين كبيرة لا يدرك معانيها الا الذين نالوا حظا من العلم والمعرفة .

في عام١٩٠٧سافر إلى المكسيك واصدر صحيفة صدى المكسيك استمرت في الصدر أكثر من عام ونصف، وعبد إعلان الدستور العثماني عاد إلى مسقط رأسه،

معتقداً بعد إعلان الدستور أن تبعث حياة جديدة ترفعها إلى مصاف الدول الراقية وتناسى مع إخوته كل شيء في سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل. عمل في ميدان الصحافة وتولى تحرير أكثر من صحيفة منها "المطامير" "والنصير: وأصدر صحيفة (البيرق) ونشر على صفحاتها أورع المقالات في الوطنية والقومية، لم يرق هذا للحكومة، فأوقفت صدورها، وعاد وتولى رئاسة تحرير صحيفة "الأحوال"، وتوقفت عن الصدور للأسباب ذاتها، وعمل مع الشيخ أحمد حسن طبارة في الاتحاد العثماني والثبات والإصلاح وصحيفة الحال، ثم رجع إلى العمل في صحيفة الأحوال التي توقفت عن الصدور بسبب الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى الضائقة المالي التي كانت تمر بها البلاد. بعد ذلك كان مراسلاً لبعض الصحف في الغرب منها (الهدى)، و "مرآة الغرب) في نيويورك، والذي يطالع مقالات سعيد عقل يرى أنه لم يترك ميداناً من ميادين الأدب السياسة والإبداع إلا له صولة وجولة فيها، لم يترك ميداناً من ميادين الأدب والسياسة والأبدع إلا له صولة وجولة فيها، ومقالاته تكشف لنا عن مواهب فذة وكبير وذات عطاء إبداعي لا يتأتى إلا لمبدع حقيقي، وتحسّ بروح اللغة وجمالياتها وهو يمتلكها بكل مفرداتها وتعابيرها، وقدرته الفائقة على صياغة عبراته بثورة مشرقة كأنها تنبض من روحه ودمه حتى تسري فيها الحياة، ومن هذا المنطلق كانت قدرته وتفوقه في ميادين الإبداع في الشعر والقصة والمقالة والمسرحية والخاطرة البحث، وظهر أسلوبه المشرق الأخاذ في كل ما قدم منتاج أدبي وفكري وصحافي، ولعل سفره إلى الغرب واطلاعه على روائع الأدب العالمي أغنت تجربته الإبداعية ولونتها وأعطتها نكهة خاصة.

ولعل شهرته وجرأته فيما كان يكتبه من الأسباب التي أدت إلى إدانة، وجاء في نص اتهامه "أنه سعى إلى تشكيل مملكة عربية مستقلة، وذلك بفعاله وحركاته ونشرياته في جريدة الاتحاد العثماني التي أدخلها بواسطة رزق الله. "وحري أن نذكر ما رد في مذكرات عزمي بك رئيس دائرة الاستخبارات والجاسوسية التركية عن سعيد عقل، وهو يحقق معه بعد اعتقاله، حتى نرد على بعض المفتريات والأكاذيب التي أصبرت عنه وتآمره على الدولة، والتي اخترعوها من خيالاتهم الموهومة.

ورد في الصفحة ٢٠٤ من مذكرات عزمي بك رئيس الاستخبارات والجاسوسية التركي عن الشهيد سعيد عقل ما نصه حرفياً:

"سعيد عقل شاب كثير الحماس للقضيته اللبنانية، مندفع في سبيل تحقيقها غير حافل بالمصاعب التي تعترضهن حتى أنني عندما اجتمعت به في الديوان الحربي العرفي في عاليه لم يتردد في المجاهرة أمامي برأيه في قضية بلاده قائل: إنني لم أكن خائناً، ولست مذنباً لا قف تجاه محكمة تعتبرني خائناً، فأنا أدافع عن حقق بلادي كما أعتقد.

عزمي بك: ولكن هل خدمة بلادك هي أن تنزع هذه البقعة من الدولة العثمانية وتضعها تحت نفوذ الفرنسي، وإنما أردت أن تنال حقوق المعترف بها دولياً فقط، أما فرنسا فقد أظهرت تجاهنا شيئاً من العطف، فحفظنا لها الجميل.

عزمي بك: إذا أنت تعترف بأنك خائن للدول العثمانية.

عقل: إذا كان دفاعي عن بلادي يعتبر خيانة بنظركم فأنا كذلك وأفتخر بهذه الخيانة.

عزمي بك –: إن الدولة لا تنكر قد على أحد حقه في مثل هذه الأمور شرط أن لا تعدى هذه الوطنية إلى الخيانة، فأنت تدعي الوطنية والإخلاص ولكن كيف توفق بين ادعائك هذا والمرتب الذي كنت تتقاضاه من السفارة الفرنسية.

عقل: من قال ذلك؟..

عزمي بك: إن الوثائق الموجودة لدينا تثبت أنك تتقاضى راتباً شهرياً قدره (٨٠٠) فرنك.

عقل: إذا كانت لديكم مثل هذه الوثائق فأنا على استعداد لتحمل مسؤليتها، ولكنني أقول منذ الآن أنكم لا تملكون مثل هذه الوثائق، لأنني لم أتناول من

أحمد بارة .. وتابع عزمي بك قوله عن الشهيد ما نصه حرفياً: "أوردت هذه المحاورة التي دارت بيني وبين سعيد عقل لأنني أردت أن أجعل هذا الشاب مثالاً لغيره، فهو كان صريحاً في أقواله جد الصراحة، وهذه الصراحة هي التي قادته إلى المشنقة، إنه لم ينكر قط أنه كان من أعضاء جمعية النهضة اللبنانية ومن العاملين على تأييد مبادئ هذه الجمعية بكل قواه، وقد استشهد على موقفه هذا بعشرات المقالات التي حررها في الصحف، إلا أنه أنكر أن يكون عاملا على تأييد النفوذ الأجنبي، حتى أنه أنكر معرفته بالوثيقة التي رفعها بعض زعماء المسيحيين وفي مقدمتهم أرقش وزينيه وطراد وثابت بالشكوى من الدولة والمسلمين.

إنه رفض أن يكون جاسوساً على غيره، وقد أنكر معرفته بعلاقات أصحاب الصحف بالقنصلية الفرنسية، قائلاً إنه يجهل مثل هذه الأمور ولا يريد التدخل فيها.

ولما كنت في بدء عهدي صحفياً فقد أعجبت بهذا الشاب وأردت إنقاذه، إلا أنني لم أنجح، لأن جمال باشا كان مقتنعاً بأنه يشتغل لحساب فرنسا ويتقاضى منها راتباً شهرياً، مستنداً بذلك على إفادتي عبد الغني العريسي ورفيق سلوم وتأييد الشيخ أحمد طبارة، وقد كانت هذه الشهادات كافية لإرساله إلى المشنقة".

وعندما وقف على المنصة، ورفس الكرسي والتفت إلى الواقفين حوله قائلاً:-

غفر الله لمن ظلمني، واسأل ربي أن سكون دمي الذي يراق الآن سببا في المستقبل لحياة بلادي وشرفاً لعائلتي وأولادي.

ثم التفت إلى الطبيب الواقف أمامه وقال له:

- رجائي إليك، وأنت من أهل بلادي، أن تهوي بكل قوتك على حال تعلقي، لأن خفة جسمي تمنع انقطاع حبل حياتي بسرعة.

عمر حمد

إذا كانت فترة الطفولة هي التي تحدد مستقبل الإنسان – كما يقول علماء النفس – وهي تسن تصرفاته لما يكون قد اكتنفها من حوادث أو ألم بها من مشاعر وعواطف وصدمات غير ذلك، إذا كانت فترة الطفولة هكذا، فإنها في الواقع قد أثرت في نفس الشهيد الشاعر عمر حمد.

يرجع أصله إلى جده حمد المصري الذي هاجر إلى لبنان في عهد الأمير الشهابي وسكن بيروت.

ولد عمر في مدينة بيروت عام ١٨٩٣م، وختم القرآن قراءةً وتجويداً وهو في الثامنة من عمره، في هذه الفترة توفي والده وهو لا يتجاوز التاسعة من عمره، فتجرع الحرمان واليتم مبكراً، وعاش على حرارة الذكرى وألم الواقع القاسي، مما دفعه إلى ترك الدارسة والعمل مبكراً في الأسواق بالأشغال الحر لمدة أربع سنوات، يكد ويتعب من أجل إعالة والدته وأخوته.

وكانت وفاة الوالد صدمة كبيرة على الفتى، الذي واجه مسؤوليات وأعباء الحياة وهو في هذه السن المبكرة من عمه. – لقد جعلته هذه الظروف يواجه الحياة وجهاً لوجه في أصعب تجاربها العملية وما يكتنفها من مرارة وعذاب. "إن جوهر شخصيته أخلاقياً أنه كن وأخلاقه، مزوداً بحماسة عميقة نحو "فكرة الواجب أو المسؤولية، فقد نضج الواجب عنده قبل أن ينضج نحو أسرته، ونوه أصدقائه ونحو أمته.

وشخصية عمر حمد تذكرنا "بطبيعة فنان عالمي هو أنطوان تشيكوف بالرغم من اختلاف البيئة والظروف والمشاكل ووسائل التعبير عند كل فنان. لقد كان تشيكوف مثلاً أعلى في شدة الحساسية نحو فكرة الواجب، كان يحمل مسؤولية أسرته الفقيرة، بالرغم من أنه ليس أكبر الأبناء وكان يحمل هذه المسؤولية بالقوة

نفسها التي يحمل بها أحد القديسين فكرة من الأفكار. يقوم بها، ويتحمل في سبيلها العذاب، وكأنه سعيد بهذا العذاب، منتظر له انتظار العاشق لقاء حبيبته.. وكان تشيكوف يقدس فكرة الواجب نحو عمله كطبيب، وكثيراً ما كان يعالج فقراء قريته مجاناً ويسهر عليهم ليساعدهم ويعطيهم الدواء والحياة، وهو نفسه مريض يحتاج إلى العون والمساعدة".

وحتى عندما انتسب عمر إلى "الجمعية العربية الفتاة" نجده يتحمل تبعات مسؤولية التنظيم بكل أبعاده ونتائجه الشخصية، وأحدثت تغيرات كبيرة في حياته الذاتية، وهذا هو الموقف الذي يضع الفنان الموهوب في المكان نفسه الذي تضع فيه الإنسانية كل أصحاب الرسالات، وهؤلاء الذين أذابوا حياتهم من أجل فكرة أو مبدأ يتصلان بالآخرين قبل أن يتصلا بالمصلحة الذاتية والوجود الخاص، ووصلت الأمور عنده إلى حد التضحية بنفسه، لأنه يؤمن إيماناً مطلقاً في ما يقول ويعمل ويعتقد، نشر في عدد المفيد (١٠٨٢) قصيدة وطنية حماسية، وعلى أثرها أوقفت صحيفة المفيد واستدعي هو وفؤاد حنتس إلى الديوان العرفي فاستجوبا وأطلق سراحهما وعطلت المفيد.

وكان له صلة حسنة مع المدرسين في مدرسة الكلية الإسلامية، فأدخلوه في هذه الكلية لما يتمتع به من ذكاء ونجابة، فتلقّى دراسته متفوقاً في جميع المواد، ولما أكمل دراسته الثانوية تمسكت به الكلية مدرساً لمبادئ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي لمرحلة الإعدادية، إلى جانب اشتغاله في تحرير بعض الصحف.

انتسب إلى (العربية الفتاة) وكان من الأعضاء المؤسسين والداعين لها بكل حماس وصدق، مقتنعاً بمبادئها وأهدافها ومُثلها، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى جند في الجيش ضابط احتياط، وقضى ثلاثة أشهر، وبدأ جمال باشا السفاح في إعداماته خاصة بعدما "أمن الاتحاديون جانب العرب بعد التدابير التي اتخذا السفاح فصبّ عليهم جام غضبه – وساقوا قادة الرأي وزعماء الإصلاح إلى المشنقة زرافات ووحدانا، ونفوا النساء.

وصدر الحكم عليه بالإعدام باتهامه بعد الإثبات عليه بالوثائق أنه من ضمن اللامركزية وكما أنشد في أحد مسارح التمثيل قصائد تفرق بين العرب والترك، وكمان قد فرّ مع عبد الغني العريسي ورفاقه إلى البادية، وكانوا معه في تحركاته القائم بها عند العرب. وفي صبيحة السادس من أيار من عام ١٩١٦ خرج مع رفيقه العريسي والأمير عارف الشهابي وأخذوا ينشدون بصوت عال النشيد الذي مطلعه:

نحـــــن أبنـــــاء الألى　　　شـــادوا مجـــد وعـــلا
نـــسل قحطـــان الأبـــى　　　جـــد كـــل العـــرب

وكان صوت عمر حمد الجهوري يرن بنبراته الشديدة في ذلك السكون المظلم فتردد صداه جدران منازل بيوت، بل كان الكون يردد معهم هذا النشيد، وكتب عمر حمد على الطاولة قبل خروجه من دائرة الشرطة بيتين من الشعر:

خطوا على متن قبري يا بني وطني　　　بيتا تردده على فم الحقب
هذا ضريح أصيل في عروبته　　　قضى شهيدا لتحيا أمة العرب

وأخذ يردد هذين البيتين وهو صاعد إلى المشنقة، ولما وقف على منصة الإعدام خاطب رضا باشا ومدير الشرطة اللغة الفرنسية وبما معناه، أني أكلمكما باللغة الفرنسي لأنكما لا تفهما العربية، فبلغا حكومتكما الظالمة أن هذا العمل الذي تعملان سيكون سبباً في خرابها وتقويض أساساتها.

ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة العربية – إني أموت غير خائف ولا وجل، أموت فداء الأمة العربية، فليسقط الأتراك الخونة وليحيَى العرب، ولما نطق كلمة "فليسقط بالأتراك الخونة" عذب ولم يتمكن الحبل من عنقه فهوى إلى الأرض وهو ما بين حي ميت، فما كان من لؤم ذلك المجرم إلا أن وخزه بسيفه شاتما لاعنا، ثم حمله مع رفيقيه وقد نسوا أن العنف والظلم والإرهاب لا يمكن أن تخنقَ صوت الحرية في النفوس، وأن العذاب والاضطهاد لا يفعلان لدى أقوياء النفوس إلا تأجيج الكفاح في نفوسهم من أجل الكرامة والعزة.

عمر حمد الشاعر الموهوب

تفجرت شاعريته مبكراً خاصة أنه "درس اللغة العربية على أعلامها، وقرا أمهات الكتب حفظ عشرات الدواوين قديمها وحديثها وامتلك ناصية القوافي فأخذ ينظم الشعر، وان ما يلقيه في الكلية الإسلامية من قصائد وطنية يتغنى فيها بمجد العروبة الغابر، ويندب سوء حالها الحاضر، مستحثاً العزائم مستفزاً الهمم، أبلغ الأثر في النفوس، فكانت الأعناق تتطاول لرؤية ذلك الفتى الأسمر الفارع القامة، الجهوري الصوت وهو على منبر الخطاب، فترمقه الأبصار، ويتحدث عن نبوغه وهو في فجر شبابه، وقد ترك خلفه قصائد جمعت بديوان من مائة صفحة، ولو امتد أجله لبرز في ميدان الشعر والأدب والخطاب، ولكن قضت إرادة الله أن يذوي غضنه الرطيب، وهو في عمر الورود، كالنحلة التي تأتي بالشهد المصفى ثم لا تلبث أن تموت".

طرق عمر حمد معظم الأبواب الشعرية من مديح وغزل ورثاء ووصف وإخوانيات، أما الهم الوطني فهو يتداخل ويتمازج بين موضوعات شعرهن وقد نحا عمر في شعره منحى قومياً وإسلامياً واضحاً سواء من حيث الرؤية أو اللغة أو الصورة، وكمل ذلك كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالهموم والواقع الذي كانت تعيشه الأمة العربية.

قصائده ذات نكهة واقعية وحرارة، من ثورة ورفض وتمرد وإدانة للواقع المتكين، ويتلقى عمر حمد مع جورج لوكاتش في هذه القضية "ينزع الفن الصحيح إلى احتضان الواقع في كل توسطاته وعلاقته، ويحاول أن يطرها على الحياة المعقدة، ومن أجل ذلك يذهب بعيداً على جوهر الواقع كي يكشف في أعماقه عن القوى المحتجبة الكامنة خلف الظواهر". فهو ثائر على الواقع المر والمجهض، وثورته مشروعة، لأنها في سبيل العدل والجمال والحرية والحق والكرامة، رافض سلطة الأقوياء فالظلم والخوف والفقر والاستبداد هو الذي كان سائداً آنذاك فجاء شعره معبراً عن هذه القضايا، وكان يحلم أن يسود الحلم والشعر والعدالة الحرية وطنه،

فعندئذ تكون الأرض معطلة بكل ما فيها من جمال وروعة.

فلا نعثر له على قصيدة، إلا ويتحدث فيها عن أمجاد العرب في الماضين ويروي صديقه عمر فاخوري أمنيته في عالم الشعر يقول "أعدت ذات يوم ذكرى ذلك العهد البعيد القريب، ذكرى الصبي، فقلت أن أحد أصدقائنا، لما سئل ماذا يطمح أن يكن في المستقبل؟

– أجاب: الخليفة! وكان عمر حمد يرجو أن يكون شاعر الخليفة.م أما "الخليفة" فقد استيقظ منم حلمه كما استيقظ من مثله أحد أبطال "ألف ليلة وليلة.. وأما شاعر الخليفة فقد نام رحمه الله نومة لا تؤنس وحشتها طيوف الأحلام".

ونختار من شعره قصيدتين الأولى "الشرق والشرقيون "ألقاها في الكلية الإسلامية، المدرسة التي قضى فيها سنين صباه الجملية فقبلته طالباً مجتهداً ومعلماً متميزاً في عطائه وإخلاصه وحبه وعشقه للعربية وللعرب.

والثانية "المحيي المميت" وهي قصيدة وجدانية تكشف لنا عن أحاسيسه العميقة فيها يتأثر ويحس.

الشرق والشرقيون

ألقاها في الحفلة السنوية للكلية الإسلامية، وفيها يقول:

رددي الشدو يا حمام وعودي ... وتغني بالنشيد بعد النشيد
ما الغواني إذا شدون يهيّجنَ ... فؤادي كذلك التغريد
ما بضرب الأوتار هام فؤادي ... لا وربي ولا برنات عود
بل غناء الحمام يطرب لي ... (ويشق القلوب قبل الجلود)
إيه يا طير أنت مثلي تشدو الشـ ... ـعر عفواً أبدع به من قصيد
فأعرني قصيدك اليوم يا طير ... ورحب بهؤلاء الوفود
وفهم حقهم من الحمد والشـ ... ـكر بشعر مثل اللآلي – نضيد

مـا وفـود الأعـراب في دار كـسرىٰ | بـين إيوانـه وظـل البنـودِ
لا ولا وفـد آل شـيبان في | دار (ابن ماء السماء) غـوث الطريـد
مثـل وفـد أتـى انعطافـاً علـى الـ | ـعلم فيـا مرحبـاً بوفـد حميـد
مرحبـاً مرحبـاً أولـي الفـضل والنـ | ـبل ومرحـى لـنا القـدوم الـسعيد
زرئـم معهـدا تغنّـى بـه الحـادي | وراء الظعـين خـير نـشيد
معهـداً هـذب النفـوس وأضـحى | مـأملاً يرتجـى لفـكّ القيـود

* * * * *

يـا بـني الـشرق هـل مجيـبٌ نـدائي | يـثلج القلـب بعـد حـر الوقـود
نهـض الغـرب للعـلاء وثمـتم | وفخـرتم بأسـرةٍ وجـدود
فـسلام يـا شـرق يـوم تجـاري | صـنوكَ الغـربَ بـالعلى والـصعود
وسـلام علـى بنيـك إذا مـا | وثبـوا للعـلاء وثـبَ الأسـودِ
وإذا اخـترتَ أن تظـلَ ذلـيلاً | يـا سمـاء اهبطـي ويـا أرض ميـدي

* * * * *

ودعيني من الصهباء ومن حبب الخمرِ | ولا تحـرميني نلـثم خـديكِ والثغـر
فـإني فتـىً عـاف المدامـة إذ رأى | عيونك قد أضحت لها نـشوة الـسكر
كفـاني مـن الثغـر البَـرود مدامـة | وحسبي ما آلاقه في الطرف من سحر

وتكشف الأبيات الثلاثة الأخيرة عن عاطفته المشبوبة نحو الغيد، تلك العاطفة المتأججة التي ألبسها ثوباً شفيفاً من الألفاظ المنمقة الرقيقة فزادت حسنها تألقاً وجمالاً وروعةً، فشعره صورة صادقة لشخصيته ومرآة نفسه، وأجمل ما في الشعر الصدق، وليس في شعره أي نزعة فلسفية ولا نفسية معمقة وإنما هو صاحب نزعة شعرية شعورية صافية تنبع من القلب إلى القلب.

المحيي المميت

يـــا ظـــبي قـــم وانـــشر لـــواك　　فأنـــــا المجاهـــــد في هـــــواك

دنـــف الفـــؤاد معـــذب　　ســـفكت دمـــاه مقلتـــاك

هـــو قـــد تطـــامن للغـــرام　　وأنـــت قـــد جـــزت الـــسماك

لا ذنـــب لـــي إلا الغـــرام　　ومـــا عبـــدت بـــه ســـواك

يـا قلـب أنـت قـد اصـطفيت هـو　　ى الحبيـــب ومـــا اصـــطفاك

كـــم فـــرَّ عـــن إذا دعـــوت　　وجئـــت طوعـــاً إذ دعـــاك

يـــا ظـــبي حـــسبك ذا الـــدلال　　فخلِّـــه وارحـــم فتـــاك

وامـــتن عليـــه باجتمـــاع　　في حمـــاه أو حمـــاك

واعطـــف عليـــه فإنـــه　　ملقـــىً ولـــيس بـــه حـــراك

عـــاف الحيـــاة ومـــا بهـــا　　ومـــضى قتـــيلاً في هـــواك

فانـدبـــه فهـــو حـــري أن　　يبكـــي عليـــه أصـــغراك

أمـــرر عليـــه يـــديك تحيـــي　　مـــن طوتـــه مقلتـــاك

عبد الغني العريسي

علم من أعلام اليقظة العربية الحديثة، ونابغ من نوابغها، وركن من أركانها. إن قصة حياته صفحة رائعة من صفحات النضال العربي الحديث، ويعدّ بحد نموذجاً صادقاً لذلك الجيل من رجالات الحركة القومية العربية الحديثة، الذين حملوا عبء القضية العربية وهموم أمتهم المصيرية، ورفعوا راية الجهاد، ورسالة النضال، وتحرير الأمة العربية من كل استعباد وظلم وتخليدها على خارطة الدنيا ودفع عوادي السياسة عنها.

تعرض للشنق في سبيل عزة ورفعة شأنها بين الأمم. ذلك هو الشهيد المناضل عبد الغني العريسي "مفكر الحركة العربية وكاتبها ونابغتها".

والده محمد بن عبد الرحمن العريسي، ويرجع أصل العائلة من منطقة الزاوية في ليبيا، إلا أن جد العائلة هاجر إلى أرض الكنانة ثم إلى بيروت، عمل في تجارة الخضراوات واستيرادها من الأقطار العربية المجاورة.

ولد عبد الغني العريسي في أواخر الزمن الذي نصفه بأنه رديء، ولد في بيروت وبالتحديد سنة ١٨٩٠.

تلقى دراسته الأولى في بيروت في الكلية الإسلامية التي كان لها مدور كبير في تنمية الوعي العربي وبث الروح الإسلامية في نوق الدارسين فيها.

وكان العريسي من المبرزين بين أقرانه، والأول في صفه، اشترك وهو في المدرسة مع صديقه فؤاد حنتش في إنشاء مجلة مدرسي باسم "المفيد" كانت مقتصرة على الشؤون المدرسية والمواضيع الاجتماعية والثقافية.

عمل مدرساً في تلك الدستور، ولما أعلن الدستور العثماني ترك التدريس ولحقه

فؤاد حتس صديق صباه، فاتفقا مع حسن أفندي بيهم – أحد وجهاء بيروت وأدبائها – وأصدرا صحيفة " المفيد " فكانت غزيرة المادة، طلية المواضيع، تتجلى بين سطورها روح الفتوة والشباب، واستطاعت منذ صدورها أن تستقطب أقلام سطورها روح الفتوة والشباب، واستطاعت منذ صدورها أن تستقطب أقلام الشعراء، والأدباء، والكتاب، وتبارى من خلالها القرائح والأقلام. كما طرق فيها مواضيع لم تكن مألوفة – آنذاك – مثل: العلاقة بين العرب والأتراك، واللغة العربية وما هي عليه من سوء الحال والامتهان، وانحطاط المعارف في البلاد العربية فكان أول من جاهر بطلب إنصاف العرب من الأتراك، فتردّد القوم، وأجفلوا عند سماعهم هذه المقالات الجريئة غير المألوفة – شأن كل دعوى تأتي بالجديد – لم يمض إلى القليل حتى ألفت آذان القوم سماع هذه المواضيع، والتفوا حول صاحبها، وكان ذلك من أسباب انتشارها في البلاد العربية عامة، حتى بلغ ما يطبع منها يومياً خمسة آلاف نسخة – وهو عدد لم تصل إليه جريدة يومية في بلاد الشام – وكانت آنذاك أول جريدة عربية قامت بنشر الأناشيد والأغاني العربية القومية التي ترمي إلى غرس روح القومية العربية في نفوس الشعب، ولا نبالغ القول إذا قلنا أنها أول صحيفة عربية أيقظت روح اليقظة العربية في النفوس، وعلمتهم كيف يتحرّرون من عقدة الخوف لا شك في أن روح العريسي الكبيرة والمندفعة، وشخصيته الوطنية، والقومي وتكوينه الفكري ونضجه المبكر، ووعيه السياسي كان لها أثر كبير في تلك الصحيفة وفي مسيرتها الأولى.

تنبهت الدولة إلى أنّ هذه الجريدة تنذر بالخطر فحاكمت صاحبها بدعوى "أنه تخدش الأذهان" وعطلتها فصدرت باسم "صدى المفيد".

في عام ١٩١٢ سافر إلى باريس طلباً للعلم، وقد أقيم له حفل كبير في دمشق، وآخر في بيروت بمناسبة سفره، مما يدل دلالة واضحة على المكانة المرموقة التي احتلها والشهرة الواسعة التي اكتسبها في نفوس الناس، وإعجابهم بما ينشر من آراء وأفكار ومواضيع. درس في باريس الصحافة والعلوم السياسة، وحصل على الدبلوم في ذلك التخصص عام ١٩١٣، وكانت الجريدة تصدر في بيروت بإدارة فؤاد حتس، وكان يبعث بمقالاته من باريس، وقد صدر بحقها عدة أحكام جائرة تارة بالغرامة وطوراً

بالتعطيل فصدرت باسم "لسان العرب" و "الفتى العربي" ثم عادت باسمها القديم. كل ذلك كان يجري والعريسي في باريس. وفي أثناء وجوده هناك كان الحرب البلقانية في طورها الأخير، وهبّ العرب يطالبون بالإصلاح خوفاً على بلادهم من الأجانب، حتى لا يحل بها ما حل بطرابلس الغرب وبرقة ومقدونيا وولاية جزر بحر إيجة. وفي هذه الفترة توفي فؤاد حتس وقلت المقيد من بيروت إلى دمشق ودخل عارف الشهاب شريكاً فيها.

أبصر العريسي في أثناء دراسته في باريس ما يدور حوله من مبادئ ومفاهيم جديدة: كالحرية، الديمقراطية، والعدل، والدستور، والوطن، والوطنية، والقومية، والأمة. – وشغل ذهنه – طوال الفترة التي قضاها في باريس أمران هما : إصلاح الدولة العثمانية، وعلاقة الدولة العثمانية بالعرب، وجاءت مقالاته من باريس تحمل روح التجديد والحث على الإصلاح، وأن تواكب الدولة التقدم، والتطور العلمي الذي تعيشه أوروبا.

اتصاله بالحركة العربية

اندفع العريسي منذ أيام الشباب إلى المعترك القومي عن إيمان ومبدأ واقتناع برسالة أمته العظيمة، وكان في الصفوف الأمامية من قضايا أمته المصيرية. انتسب إلى حلقة دمشق الصغرى سنة ١٩٠٣ وعندما سافر عدد من أعضاء الجمعية إلى بيروت، واتصلوا بزملائهم في الكلية الأميركية، وكلية الشيخ عباس الأزهري، وانضمّ العريسي إلى عضويتها، والهدف من هذه الحلقة التي قام على إنشائها بعض طلاب الفصول النهائية في المدرسة الثانوي بدمشق المعروفة "بمكتب عنبر"، وكان هؤلاء الطلاب يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري لحضور الاجتماعات والندوات، فاتفقوا فيما بينهم على تأسيس حلقة ثقافية سرية سياسية في دمشق. وكانت لغة التعليم في مدرسة عنبر التركي لا العربية. في هذه الأجواء تحدد هدف الحلقة، وهو تعريف شباب العربي المثقف بعروبتهم ودعوتهم إلى التعاون في إصلاح

المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على إصلاح المجتمع العربي من جبال طوروس إلى باب المندب، فأسسوا غرفاً للمطالعة وساهموا في التعليم في المدارس الأهلية بالمجان، وتحولت حلقة دمشق إلى جمعية سياسية قومية هي جمعية النهضة العربية وخاصة عندما انضم إليها نخبة مميزة من شباب العروبة.

وفي سنة ١٩١١ (١٣٣٠هـ) التقى في باريس عدداً من المتنورين العرب وخريجي الجامعات وطلابها، وأسسوا أعظم جمعية وطنية سرية عربي وهي جمعية العربية الفتاة السرية، وكن في مقدمتهم العريسي، ليصبح فيما بعد قطب الجمعية ومفكرها، وعندما تسلّم أعضاء حزب الحري والائتلاف الحكم عام ١٩١٢م – أي مع بداية تأسيس الجمعية الإصلاحية فيها – أرسل العريسي إلى بيروت ليقوم بالتنسيق بين العربية الفتاة والجمعيات الإصلاحية ومكث حتى أوائل شهر تشرين الثاني من العام نفسه، ولعل أهم ما قام به العريسي في بيروت أنه ساهم وشارك مشاركة فعالة في تأسيس نادي الحرية والائتلاف، وإنه نسّب شريكه في جريد المفيد فؤاد حنتس إلى جمعية العربية الفتاة. في هذه الفترة تجلت قدرته الفائقة على إقناع أعضاء الجمعيات الإصلاحية العلنية، وخاصة أن حزب اللامركزية كان قد تشكل في هذه الفترة وبالتحديد عام ١٩١٢، وبدأ العريسي اتصاله بالجمعيات الإصلاحية، ومن مظاهر التكتيك الحزبي المنظم لجمعية العربية الفتاة، علمها من خلال الحزب والجمعيات العلنية ولتحافظ على سمتها السرية، ولعل اختيار العريسي لهذه المهمة الكبيرة لم يكن عشوائياً، فهو ذو مواهب شخصية نادر، وعقلية فذة. كتب عبد الغني العريسي إلى محب الدين الخطيب يعلمه أن فرع العربية في بيروت يستحق الشكر على ما يبذل من المساعي في الحركة الإصلاحية الجديد، كما يطلب منه أن يقوم بطبع عدد من المنشورات تدور حول طلب الإصلاح وتأييده، ويؤكد ضرورة إرسال منشورات بيروت بسرعة، لأن التأخير لا يجوز مطلقاً، ولأن الحركة دائرة على طلب الإصلاح من الحكومة الحاضرة، كما طلب منه أيضاً تمزيق كل الرسائل المتبادلة التي لها أية صلة بنشاطات الجمعية؛ لأنه قد "يحدث في الدقائق من الذهول ما لا يخطر

على بال أحد" . انتسب في هذه الفترة إلى حزب اللامركزية خاصة بعد أن وجهت العربية الفتاة عدداً من أعضائها للانتساب إلى هذا الحزب، من أجل توسيع نشاطها استقطاب الذين يتوسم الخير فيهم، من المتحمسين للعروبة بلك صدق واقتناع، وتجلى هذا الصدق في صورته الحقيقية عندما بطش السفاح بهؤلاء الرموز، فلم يبح أحد من أولئك الذين حكم عليهم بإعدامن بسرّ جمعية العربية الفتاة، وهذه دلالة واضحة على صدق الإيمان، واقتناع بالمبادئ التي حملوها. وقد حوكم جل المعتقلين بتهمة الانتساب إلى حزب اللامركزية. وعندما أيقنت العربية الفتاة أن جماع الاتحاد والترقي مصممون على عدم تحقيق الإصلاحات في البلاد العربية، دعت الجمعية إلى العلم الجبهوري أو الجماعي، وذلك بدعوتها إلى عقد مؤتمر العربي في باريس من قبل أعضاء الهيئة الإدارية لجمعية العربي الفتاة في باريس وعلى رأسهم عبد الغني العريسي، الذي كان يدرس الصحافة والعلوم السياسية هناك كمال ذكرنا.

وقد كلفت اللجنة المركزي للجمعية عبد الغني العريسي الاتصال بالأحزاب والهيئات والجمعيات لتشترك في هذا المؤتمر.

اندفع العريسي للاتصال مع ممثلي هذه التيارات، وأول اتصال كان له مع حزب اللامركزية في مثر مع محب الدين الخطيب الذي نسّبه سابقاً لجمعية العربية الفتاة؛ وقد أرسل العريسي رسالة إلى الخطيب يخبره فيها "إنا قدرنا أن نلتحق بكم – كما سيرد صورة للالتحاق إلى حزب اللامركزية في مصر – لنكون يداً واحدة في العمل" ثم ركز على القضايا التالية " قلت لك إن جمعيتنا هي القائمة بالمؤتمر دون أن يدرك أحد من أعضاء المؤتمر، وإننا نقرر ونسير المؤتمر حسب ما نقر في جلساتنا" وقد قررنا قبل أن يحرر كتابك بلزوم دعوة الحزب إلى إيفاد أحد أعضائه لتسند الرئاسة لمن توفدونه" ويقترح الأسماء التالية، فرجاؤنا أن تشجعوا ترشيح عبد الحميد أفندي الزهراوي في جلسات الحزب لرئاسة المؤتمر في باريس، وإن لم يكن في استطاعته المجيء... فعليكم بشفيق بك وآخر ينوب عن ولاية سورية كحقي بك...

ثم يذكر العريسي أسماء الأشخاص والوفود التي ستشارك في المؤتمر.. ومن الجدير بالذكر أن أعضاء اللجنة المركزية الجمعية العربية الفتاة وضعت (شيفرة) كي تستخدمها الجمعية في جميع مراسلاتها في أعضائها تحسباً لأي ضرر قد لحق بعض الأعضاء، قد كتب العريسي رمز الشيفره إلى محب الدين الخطيب وجاءت عل الشكل التالي:-

بزغ فجر وطنك

مت لعضد شخصي

أخي ثقة ظمذ

فالياء تقابل العدد الواحد وهكذا... كيفية الكتابة... (عبد) تكتب على النحو التالي ١٤،١،١٦ رفيق ٦،٤،٢٢،٢٤.

ويطلب العريسي من صديقه محب الدين الخطيب أن يكون على اتصال؛ تكاتباً تشاوراً واتصالاً مع مركز الجمعية في بيروت بواسطة هذه اللغة، وعندما عقد المؤتمر كان العريسي أحد الستة الذين وقعوا ذلك المنشورة، وخطب عند افتتاح المؤتمر خطبة بيّن فيها حقوق العرب ووجه الخلل في إدارة الدولة وطرح في خطبته التي تحمل عنوان (حقوق العرب في المملكة العثمانية) وطرح السؤال الكبير المستيقظ في ذاكرة كل عربي آنذاك: هل للعرب حق الجماعة؟ وقد وظف ثقافته الواسع في السياسة حول تعريف الجماعة فعند الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي العلماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادة، وعلى مذهب سياسة الفرنسيين وحدة المطمع السياسي. ثم يقول إذا نظرنا للعرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة المطمع السياسي، واستخلص من ذلك أن للعرب على رأي علماء السياسة دون استثناء حق جماعة، حق شعب، حق أمة. وشرح هذه الحقوق بالتفصيل وأشار إلى أن العثمانيين لم يفتحوا البلاد فتحاً، وليس لهم أن يعاملوا الأمة العربية معالة الغالب للمغلوب، وإنما قد تثبت قدم هذه الدولة في بلادنا بمساعدة سلفنا كما يعرف ذلك كل متعمق في التاريخ، ولهذا ينكر حق الفتح فإننا نحن

قاعدة هذه الدولة من قبل ومن بعد ولسنا أسرى مسخرين).

وختم خطبته قائلاً: (على هذه السبيل قد ربطنا قلوبنا وتعهدنا بالتبعية الشخصية والتضامن الاجتماعي أن تتخذ كل الوسائل تحقيقاً لهذه الحياة الشريفة، فالغاية في السياسة تشفع للوسيلة لا سيما إذا كانت الغايات شرفاً ونبلاً وغايات حق وعدل. ولعل العريسي الرجل الوحيد المثقف الذي استشهد بالنظريات السياسية الأوروبية التي كانت مطروحة منذ القرن التاسع عشر، فأكد عليها ليؤكد حق العرب كأمة وشعب، كما أكد أيضاً مبدأ النزوع القومي عند العرب، وركزي على الهوية العربية أمام النزوع الطوراني، كما فرق بين الوطني والقومية. وبعد الانتهاء من الخطبة وافق رئيس المؤتمر على ما جاء في خطبة عبد الغني العريسي وفتح بابن المناقشة والحوار، حول ما جاء في البيان الشامل، وغلى الرغم من أن القومية العربية قد بلغت عند العريسي درج كبيرة من النضج والتبلور في هذه المرحلة إلى أنه كان يطالب بالإصلاح عن طريق اللامركزية، والاعتراف الشرعي بحق العرب على مبدأ التساوي في الحقوق والواجبات دون الانفصال عن جسم الدولة.

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر وصله نعي صديقه رفيقه في الجهاد والنضال والعلم فؤاد حتس، فعاد مسرعاً إلى بيروت بعد أن عرج بطريقه على مصر، وواصل إصدار المفيد، وأخذ ينشر المقالات التي تحمل روح التجديد، وخاصة عن مشاهداته في بلاد العلم والحضارة باريس، فكانت جريدة المفيد من أشهر الجرائد العربية في الدولة العثمانية وأعلاها صوتاً وأتقنها كلمة، كما كانت المفيد ناطقة باسم جمعية العربية الفتاة.

وقد عطلتها الحكومة أكثر من مرة فصدرت باسم "فتى العرب" في أوائل سنة ١٩١٤ اغتنمت الحكومة فرصة تضعضع أحوال الجريدة مالياً من جراء توالي دفع الغرامات الباهظة، وعرضت على العريسي مساعدة مالية ومرتباً شهريا للجريدة بشرط تعديل سياستها فرفض ذلك بكل أنفه وشمم. ساء الحكومة المركزية فشلها الذريع في استمالته بالمال فاستدعته إلى الأستانة فسافر إلى هناك، واجتمع بطلعت

بك وكبار الاتحاديين فحالوا خداعة واستمالته مرة أخرى ولكن دون جدوى. ومن مواقفه المشهورة التي تدل على كبريائه القومي أن (ميشال بك سرسق) – مبعوث بيروت – قابل السلطان وعرض عليه (إخلاصنا نحن السوريين وعبوديتنا)!!

فأغضبت صاحب المفيد هذه اللمة "عبوديتنا" فنشر برقية المبعوث معنوية بكلمة "عبوديتنا" بحرق كبيرة علق عليها بما خلاصته: نحن لسنا عبيدا فالعبد يقرع بالعصا ما نحن إلا شركاء في هذا الملك، وحبذا لو أن مبعوثنا الفاضل أقلع عن مثل هذه الألفاظ وأكد لجلالة السلطان – مولانا شدة تعلقنا بسدّته الملوكية وإخلاصنا لعرشه المحبوب" فقامت عليه قيامة الحكومة فأقفلت الجريدة وحاكمته لكن المحكمة برأته.

ولما أعلنت الحرب الأولى عادت الجريدة إلى الظهور باسمها القديم: "المفيد". وقد عدل سياسة الجريدة منضما إلى الحكومة، شادا أزرها؛ بسبب دخول الدولة الحرب، معتقدا اعتقاد زملائه الشهداء بوجوب مناصرة الدولة ما دامت في حرب مع الأغيار، مرجأ الاختلافات السياسية إلى بعد الحرب، وقد أخلص لها إخلاصا دعا البعض إلى إساءة الظن به واتهامه بالتذبذب وموالاة الحكومة، ولكن هل للغدر منطق يركن إليه،؟ وهل للقانون عنده من حرمة؟ كل هذا الإخلاص والتفاني فيه لم يثمر عند جماعة الاتحاد والترقي.

إعدامه

وعندما قبض جمال باشا على البلاد بيد حديدية وبعث العيون في البلاد وغطاها بشبكة من الجواسيس، يتربصون بالمواطنين الدوائر وخاصة المتنورين منهم ويحصون عليه الكلمة والكلمة والحركة والسكنة، وإذا خذلتهم الحلية بجمع المعلومات اختلقوها من مخليتهم؛ في هذا الجو بدأت الاعتقالات تستهدف الشباب المثقفين الذين حملوا لواء العروبة والدعوة إلى الحرية وكرامة الإنسان العربي والتحرر من نير الاستعباد الظلم، تمكن العريسي من الفرار بعدما أدرك سوء نية جماعة الاتحاد

والترقي، ولكنهم قبضوا عليه لسوء الحظ بجوار مدائن صالح مع رفاقه: توفيق البساط، وعمر حمد وعارف الشهابي يقول فائز الخوري: وكان سجيناً ومتهماً مع أولئك الأحرار في ذكرياته: "نظرنا إليه كلنا فإذا هو عالي الجبهة يبتسم، إني رأيته في تلك اللحظة أشجع منه في كل المواقف، وكانت سنّةُ المنَعّسَةُ التي غشت عليه في مدائن صاح تلمع خلال ابتسامته، رأيته تشوبه شائبة الخوف ولا تدل أساريره وجهة إلى جبانة، فلبس ثيابه وهو يكلمنا ويلعن الأتراك وودعنا ونحن نذرف الدمع".

فطلب أن يخرج من الدائرة إلى الساحة مع عمر حمد، أن يعدم مع رفيقيه الأمير عارف الشهابي، فخرج الثلاثة ينشدون

نحـــــــن أبـــــــــاء الألى   ســـــــادوا مجـــــداً وعـــــلا

وحين وصل عبد الغني العريسي إلى ساحة الإعدام قال: الشيخ شهّد يا عبد الغني، فأجاب بثوت جهوري: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأشهد أن الخلافة للعرب إن شاء الله. وحين وضع حبل المشنقة على عنقه قال: "بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب، وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبناء الأتراك، إن الدول لا تبنى على غير الجماجم وإن جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلا بلادنا".

وجاء في كتاب إيضاحات "أن من الأسباب التي أدت إلى إعدام عبد الغني العريسي أنه كان ضمن الذين دخلوا في اللامركزية، وفي تشكيلاتها السرية وكان مأموراً لترتيب أمر القيام في سورية، وكان هو من العوامل لتهيئة الأفكار (المضرة) قبل المؤتمر وبعده. وكان يسعى بل قواه لضمان استقلال العرب. وكما أنه حرض العرب للقيام (أي بالانتفاضة والثورة على الدولة)" وهذا الكلام يتنافى مع الواقع، إن هذه الحجج لا تصدم أمام النقاش لأكثر من سبب، أولاً أنه لم يفض أحد من الذين حكم عليهم بالإعدام بسرّ التنظيمات العربية السرية، وقد حوكم جل المعتقلين بتهمة الانتساب إلى حزب اللامركزية، مع أن هذا الحزب ليس حزباً سرياً،

وإنما هو معروف للسلطة حزباً علنياً غايته أن يكون نظام الحكم في الدولة العثمانية لا مركزياً في الإدارة، ومن أهدافه الإصلاح وإنصاف الشعب العربي في نطاق الدولة العثمانية. وتعزيز اللغة العربية، وأن تكون هذه اللغة معتبرة في مجلس النواب العثماني.

والسؤال الذي يستيقظ في هذا الباب هل اعتراف العريسي في سجنه كما ادعت بعض الوثائق الفرنسية، وكما جاء في كتاب إيضاحات الذي نشره جمال باشا السفاح، الذي يوهم فيه أن العريسي قد أفضى بمعلومات خطرة وكبيرة، وقد استشهد بفقرات مطولة من اعترافاته. هذه المسألة بحاجة إلى شيء من التوضيح، فكما ذكرنا، إن جميع المحكومين بالإعدام قد حوكموا بتهمة الانتساب إلى حزب اللامركزية العلني وهذا معروف لدى الدولة.

ثانياً: حكم عليه بالإعدام غيابياً قبل أن يلقي القبض عليه، فلذلك كتب وصيته الأخيرة، فهو عارف، لا محالة أنه سيعدم كما جاء في وصيته. فمن غير المعقول أن يكشف أسرار التنظيم الذي ينتسب إليه.

ثالثاً: يعدّ العريسي مفكر الحركة العربية وكاتبها ونابغتها، فلا يعقل إن سئل عن بعض الحقائق العلنة المعروفة لا يجيب عنها ويجيب عن أهداف اليقظة العربية ونشاطاتها العلنية، وبعض الأسماء المعروفة في نشاطها وتحركاتها، ولعل الرسالة الشفوية التي بعثها عارف الشهابي إلى أخيه مصطفى تنفي هذه الاتهامات، وبأن عبد الغني لم يذكر في أجوبته اسم رجل واحد من الإخوان الوطنيين، وبأنه كان يضلل المحققين بذكر أسماء ناس من الخائنين المعروفين... أو ممن لا يمكن ان يدانوا بتهمة سياسي، أو أشخاص يعيشون خارج أرض الدولة.. ويضيف مصطفى الشهابي على ذلك قائلاً: "ولقد أثبت الحوادث بعدئذ صدق ما حرص عارف الشهابي على إنبائي به في أفظع أيام المحنة. وظل الترك جاهلين وجود الجمعية (أي العربية الفتاة) كل الجهل. ولو لا ذلك ما فاتهم أن يفتكا بكثير من أعضائها البارزين، ولا سيما الذين كانوا معتقلين، منهم الرئيس شكري القوتلي، ومعين الماضي، ويوسف سليمان حيدر وإبراهيم هاشم، ورشدي الشوا وغيرهم.

إن كتاب (إيضاحات) بحاجة إلى دارسة وتمحيص، لأن محرري الكتاب كانوا من زبانية النظام، فهم يثبتون ما يتفق مع أهوائهم وتضليلهم من حقائق ومعلومات، ويستبعدون كل ما لا يتفق مع افتراءاتهم، فقد تم تنفيذ حكم الإعدام بحق العريسي بسرعة مذهلة، وبمحاكمة صورية هو ورفاقه استناداً إلى وثائق مزورة لم تثبت صحتها حتى الآن، فالكتاب يستشهد بما يسمى اعترافات العريسي، وينسب إليه أقوالا لا تقنع ولا تستقيم مع ما عرف عنه من شجاعه وثبات وصمود في سبيل الفكرة التي يحملها، فحتى اللحظة الأخيرة من حياته كان عالي الجبهة يبتسم بسمة المؤمن في وجه الردى.

وما أجمل ما عبر عن هذه اللحظات الأخيرة من حياة الشهيد محمد الشريقي الذي كان شاهداً على جرائم طغمة الاتحاديين، وهم يحاولون أن يطفئوا الشعلة القومية المتوقدة في نفس الشهيد:

أما شهدت شهيد العرب مبتسماً	يستقبل الموت بالترحاب عن كثب
إليك ما قاله عبدُ الغنيّ على	أرجوحة الموت ثبتاً غير مضطرب
على الجماجم تُبنى كل مملكة	فيا جماجمنا شيدي حمى العرب

اتجاهاته ومواقفه السياسية

عندما تحدثنا عن عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس ذكرنا أنه أكد مبدأ النزوع القومي عند العرب، وركز على الهوية العربية أمام النزوع الطوراني المتطرف، وكان متشبعاً بالروح القومية العربية، ومتشبعاً أيضاً بمبادئ حقوق الإنسان والمواطن الحر الطليق من أي استعباد أو ظلم، واطّلع في أثناء دراسته كيف أن الغرب يحترمون حرية الفكر، والقول، والمعتقد إلى أقصى الحدود. وكم تمنى أن يرى بلاده تعيش مثل هذه الأجواء في مجتمع حر طليق. إننا أمام مفكر قومي مستنير في وعيه وفكره بوجود الأمة العربية، ومن هذه القناعة دافع عن هذه المبدأ بكل ما أوتي من قوة، وتحققت لديه القناعة التامة بضرورة العمل الموحد لتحقيق هذا الهدف، وترجم هذه

الفكرة في الخطاب القومي الشامل الملتع في المؤتمر العربي في باريس وقد أشرنا إلى بعض ما جاء في هذا الخطاب عندما تحدثنا عن مؤتمر باريس، ويرى العريسي أن "أول حق للجماعة السياسية دون استثناء هو حق الجنسية" ويؤكد بكل ثقة"... إننا عرب قبل أي صفة سياسية، حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة، بالرغم مما كان يتابنا من حكومة الأستانة من أنواع الإدارات: كالامتصاص السياسي، أو التسخير الاستعماري أو الذوبان العنصري". وكان مسكونا بهذا المبدأ، فقلما تخلو (المفيد) أو (لسان العرب) أو (فتى العرب) من تعزيز هذا المبدأ وتتجلى نزعته الإنسانية في افتتاحية المفيد "إننا نحب قومنا أكثر من كل قوم، مع إرادة الخير لكل قوم، ونذود عن مصالح قومنا قبل كل قوم" ويؤكد على التناغم الجميل بين الأمة والوطن. "إن الوطن مقدس والأمة معنى جليل، فلا تضربوا بها عرض الحائط" والعربي المنتمي لشواطئ هذه الأمة الماجدة هو "من وصلته رابطة من نسب" ووحدة من لغة، وكان تواقاً للعرب، نزاعا إليهم، يغار عليهم غيرة البطل النبيل. ويرى أن الجنسية تخدم الإنسان: "ولهذا جعلت هذه الجنسية أمما كثيرة نافعة للإنسانية كما أن الجنسية بحد ذاتها تيار جارف لا يقوى على مقاومته مقاوم، ولذلك ركز علة تعزيز الجنسية العربية في مواقع كثيرة في خُطبة أو مقالاته، أو افتتاحيته للمفيد "تتساءلون عن ماهية هذا الحق لجماعة الأمة العربية، فبياناً لهذا الحق أقولك إنّ أول حق لجماعة الشعوب : حق الجنسية" "وإحياء هذا الحس الشريف النبيل، حس الجنسية، فاقتفاء للماضي تقرر: مناهضة كل ما يؤول إلى إضعاف القومية، والتذرع بكل ما فيه حياة لخصائص العرب وميزات العرب". ففي كل موقف يعلن عن ثوابتنا القومية والثوابت السياسية فهو يرى "أن حركة الوحدة العربية جزء من حركات القوميات، ولا يراها منفصلة. إنها حركة تاريخية لا تقاوم"

ومن هذه الرؤى يرى "أن العواطف القومية روافد حيوية للشعوب، لا تستنزف إلا باستئصال الشعوب، فمن حك في صدره أن يسد في مجرى الأنهار خاب نوه وأخفق سعيه؛ لأن الروافد إذا سدت مسالكها تراكم ماؤها، ففاض على الجنبات، وأحدث ما ليس في الحسبان".

واللغة تستمد قوتها وعظمتها من أبنائها وقدرتهم على إضاءتها، والحفاظ عليها؛ ولذلك يرى أن اللغة ركيزة أساسية في تكوين الأمم والشعوب، وبهذا الصدد يقول: "حياة العرب بحياة لغتهم" فالأمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بلغتها" وحياة الأمم بحياة اللغات".

ولا يحيا وجدان الأمة، ولا تكتشف ذاتها وجوهرها إلا من خلال لغتها، حتى تستشرف حركتها في المد التاريخي، فهذا المدى الذي تعطره لغة العرب، علينا أن نعيد إشراقه اللغة العربية كما كانت في السابق يوم حملت هذه اللغة الرسالة للناس كافة، ومد ظلها وظلالها وعطرها وبحرها على الدنيا آنذاك. ولذلك كان العالم مسكونا بهذه اللغة، وحتى لا تصبح روح الأمة تراثا يقول في هذا الباب "إن الأمم لا تحيا حياة المتعة، ولا يمكن لها بين أخواتها، إلا إذا رزقها الله من يحتفظ بعراها الوثيقة، وأواصرها محكمة. وأشدها إحكاماً، وأوثقها رباطاً جامعة اللغة، فاللغة أداة لتقوّم العنصر، ووسيلة لجماع النهضة، فإذا اندرست اللغة اندرس العنصر وغفا القوم.."

ويصل عنفوانه الثوري، وروحه القومية المتدة وهو يعلن "أن العرب أمة حي، لا تقبل الاستعمار بأي وجه من الوجوه "وأن للعرب في الدولة العثمانية ما لغيرهم "بل ولزيادة" ولذلك يجب أن يشاطروا الناهضين بإدارة الأمة، "فنعمل على حفظ كياننا العنصري من الاندراس"، ويطالب من الدولة أن تتطهر من الأنانية وتمنح الصفة الإنسانية لرعاياها، وأن تمد أغصانها في الماء حتى تروي الجميع، كما ذكرنا سابقاً أن العريسي من وحدة العرب مع الترك مع بقايا عناصر الأمة الأخرى، حتى يتحقق العدل والمساواة بين جميع رعاياها ، ويطلب من الدولة أن تحمي ولا تؤذي، تصون ولا تهدر كرامة، تقوي ولا تضعف، توحد بين عناصرها ولا تفرق ولا تتعصب ولا تنحاز ولا تنحرف، تؤكد على العدل والحرية وكرامة الإنسان، وتوفر الأمن والرخاء لها ولجميع المنضوين تحت رايتها، ولذلك يقول: إذا اتحدت عناصر الأمة من عربي وتركي وأرمني وألباني، وكانت حصناً حصيناً، وحرزاً مكيناً، لا تتناولها يد سوء ولا يتطاول إليه قرح أذى".

هذه هي بعض ملامح ونقاء فكر العريسي وطهره الثوري ورؤيته السياسية ويجسم الباحث ناجي علوش الأفكار التي تتنازع فكر واتجاهات العريسي في أربعة تيارات متداخلة ومتعارضة هي:

١- الاتجاه القومي العربي.

٢- الاتجاه الإسلامي.

٣- الاتجاه العثماني.

٤- الفكر الأوروبي الحديث.

وقد يتساءل سائل ألا يوجد بين هذه التيارات التي تتنازع عبد الغني العريسي تناقض؟ بادئ الأمر قد يكون ذلك، لكن الباحث في هذه التيارات يراها تأتي منسجمة تماماً في ما كان يدع إليه، وكما ذكرنا فإن العريسي كان يعمل بكل ما أوتي من قوة من أجل تحقيق الوحدة العربية "وتعزيز الجنسية العربية" ويرى في الوقت نفسه أن تعزيز هذا الجانب لا يتناقض مع مصلح الأمة العربية"، لأن رفعة الأمة العربية يحقق هذه المصلحة" فلذلك يولي هذا الجانب أهمية كبيرة.م

ومن هذا المنطق يربط هذه العلاقة بالجامعة العثمانية بالاعتراف بالحقوق العربية " أما الاتجاه الثاني: الاتجاه الإسلامي، فإنه كان يؤمن أنه مسلم ملتزم بالإسلام دين الحرية والمساواة والعدل، ويدعو إلى رابطة وطنية بين جميع الملل والنحل "ينضم إليها المسلم والمسيحي واليهودي والائتلافي والاتحادي، بحيث أنه لا يكون أثر للخلاف في بلادنا، ويكشف عن الذين يزرعون الفتن بين الطوائف على اختلاف اتجاهاتها ومشاربها" السم بين الطوائف، لئلا تكون جامعة، فتقطعه أيدي المتغلبين" والذي يقرأ خطبته في مولد الرسول الكريم يراها تركز على هذه الناحية "لأن الأديان قد أنزلت لمصلحة البشر، فمن وقر في نفسه أن يتخذ الدين أداة لمآربه الشخصي ويذم الطوائف، فيطعن فيها، ويقذف بأهلها فقد جنى على نفسه وأمته".

والشهيد درس في فرنسا وأطلع على كل ما يدور من تقدم وتطور في المجتمع الغربي، ودرس فكر الثورة الفرنسية واتجاهاتها، وأعجب بما طرحته من أفكار ورؤى

وتبنى هذه الأفكار والاتجاهات، والذي يستقرئ كتاباته بعد عودته من فرنسا يرى أن التأثير واضح وخاصة في مفاهيم الأمة من حرية وعدل وإخاء ومساواة. ويرى الباحث ناجي علوش أن العريسي "شأن أديب إسحق لم يعكس أي اهتمام بالفكر الثوري والاشتراكي الفرنسي، ولا يبدو أنه عني به، ولذلك حين ترجم إلى العربية، ترجم لبول دومير ريس مجلس الأمة، ولغوستا لوبون، وهما محافظان" واستطاع العريسي في الوقت عينه، أن يكون قومياً عربياً، وهذا وجهه الرئيسي.

صفاته

كما ذكرنا؛ إن عبد الغني العريسي كان صورة نقية للعربي القومي المسلم الذي وهب حياته وكل ما يملك في سبيل فكره القومي، الذي نادى به في كل محفل وناد سراً وجهراً، ودافع عن مبادئه دون أن ينظر إلى المواقع من باب الربح والخسارة، وكانت محقة خطيبته عنبره سلام وهي تتذكر لقاءها معه أول مرة إذ تقول: "وهناك أصبحت أشم رائحة ثورة قادمة يهيأ لها جدياً في الخفاء..." وتتابع قولها: " وكان يردد: إنه لا بدّ من اقتحام الصعاب، ولا بد من الاستعداد للتضحيات لكي نصل إلى الأمل المنشود".

أما عن صورته وشخصيته فقد رسمت لنا خطيبته هذه الصورة بكل أمانة ودقة بقولها: "وقد رأيت عبد الغني، كما كنت أخيله وكما كنت أعرفه من ثوره، فهو في نحو الخامسة العشرين من عمره، جميل الثورة، مشرق الوجه، أميل إلى الطوال منه إلى القصر، متين البنية، أنيق في ملبسه دون ادعاء، متحمس لقوميته بتأن وروية، واثق من نفسه فيما يرويه من أحاديث، مهما تعددت المواضيع. وكان يرى أن كل صلاح لا يبنى على قوتنا فهو أبتر، وكل حق لا يوسد تنفيذه إلينا فهو هراء.

وسلام على العرب يوم لا يعتمدون في صلاح أمرهم إلا على أنفسهم، ولا يتخولون هذه القوة إلا بالتذكية والإنماء"

آثاره

ترك العريسي عدداً كبيراً من المقالات الفكرية والسياسية والتربوية تكشف لنا عن مدى ثقافته العميقة، وقوميته الصادقة، واتساع آفاقه الفكرية والسياسية والقومية، وإحساسه العميق بقضايا أمته المصيرية. وهذا المقالات تستحق الدراسة، والاستقراء، والتحليل، آخذين بالحسبان الفترة الزمنية التي صدرت فيها، وكانت الأمة العربية تعيد علاقتها مع التريك، وقادة الأمة ومفكروها يطرحون الأسئلة الصعبة: الحرية، والعدالة وكرامة الإنسان وبناء الدولة الجديدة، والعلاقة مع الغرب. إضافة إلى أنه ترجم ترجمات كانت في غاية الأهمية منها (ليو دومير وغوستاف لوبون، وترجم كتاب (البنين) تأليف دومير ونشره في المفيد على حلقات مسلسلة وبين السبب من ترجمة هذا الكتاب قائلاً: "التفت يمنه" فألفيت فتاتنا العربية، طيبة العرق، صافية النوء طاهرة القلب وضاحة الجبين، أطلب على بيتها وأشرفت على جماعتها، فطار قلبي عليها إشفاقاً من أن تفيض فيها فوضى الأخلاق، وتقسم أمشاجها منازع السياسة، وإذ سمعت صرخة "بول دومير" يبصر فتاته فاستعنت بحكمته، ونقلت نأمة صرخته إلى هذه النابتة العربية الناهضة، علها تتجافى عن مفاخر هذه البيئة، فتعمل على حياتها الطيبة حياة الرجولة واستقلال الفكر، واعتماد الذات وكبر النفس، فلا تغمض على قذى ولا تنام على أذى.

يقع الكتاب تحت العناوين التالية: حب الوطن، الواجبات الوطنية، المساواة في الحقوق، الواجب، الإقدام، السعي والعمل، العدل والإخاء، الحرية والتسامح، المحبة والوداد، الزواج. ويبدو لنا أن العريسي كان ينظم الشعر لأنه ترجم شعراً دون أن يفقد معانيه وروحه، وتتجلى نزعته الإسلامية عندما يتحدث المؤلف عن الكتب النفسية: "لو وقفت موقف المؤلف إزاء قومي لقلت: "عليكم بالقرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة، ومقدمة ابن خلدون والعقد الفريد، والأغاني والبيان والتبيين أشهر مشاهير الإسلام وأم القرى والتربية الاستقلالية، سر تقدم الإنجليز، وروح الاجتماع، وحضارة العرب، والتربية لسبنسر، وأصول النواميس والشرائع لبتام، وروح النواميس والشرائع لمونتسكيو، وتاريخ التمدن الإسلامي. وحري بالفتى الكريم أن يلتمس كل ما كتبه ابن رشد وابن حزم وابن تيمية والغزالي

وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب". وحين يقف عند أعلام عصره يذكر منهم "ولو خيرت لذكت من رجال هذا العصر، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، أحمد لطفي السيد، محمد رشيد رضا، رفيق العظم، عبد الحميد الزهروای، شبلي الشميل، جرجي زيدان، عبد الرحمن الكواكبي، يعقوب صروف".

والكتاب مُهدى " إلى رفيق بك العظم، أحد زعماء سورية".

الأمير عارف الشهابي

الأمير عارف الشهابي: الشاعر المبدع الكاتب الحر، والحقوقي المتميز والخطيب الفحل، خريج كلية الحقوق الملكية وأحد أصحاب صحيفة المفيد وعضو جمعية العربية الفتاة السرية.

ولد في حاجية (جنوب لبنان) ١٩٨٨، وتعلم في دمشق، وانتظم في حلقة دمشق الصغرى التي أسسه عدد من طلاب الفصول النهائية في المدرسة الثانوية في دمشق، والمعروفة بمدرسة عنبر، وهي المدرسة الثانوية الوحيدة في سوريان وهؤلاء الطلبة كانوا يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري (المعروفة بحلقة دمشق) لحضور الاجتماعات والدروس والندوات والأمسيات، فتم الاتفاق بينهم على إنشاء حلقة سرية سياسية في دمشق عام ١٩٠٣.

ويقول محب الدين الخطيب عن هذه الفترة: "كنا نتعلم في هذه المدرسة كل العلم باللغة التركية، حتى نحو اللغة العربية، وصرفها كنا نتعلمها من كتاب باللغة التركية اسمه (المثذب) كان مفروضا على مدارس الحكومة في الولايات العربية، وكان معلم العربية شيخاً تركياً أثقلت كاهله السنون لا يكاد يعرف النطق باللغة العربية" ومن هنا تحمس هؤلاء الطلبة في تأسيس هذه الحلقة؛ من أجل تنوير زملائهم بعروبتهم خوفاً من طمسها، وفي هذا الجو نشأ مؤسسو حلقة دمشق الصغرى، ومن هذا المناخ اتضح هد الحلقة وهو تعريف شباب العرب المثقف بعروبتهم، أسسوا غرفاً للمطالعة، وساهموا بالتعليم في المدارس الأهلية بالمجان، واقتصروا في دعتهم السرية على برنامج سياسي محدود، وهو: مطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام "لا مركزي" يضمن لعرب حقوقهم في الحكم، ويجعل لغتهم في الولايات العربية لغة رسمية في مدارس الحكومة، ودواوينها، ومحاكمها. وعندما

انتقل الشهابي مع جدد من أعضائه للدراسة في إسطنبول تحولت هذه الحلقة إلى جمعية سياسية قومية، وهي جمعية النهضة العربية، وانضم إليها عدد من شبان العرب ومنهم عارف الشهابي، وقد أشار الدكتور صلاح الدين القاسمي في خطاب ألقاه في دمشق في مطلع سنة (١٩١٠) (١٣٢٨هـ) إلى هذه الجمعية أنه كان قد أسها محب الدين الخطيب وفريق من إخوانه باسم "جمعية النهضة" في إسطنبول وأنشأ فروعا لها في دمشق، فتحدث عن ظروف تأسيسها وغاياتها وبعض أعمالها. ويبدو من هذا الحديث أنها الحلقة الصغيرة التي أشار إليها الأمير مصطفى الشهابي أو أنها امتداد لها، قد قال الدكتور القاسمي في خطابه: "... بدأت الجمعية بادئ ذي بدء صغيرة، متبعة ناموس النشوء العام في ارتقائها، فكانت ذرة حية فعالة، تسعى في أن تلف حولها أبناء الأمة العربية جمعاء، ولمن هذه الذرة كانت مهدها الأول محيط القسطنطينية، ومولدها ٧ ذي القعدة عام ١٣٢٤ (٢٣ كانون الأول ١٩٠٦) حيث ردّ الفعل يهيئ للإنسان أسباباً سريعة كبرى، لم يعرف لها أوّل وهلة معنى. كان لهؤلاء الشبان خطة قومية ضعوها بعد تفكر، وساروا ليها وتحملوا تبعتها بصبر وأناة. وكان الظاهر من خططهم مدارسة آداب اللغة العربية، وتاريخ الأمة العربية، وإلقاء محاضرات في هذه الموضوعات وتدريسها، وافتتاح مدارس وطنية وغير قراء، تلقين أسس القومية في المدارس الوطنية، لكن المتميز في أعمالهم إنما كان الدعوة إلى انتزاع حقوق العرب المهضومة من أيدي الترك الغاصبين، إما ضمن الجامعة العثمانية – وكان ذلك الأصلح في نظرهم – وإما بالانفصال عن الدولة لعثماني إذا لجأ العرب إلى الانفصال عنها".

ويقول الأمير مصطفى الشهابي (إن هذه الحلقة الصغيرة كانت متصلة بالأعضاء العرب من الحلقة الكبيرة الآنفة الذكر، كانت تستمد النصائح منهم لأنهم كانوا أكبر معنى وأكثر خبرة. ثم اتصل بعض أعضائها بشباب بيروت المتعلمين،كالشهيدين عبد الغني العريسي، ومحمد المحمصاني، وبعض تلامذة كلية الشيخ عباس الأزهري، والجامعة الأمريكية، وبالتلامذة العرب في إسطنبول)).

وشارك الأمير عارف الشهابي في تأسيس المنتدى الأدبي، وحصل من الأستانة

على شهادتي الحقوق والملكية، وعاد إلى سوريا فمارس بعض الأمور الكتابية والإدارية، منها مأمور معية في ولاية دمشق. وعندما رأى أمور التعليم متردية جدا وأن اللغة العربية بدأت تُمل في المدارس، حيث كانت لغة التعليم التركية لا العربية، تطوع للتدريس مجانا في المدرسة العثمانية، وفي المدرسة التي أسسها الشيخ كامل القصاب، وقد بث في نفوس تلاميذها لمبادئ القومية من خلال الشيخ كامل القصاب، وقد بث في نفوس تلاميذها المبادئ القومية من خلال التاريخ العربي وعظمائه ونوابغه، كما اتجه إلى فن التمثيل في المدرس من اجل تحريك العواطف الوطنية في نفوس الأهلين، وأن هذه الطريقة هي أقرب الطرق إلى تحريك الشعور الوطني في النفوس، فألف فرقة للتمثيل من بعض الشبان المتورين الذين يحملون التوجه ذاته، وأوقف ريع هذا المشروع المتطور آنذاك لإعانة الجمعيات الخيرية، وقام بإنشاء غرفة للقراءة المجانية، وكان عضوا عاملا، نشيطا في البعثات العلمية لإرسال الطلبة الأذكياء لتلقي العلم والمعرفة في أوروبا، من اجل إنهاض الوطن وتقدمه وهذه الجمعية هي التي أنشأها الدكتور عبد الرحمن بندر ورفاقه – وقد قامت هذه الجمعية بجهود عظيمة في سوريا من تأمين البعثات لهؤلاء الطلبة. وكان أعضاؤها حلقة وصل بن الوطن الأم ومطالبة العرب الذين يتلقون العلم في أوروبا وقد انتخب الشهاب كاتباً خاصاً لوالي بيروت أدهم بك في عهد الوزراء الائتلافية، فقام في أثناء عمله بخدمة عظيمة وكبيرة لبلادهم فاستطاع أن يقنع الوالي بعدالة مطالب البيروتيين الإصلاحية، والتي تتلخص في هدف واحد: هو تحقيق الإصلاح على أساس اللامركزية، وأن يتم تخفيض الخدمة إلى سنتين على أن تقضي الخدمة أيام السلم في الولاية، وان تكون العربية اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتكون لغة رسمية كاللغة التركية في مجلس الأعيان والنواب. وقد عرض على عارف قائممقامية أحد الأقضية الثانوية لما كان يتمتع به من سيرة حسنة ونشاط، وكان محبوباً من الأهلين، ولكنه رفض هذا المنصب؛ لإيمانه بأن خدمته لأمته وهو في مركز الولاية انفع لها من خدمته بعيدا عن العاصمة، وشاع ذلك الخبر في بيروت فزاد إعجاب البيروتيين وحبهم له، ثم صدر بعد وقت قليل مرسوم بتعيينه والياً لقائممقامية النبك من أعمال ولاية الشام. وعندما تولى هذه القائممقامية

وجد فيها كل شيء بحاجة إلى نظام وترتيب، وأعاد النظر في أكثر القضايا والأمور التي كانت مطروحة، فكان الأمن فيها مختلا والفوضى شائعة والنظام مختلا والمعارف اسم بلا مسمى، فأخذ يعيد الأمن إلى نصابه، فاستتبت الأمور وازدهرت المعارف، وانتظمت شؤون تلك الجهات.

وأكد أن التعليم هو أقل السبل لتحضير البدو، لأنه يؤدي لتأهيلهم إلى الإقبال على الزراعة مما يساعد على العمران، ففي تقرير رفعه لمجلس الولاية يؤكد هذا المبدأ ويطلب من المجلس كان يساعده في تنفيذه ومما جاء فيه: (تحضير البدو ينبغي أن يكون بقوة العلم والعمل، ويجب أن يكون للعرب الرحّل مدارس رحّالة لتثبّت روح العلم بينهم وتغرس حب الحضارة في نفوسهم، حتى إذا أنسوا بها.. حملناهم على التوطّن في تلك الأراضي الفسيحة، واستعاضوا عن بيوت الشعر ببيوت الحجر والطين، وعن السائمة بالفلح والزراعة، يجب استئصال جهل من نفوسهم، وهذا لا يتم إلا بالعلم والإرشاد. لذا فعليه يجب توفير المعدات المالية، فتبنى لهم البيوت وتجلب لهم الآلات لمعالجة الأرض، وتعليمهم الزراعة والفلاحة).

وفي عام ١٩١٤م قامت جمعية العربية الفتاة بتحرك واسع وسريع لمواجهة الموقف إذا ما دخلت الدولة الحرب، وتقرير ما ينبغي على العرب أن يعملوه في ضوء التطورات الأخيرة، فقد أخذت الجمعية زمام المبادرة بين جميع التنظيمات ((لأنها أكثر الجمعيات والأحزاب العربية قدرة وتنظيماً ووعياً)) والشهابي كان من أبرز أعضاء هذه الجمعية، فانتخب في مجلس الشورى الجديد، استعدادا لمواجهة المرحلة التي افتتحها إعلان الحرب، وبالرغم من أن الجمعية نادت بالحياد التمسك فقد بادرت إلى تأييد الدولة ضد أعدائها وتناست الصراعات الماضية والالتحام في المعركة القائمة. وكان الشهابي ينتقد الحكومة، وكف عن انتقادها وهبّ لنصرتها بقلمه جاعلاً المصلح العامة قبل كل شيء وفوق كل مصلحة، إيمانا منه أن الظروف تحتم عليه المساعدة ما دامت الدولة في حالة حرب.

وعندما سقطت الحكومة الائتلافية وشكل الاتحاديون الحكومة، قاموا بتعطيل

الجمعيات الإصلاحية، وإغلاق المنتديات، ومصادرة أموالها، وعزل ولاة الائتلافيين. وعين ولاة من جماعة الاتحاد والترقي، ورموا بجميع اللوائح الإصلاحية التي تطالب بالإصلاح – عن طريق اللا مركزية – عرض الحائط واخذوا يحاربون شباب العرب، ويضطهدونهم وعزت على نفس الشهابي الخنوع الذل الاستكانة للضيم تحت رحمة الاتحاديين فاستقال من وظيفته. واحترف المحاماة وأنشأ له مكتباً خاصاً في دمشق ذاع صيته في المنطقة كلها.

وأخذ يراسل جريدة المفيد التي كانت تصدر في بيروت تحت عنوان "ماذا في دمشق" وكان لهذه المقالات وقع كبير على قلوب المستبدين من الحكام والولاة، مما جلب له المضايقات والعراقيل، وخاصة مع والي دمشق عارف المارديني، وكانت له مواقف مشهودة ومشهورة تثبت مدى جرأته وثباته واستقلال رأيه، كحادثة تأبين الأستاذة والعلامة المعروف لشيخ جمال الدين القاسمين حين منعت الحكومة الاتحادية شباب العروبة من إقامة الحفلات والأمسيات والتمثيليات المخصص ريعها لمساعدة الطلبة العرب، واضطهاد الحكومة جريدة "المقتبس" وأصحابها، ووقوفه أمام الاتحادين وقفة السد، ونعيه عليهم مثل هذه الأعمال الاستبدادية التي تناقض أبسط حقوق الإنسان.

وفي بداية عام ١٩١٤ دخل شريكا في جيدة "فتى العرب"، ودعاه إلى ذلك اضطهاد الحكومة الاتحادية لصاحبها والقضاء عليها بإصدار الأحكام الجائرة تارة بالتعطيل وأخرى بالتغريم، مما حدا بصاحبها عبد الغني العريسي أن يدعو ثلة من شباب العروبة المتحمس للفكرة العربية إلى اجتماع من أجل إطلاعهم على حقيقة ما تتعرض لها الصحيفة من عقبات ومؤامرات، فلبى نداءه عدد من شباب العرب وتوافدوا عليه من دمشق وفلسطين وحلب وطرابلس والشام وسواها من أقطار العروبة، وبسط أمامهم حالة الصحيفة واضطهاد الحكومة لها وأن الوالي بكر سامي بك اغتنم ما حل بالصحيفة من الضيق المالي فعرض عليه يومئذ مبلغاً من المال ومرتباً شهرياً للصحيفة بشرط تعديل سياستها. وختم صاحبها حديثه بأن لا مناص له من إيقاف الجريدة لأنه يستحيل تغير خطتها مطلقاً. وهو من جهة أخرى غير قادر

على القيام بمهام الجريدة منفرداً، خاصة بعد أن فقد صديقه وشريكه المرحوم فؤاد حتس، فتعهد الحاضرون بتلافي الحالة وإيجاد مشتركين جدد يدفعون الاشتراك سلفاً، ورفض أعطيات الحكومة ومرتباتها وقرّ رأيهم على استدعاء عارف الشهابي من دمشق، فذهب اثنان منهم إليه واتفقا مع الأمير عارف الشهابي فجاء ببيروت وتولى إدارة سياسة الجريدة ونقل مكتب المحاماة إلى بيروت واشتغل بالمهنتين. والذي يطالع مقالاته في هذه الفترة يجد مدى إحساسه العميق تجاه القضايا المصيرية ومطالبه بضرورة إصلاح الدولة وتحديث أجهزتها ورجالاتها، وعدم استئثار الاتحاديين بالسيطرة على التعليم العالي، وإرسال أبناء جلدتهم إلى أوروبا لطلب العلم دون أن يتاح ذلك للعرب، مع أن الحكومة الاتحادية تنفق على الطلبة الأتراك من الخزينة العثمانية، ومال هذه الخزينة ليس ملك الترك دون سواهم، وما هو إلا مال العثمانيين على حد سواء ولا يختص بقوم دون آخرين. كما طالب برفع مستوى الوعي العام للولايات العربية في سورية اجتماعياً وثقافيا وسياسيا، ونشر الحركة التعليمية في جميع أنحاء البلاد، وأكد أنه من حق أبناء البلاد أن يطلعوا على ما يدور حولهم من آراء وأفكار وتنظيمات وحركات وجمعيات تفتح أذهانهم بصورة عامة، وتواكب هذه المنطقة التقدم العلمي الذي وصلت إليه الدول المتقدمة، كما أنه نبه إلى النفوذ الأجنبي في البلاد العربية وخطره في المستقبل وكان مبدؤه السياسي العرب والعثمانيين معاً. واستطاع في فترة وجيزة أن يكوّن وعيا عاما من خلال ما ينشره في المفيد من آراء أفكار كان لها صدى في نفوس رجال الإصلاح خاصة وشبان العرب عامة.

اعتقاله وإعدامه

عندما بدأت الاعتقالات تستهدف شباب العرب شعر بالخطر هو ورفيقه عبد الغني العريسي وتواريا عن الأنظار، واستطاع الأمير طاهر الجزائري ونسيب البكري أن يهربا الاثنان من دمشق واجتمعا بتوفيق البساط وعمر حمد وإبراهيم هاشم بجبل

الدروز عند سليم ومفيد المغوش في قرية خلخلة، وبقوا يتنقلون بين قرية خلخلة واللجاة مدة من الزمن، ثم خطر لهم أن يقصدوا الجوف ويلجأوا إلى الأمير نواف الشعلان أمير منطقة الجوف، لأنه من أعضاء جمعية العربية الفتاة، فتوجه الأربعة وتخلف عنهم إبراهيم هاشم في الجبل، فلما وصلوا إلى الجوف اجتمعوا هناك مع عز الدين سيف السروجية وطلبوا من الأمير نواف أن يوصلهم إلى المدينة المنورة حيث ينزلون ضيوفاً على الشريف علي، فأعطاهم هجناً وأرسل معهم احد رجاله مزوداً بكتاب على شهاب الفقر شيخ عشيرة الفقراء، التي كانت تقطن بين تبوك ومداين صالح يوصيه بهم، ويطلب منه إيصالهم على المدينة. ويظهر أن شهاب طمع بالهجن فخوّفهم من الطريق وبيّن لهم بعد المسافة ووعورة المسالك بين تبوك والمدينة المنورة، عدا الأخطار التي سيتعرضون لها في أثناء الطريق ورغب لهم الذهاب إلى المدينة فقبلوا بذلك، وأرسل معهم أحد رجاله إلى محطة (الدار الحمراء) فأركبهم في القطر الحجازي على حسابه، ولما وصل القطار على محطة مداين صالح أطل العريسي والأمير عارف من نافذة المركبة وصادف وجود الدكتور أحمد حلمي الترك في المحطة وهو تركي الأصل، ولد في دمشق وسكن في الميدان، وكان من أطباء الخط الحجازي، فلما رآهما عرف الأمير عارف الشهابي لأنه رفيقه في مكتب عنبر (التجهيزية) وتعرف على العريسي وكان معه في المحطة، ضابط في الجيش فأخبره بالأمر، ثم اخبر مدير الناحية هناك وتم القبض على الأربعة، أخبر جمال باشا بذلك وسيقوا مخفورين على عاليه للديوان العرفي.

وقد صدر قرار اتهامه والحكم عليه بالإعدام على أنه واحد من أعضاء اللا مركزية وبينه وبين أعضاء اللجنة المركزية وفرع بيروت مخابرات، وأنه أيضا فرّ إلى البادية وحرض العربان على القيام بالثورة.

آثاره

عارف الشهابي شخصية متميزة في عالم الأدب والفكر والصحافة والتربية، بل هو من أبرز الشخصيات في جيله، فقد عرف منذ صغره بما له من ملكات ومميزات وفيرة، لا يتأتى بعضها للإنسان العادي، كان محاميا وكاتباً مترجماً وقاصاً، وصحفياً ومؤلفاً وشاعراً. فد ألف "كتاب تاريخ العرب والإسلام" في ثلاثة مجلدات، ومخطوط، وألف "رواية التلميذ"، وترجم رواية "فتح الأندلس" للشاعر عبد الحق وله مساهمة كبيرة وعالية في تأسيس لجنة لتمثيل الروايات الأدبية والوطنية التي كانت تمثل على المسارح في دمشق.

عارف الشهابي الشاعر المبدع

كان عارف شاعراً مبدعاً وهب حياته كلها للفكرة القومية يبين مزاياها ويوضح أهدافها ورد على أعدائها، فسجل في شعره اعتزازه الكبير بأمجاد الأمة العربية، رافعاً صوته مدافعاً عنها، ومنذرا بالخطر الذي يحيط بها ويطبق عليها، ويذكر إخوانه شباب العروبة بأمجاد وعراقة أمتهم الغابرة ليعيدوا لهذه الأمة تاريخها، ويحرروها من الطواغيت، وليردوا إليها حياتها وآمالها من اجل استئناف حياتها من جديد بعد أن عانت النكبات والكوارث والويلات والظلم في ظلم شريعة الغاب.

وعلى الرغم من أن شعره لم ينشر منه إلا القليل إلا أنه يعدّ في طليعة شعراء عصره، لما في شعره من إشراقه في الأسلوب والمعنى، كان مطلعاً على الشعر قديمه وحديثهن هضم ما فيه، وكما ذكرنا فإنّ شعره جاء ممزوجاً بالتفاؤل والأمل، مؤمناً بأن النصر آتٍ وأن الفجر قريب مهما كان الليل طويلاً. فله قصيدة ألقاها في مدرسة الشيخ كامل القصاب عام ١٩١٠، تكشف بوضوح عما ذهبنا إليه من صدق في وطنيته وإحساسه الكبير المرهف وتحمسه للقومية العربية التي قضى في سبيلها شهيداً. وهذه المدرسة لها وقع خاص في قلب الشهيد، فهي المدرسة التي اختارها ليدرّس فيها من أجل بث روح الوطنية العربية في نفوس الطلاب من خلال

تدريسهم اللغة العربية والتاريخ العربي ومواجهة حملات التتريك التي كانت قائمة على قدم وساق في الولايات العربية:

تعالى الله يفعل ما يشاء — أغاض النور أم حم القضاء
عرفتك أيها الشعب المفدى — يقصر عن معاليك العلاء
عرفتك والمدارس آهلات — رياضا جادكم منها السخاء
عرفتك المعاقل شامخات — لسطوتها تخر الكبرياء
عرفتك والبوارج منشآت — يهاب زئيرها برٌ وماء

* * * * *

أتذكر إذ نشأت وأنت طفل — أثار ظلام غفلته الذكاء
أتذكر إذ صبوت إلى المعالي — بعزم حدُّ صيقله المضاء
فقوضت العروش ولا تبالي — وعرشَ الظلم يدره الفناء
سلو كسرى وقيصر إذ أتتهم — جيوشَ العرب يدفعها الإباء
تحاذر ان ترى في الكون بغياً — وترجو أن يسود به الإخاء
لو الصينيُ والهندي يوماً — وقد أودى بهم داءٌ عياء
وداويتَ الذين بغوا بحلم — وبعض الحلم للباغي دواء
فأرضى فعلُكَ الديان ربي — وسُرَّ بما أتيت الأنبياء

* * * * *

كما حصل الشهابي على علاقة الشباب العربي بالأمجاد الغابرة – أمتهم وحضارتهم العريقة، حضارة كان قوامها العدل والحرية والكرامة، ويدعو الشباب العربي إلى البعد عن اليأس الكسل فيقول:

تــــذكر زادك الـــــرحمن مجـــــداً ولا تيــأس ففـــي اليـــأس الـــبلاء
تــــذكر عهـــد أنـــدلسٍ مـــصرٍ وبغــــدادٍ وفـــاخِرْ مـــا تـــشاء
تــــذكر شـــامنا والعلـــم فيهـــا ليـــالي تحـــسد الأرض الـــسماء
مـــدارس تستــضيء بهـــا البرايـــا وقــد انحنـى علـى الغـرب الثـواء
مئـــات لـــيس يحـــصيهن عـــد أذاع أريجهـــــا منـــــك الطـــــاء
أراهـــا اليـــوم منـــال الـــدهرَ منهـــا فغــــار العلـــم وانـــدك البنـــاء
وأقفـــرت الـــديار ديـــار قـــومي وفـــاز الجهـــل وانقطـــع الرجـــاء

ويتجلى سمو أهدافه، ووطنيته الصادقة في حث الشباب على الإقدام على ارتشاف العلم والتزود بثقافة أصيلة، حتى يتحقق المشروع الحضاري العربي الكبير، ويكون في مواجهة الفقر والقهر والاستبداد، ويرد على الذين يقولون إن الشرق ليس له أي تقدم ورفعة، ونسوا أنه كان يسبح بنور العلم والتقدم والمدنية، وتحت ظلاله كان يسود العدل والأمن الحرية وكرامة الإنسان، وأنبت حضارة زاهرة قام عليها الملك والعدل والفكر والاجتماع والاقتصاد والعلوم بمختلف تخصصاته وأنواعه، فالرقي العلمي في الحضارة العربية الإسلامية التي كانت منبتها من ارض الشرق أرض الجذور، كانت محاطة بالتفوق الروحي والقيم الأخلاقية والإنسانية فهذه الأرض تستصرخ فينا أن أعيدوا هذه الأمجاد حتى تنعم البشرية بالسلام والحرية والمساواة والإخاء.

ألا بـــالعلم يـــسعد كـــل حـــي وفي الجهـــل المذلـــة والـــشقاء
بـــني وطـــني دعـــوا هـــذا التراخـــي فـــلا يجـــدي التنـــادب والبكـــاء
إلى العلـــم الـــصحيح نـــسيرا ســـيراً حثيثـــاً لا يلـــم بـــه رخـــاء
ونبـــذل دون مـــا نبغـــى دمانـــا ويغـــني دون مـــا نبغـــي الثـــراء
سمـــاع، سمـــاع إن المـــال سحـــت لَعَمْـــرَ الحَـــق لـــيس لـــه بقـــاء
إذا لم يَفْـــدَ في ســـبل المعـــالي ألا فالمـــــال للعليـــــا فـــــداء

* * * * *

يقــول الكاشــحون مــن الأعــادي — بــأن الــشرق لــيس لــه ارتقــاء
وإن لم يبــقَ لـــه ســوى ذمــاء — فغبَــــأ ينطفـــي هـــذا الـــذماء
وربُّ البيـــت مـــا قـــال الأعــادي — وربُّ البيـــت مـــون افــــتراء
فــإن يــكُ مجــدنا العلمــي ولّــى — فمــلّ عروقنـــا تلـــك الـــدماءَ
رفـــات جـــدودنا أبـــداً تنـــادي — فيـــوقظ هاجعـــاً هـــذا النـــداء
نقـــول علـــيكم بـــالعلم دومـــاً — فـــذلك منهـــل فيـــه الـــشفاء
نقـــول وقولنـــا حـــق صـــرح — تعـــزّاً فـــالبنون لكـــم عـــزاء

وهذه قصيدة وطنية عنوانها: إلى مَ.. إلى مَ.. من قلب مكلوم الفؤاد يرسلها زفرات حادة وحارقة طامحا فيها أن يعود الشرق إلى أيكة الحضارة الساجية منذ نزول الرسالة إلى زمانه – فالنسب الحميم بينه وبين حضارته متصلة في الوجدان مهما حاول دعاة الظلام أن يخنقوا هذه الأصوات الحرة والنبيلة، وإننا أُمنا حضارة هزت العالم ودوت بذكرها الآفاق وعاش الإنسان في أفيائها حرا كريما معززا مكرما، ينعم بكل ألوان الحرية والسعادة والرفاهية والتقدم.

إلى م... إلى م..

إلى م... إلى م... تثـــور الـــدماء — فتقـــذف بالأمـــل الباطـــل
حتـــى مَ... يمـــرح هـــذا الخيـــال — فيرجـــعَ في خيبـــة الـــسائل
ألم يـــأن للقلـــب أن يـــستيق — فـــلا يطمـــئن إلى الزائـــل
ولكنـــه في ســـبات عميـــق — يفكـــر في الـــزمن القابـــل
وتلـــك الخـــاطر أحلامـــه — تهـــب وتطفـــأ بالعاجـــل

* * * * *

فـؤادي... فـؤادي... إلى م الـسكون — أمـــا للتجاهـــل مـــن آخـــر

وكيـف احتـوا ظـلام الخمـول ومنـك الـشعاع علـى الخـاطر
كفـاك تعـاميَ أنـت البـصير فقـد أشـرق الحـق للنـاظر
أفِـق وتبـصرُ نفـوس الأنـام فمـن مـستكين إلى ثـائر
أفِـق وتبـصرّ رؤوس الانـام فمـن مـستقيم إلى جـائر

* * * * *

فـؤادي تبـصرّ صـبح المنـى وآنِ قيامُـك يـا راقِـد
وأرقّ لـشرق نـور الهـدى فثـاب إلى عقلـه الـشارد
وهـب بنـوه هبـوب الريـاح وحَـرّكَ لُجُهـمَ الراكـد
وأصـغرّه قـام والأعجمـي وكـلّ لنيـل العلـى قاصـر
ولا بـدَ للـشرق مـن هبَـة يخـرُ لهـا المغـرب الجاحـد

* * * * *

فـإن الفـؤاد أنـين الـسقيم بـصوتٍ خفـي ولكـن مـبين
ورفـرف كـالطير يرجـو الخـلاص وأنـى لـذاك الـشقي الـسجين
وقـال رويـدك يـا صـاحبي تنـادي وأنـت مـن الغـافلين
وتـذكر شـعباً سمـا وارتقـى وتبهـوا عـن العـرب البائـسين
وكانـا ملـوك بجميـع الـورى فاضـحوا عبيـداً إلى الآمـرين

*****

فقلـتَ: فـديتك يـا ذا الفـؤاد ويـا مستـشار الهنـا والـشقا
الحيـا نـوس براهـا الخمـود وأدى بهـا حيـث لا مرتقـى
وفرقهـا الـدهر عـن مجـدها ناهيـك بالـدهر إن فرقـا
وأغـرى بهـا زخـرف الاجـنبي فللـه منـه إذا ابرقـا

ودس بهـا مـن سمـوم النعـاس فناموهيهـات أن نأرقـا

*****

فـضجَ الفـؤاد وأنّ الفـؤاد يـسائلني كـشف سـرّخفي
فقلـت لـه قـد ألفنـا الرخـاء ولم يلونـا حـرج الموقـف
فجـاء بنـو الغـرب أوطاننـا مجـيء المـيقظ والمـسعف
وقـاموا لنـشر العلـوم وكنـا إذا قيـل مـا العلـم لم نعـرف
وشـادوا المـدار دوراً عظامـاً فاعجبَـت العـين بـالزخرف

*****

فـذي للبـنين وذي للبنـات تراهـا تلـظّ دروسـاً دروسـاً
يـؤم إليهـا قبيـل الـشروق شـباب الـبلاد خميـساً خميـساً
يـسوس عقـولهم الأجـنبي كانـا علـى العجـز مـن أن نـسوسا
يُـريهم علومـاً تميـت النفـوس ولا خـير فيمـا يُميـت النفوسـا
إلى مـن محـا ضـوء آمالنـا ولم يبـق مـن ذاك إلا نسيـسا

*****

أجـل إن للعلـم بـين الـورى يـداً ترفـعَ الـسافل المُـزدرى
ونـوراً يـزيح ظـلام الخطـوب إذا الـدهر عـن نابـه كـشرا
ولكـن بربـك مـا علمنـا ولمـا نـزل أنفـسا تُـشترى
أنرجـوه مـن كـرم الجـني ونرجـوا الرقـى لأسمـى الـذرى
وأن نـتملّص مـن رقّـه وذا كيـف يرقـى بـأن يـسخرا؟
بـني طـني آن وقـت القيـام ووقـت الـبروز ووقـت الزحـام
وأن نتمطـى بتلـك القيـود وأن نطلـب العيـش عيـش الكـرام

وأن لا نـــــؤول بأوطاننـــــا إلى الأجـــــنبي ونبقـــــى نيـــام

وأن نرفـــع البـــؤس عـــن أمـــة تـــساق إلى الـــذل ســـوق الـــسوام

أحبـــيكم يـــا جـــدودا جـــروا إلى قمـــم المجـــد جـــري الـــسهام

الشيخ أحمد طبارة

هذا واحدٌ من طلائع مناضلي تاريخنا المعاصر، اسمه يسطع في وجدان الأمة وذاكرتها لمواقفه العظيمة، رمز جاوز حدود الحلم والمهادنة، ودخل عالم الإصلاح بل عالم الثورة وتقدم إلى صف الحلم التاريخي بالرؤية الشاملة، والنهضة الشاملة دون خوف أو تراجع، حتى تنهض الأمة لاسترداد مكانتها تحت الشم، إنه أحمد حسن طبارة، شيخ الصحفيين، وواحد من أركان المؤتمر العربي في باريس وعضو جمعية الإصلاح في بيروت، وصاحب المواقف الكبيرة.

ولد أحمد حسن طبارة في بيروت عام ١٨٧٠ تلقى تعليمه فيها على أيدي علماء كبار مشهود لهم في علم التقوى والإصلاح، وبرع في دراسة الفقه والعلوم الشرعية وكان حجة في ذلك العلم، وتولى الخطبة في أكثر من جامع ينور المسلمين بأمور الدين، ويحمل روح التجديد للإسلام وينقيه من الخرافات والبدع ليخرجه من مرحلة "الانغلاق"، وهاجم بعض الجامدين الذين يرون الإسلام داخل أسوار الجامع دون الخروج به إلى الرؤية الشاملة، وانتقل إلى العمل الصحفي وحرر جريدة ثمرات الفنون. وفي عام ١٩٠٨ أسس جريدة الاتحاد العثماني، ثم أصدر جريدة (الإصلاح). وعندما تشكلت الوزارة الائتلافية عام ١٩١٢ وهي وزارة كامل باشا، كان أهم ما قام به الائتلافين هو إقناع كامل باشا أن يقدم برنامجاً وزارياً مفصلاً تركز الحكمة من خلالها على نقاط عدة في السياستين الداخلية والخارجية – تمثل مطالب الجماهير الإصلاحية، وكان أهم هذه النقاط: أن الوزارة تطبق خطة الإصلاح اللامركزية استجابة إلى طلب الإصلاحيين بالرغم من خطورة الموقف على الحدود، وبهذا نالت الوزارة الائتلافية الثقة بالأكثرية، وكانت بيروت أول الولايات العربية التي فكرت بصورة جدية بالإصلاح وحماية نفسها دون الاعتماد على الدولة

العثمانية هي بيروت، إذ تنادت فئة من سكانها المسلمين والمسيحيين وكان على رأسهم الشيخ أحمد حسن طبارة وشكلوا لجاناً إصلاحية، وكانت صحيفة الاتحاد العثماني التي يرأسها، ناطقة باسم الإصلاح والإصلاحيين، تشرح أهمية الإصلاح وفوائده على المجتمع، وترى أن تحقيق الإصلاح لا يتم إلا على أساس اللامركزية وهي الوسيلة الوحيدة لدرء الخطر المحدق بهم وإنقاذهم من الوقوع في براثن الاحتلال الأجنبي، وبعد جلسات مطولة وضعا اللائحة الإصلاحية بالتنسيق مع جمعية العربية الفتاة، وكان الشيخ طبارة ضمن الذين صاغوا هذه اللائحة.

وعندما سقطت الحكومة الائتلافية قُضي نهائياً على الأمل الذي راود العرب وهو الإصلاح وتحقيق اللامركزية، وأصدر والي بيروت أمر بإغلاق الجمعيات الإصلاحية ونواديها، وألقى القبض على زعماء الإصلاح وزجّ بهم في السجن بتهمة التحريض ضد الحكومة، ونشر بياناً مبرراً فيه الظروف التي أدت بالحكومة إلى إغلاق الجمعيات الإصلاحية، ومما جاء فيه: "وعليه نعلن الحقيقة ونخطر العموم بأن يتجنبوا حركات كهذه توجب العقاب وتوجههم بمعاطاة أعمالهم – كالعادة – مع الخلود إلى السكينة".

وصادر الوالي أعداداً من جريدة الاتحاد العثمانيين وان قد أمر بتعطيلها أياماً عدة، ولكن صاحب الاتحاد تحدى قرار الوالي وأصدر الصحيفة ووزعها سراً، وعندما أيقن رجال العرب أن جماعة الاتحاد والترقي يحاربون الإصلاح بكل الوسائل والطرق دعوا إلى العمل المنظم الجماعي – وكان هذا آخر المجالات التي لجأوا غليها – وهو ضرورة عقد مؤتمر عربي في باريس، وكان في مقدمة الذين استجابوا لهذا المؤتمر الشيخ حسن طبارة وألقى خطاباً صريحاً وجريئاً واقعياً عن الهجرة من سوريا وإليها، والبواعث إليها، والعوامل التي حملت الكثير من المواطنين على النزوح إلى ديار الهجرة نتيجة لما أصابهم من الظلم والتعسف، والتقهقر الاجتماعي، والفقر المادي، معتمداً على جداول إحصائية، مبيناً كيف كانت الديار السورية الموطن السكني لعشرين مليون نسمة ثم تقهقر هذا الرقم على ثلاثة ملايين، مما يتنافى كل التنافي مع سنة العمران، حتى خلص إلى القول: "فيا عجباً هل تبدلت الأرض غير الأرض

وهل طرأ على سماء سورية التي كانت تضم عشرين مليوناًن شيء خارق للعادة، حتى باتت تضيق على ٣ ملايين، أم أن السوري المتفاني في محبة بلاده قد انقلب حبه لها قلباً بغضاً حتى هجرها؟.. " كلا، ثم كلا إن الأرض لم تتغير ولم تتبدل، ولم تزد ولم تنقص، ولكن العدل يفسحها، الحيف يضيقها، كما أن السوري ما زال، ولم يزل يحن على وطنه ويفديه بكل عزيز وغال..."

ثم ركز حديثه على النقطة التي أثارها الأستاذ سكندر عمون بأن الغرض الوحيد الذي يرمي إليه المؤتمرون هو الإصلاح فإنما هي الحياة السياسية الشريفة، نطلب الإصلاح لنكون العنصر الأقوى، إننا العدد الأوفى في جسم ولتنا العثمانية.. ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلاًن ولا برهان على ذلك اقطع من طلبنا للإصلاح الذي به حياتنا وحياتها معاً، ول كنا نبغي الانفصال عنها كما رجف المرجفون، لتركنا الحال يجري على ما ترى من سيء إلى أسوأ، وهي بطبيعتها سائرة في طريق الاضمحلال، فليقل عنا القائلون ما شاءوا أن يقولوا فإن التاريخ لا يظلم أحداً وهو يسجل لكل إنسان عمله: إن خراً فخيراً وإن شراً فشراً "وأي الفريقين أكثر حباً وأصدق وطنية؟ هل

من يطلب صلاحك وإصلاحك لتحيا، أم من يخفي عنك لتموت"؟

وتشكلت لجنة لمتابعة قرارات المؤتمر في باريس وكان الشيخ أحمد طبارة واحداً من هؤلاء، ولاسيما أنهم يمثلون تيار التمثل والأخذ بالحسنى، وزادت هذه اللجنة وزير الخارجية الفرنسي حتى تؤكد له ما أجمعت عليه بنبذ التدخلات الأجنبية في البلاد العربية، وسلموه نسخة من قرارات المؤتمر وأدرك الزير القصد من وراء هذه الزيارة، فكتب كتاباً سرياً إلى قناصل فرنسا في سوريا يقول فيه: قد تحقق لدينا من تصريح الوفد الذي زارنا باسم المؤتمر العربي أن هذه الحركة قد انقلبت علينا، فأظهروا أنفسكم أنكم تساعدونها لاكتساب ثقة الشعب واسعوا في الخلف لقتلها (يريد الحركة الإصلاحية وخاصة عندما أكد أحد أعضاء الوفد" إننا نحترم فرنسا ولكن

لا نرضى أن تكون أكثر من معضدة لنا في إصلاح شؤوننا بشرط أن نظل عثمانيين".

وتظاهرت الحكومة الاتحادية بعزمها على الإصلاح، خاصة بعد فلها الذريع في إقناع الحكومة الفرنسي بعدم السماح للمؤتمر أن يعقد على الأرض الفرنسي، وأذاعت وزارة الداخلية بياناً رسمياً على الولايات أنها عازمة على الإصلاح تدريجياً وأحسن زعماء العرب الظن بجماعة الاتحاد والترقي، وقد ابرق عبد الكريم الخليل إلى باريس داعياً رجال المؤتمر العربي إلى زيارة الأستانة، جاءها أحمد حسن طبارة وسليم سلام، وقصدوا المنتدى الأدبي واجتمعوا مع معتمدي الجمعيات العربية وتدارسوا الأمر، وقابلوا السلطان وأكدوا له تعلق العرب بالعرش العثماني، وتمنوا أن يأمر الحكومة بتنفيذ الإصلاح في أسرع وقت ممكن، لأن الإصلاح هو الطريق الوحيد في ترقة البلاد وتنميتها وإسعاد سكانها، فوعدهم خيراً، وأقامت جمعية الاتحاد والترقي مأدبة دعت إليها رجال الإصلاح وأقطاب العرب، وألقى الشيخ أحمد طبارة كلمة باسم الوفد، ومما جاء فيها قوله: "صديقك من صدقك لا من صدّقك، ثم قال.. نحن نصرح أننا نشأنا تحت ظلال الهلال العثماني (تصفيق) ونريد أن نعيش تحت ظل (تصفيق) وأعني نحن العرب كل ناطق بالضاد، لا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم (تصفيق) لا نرضى من دولتنا العلية بديلاً وإننا نفديها بأرواحنا وأمالنا (تصفيق) وإنما نطلب لها الحياة السعيدة والعيشة الرضية لنعيش وإياها في سعادة هناء ورضاء، على قاعدة الاشتراك في الحكم وتبادل الحقوق "وأكد على قرارات مؤتمر باريس وفوائده الكبيرة على العرب والترك على حد السواء، واختتم خطابة المؤثر بقوله: ويتساءل فريق من الناس أيها السادة أتظهر الحكومة هذه الإصلاحات من خر الوعود إلى عالم الوجود! فالذي أراه أن ليس من مصلحة الدولة البر بالوعد الوفاء فقط بل أن تسبق أعمالها أقوالها من الآن.."

وفي أوائل شهر سبتمبر غادر الشيخ أحمد حسن طبارة الأستانة عائداً إلى بيروت يراقب الأحداث، وأذاع مع زملائه حين السفر بياناً جاء فيه: "جئنا الأستانة لتحقيق وعود الإصلاح وطلب تنفيذها في أقرب وقت، وقد سمعنا من جلالة السلطان وسمو ولي العهد وفخامة الصدر الأعظم وحضرة ناظر الداخلية وسائر رجال الحكومة

وجمعية رجال الاتحاد والترقي، وعودا صيحة قاطعة لا نستطيع أن نظهر ارتيابا فيها. وأكد لنا فخامة الصدر الأعظم والناظر غير مرة أن تنفيذ الإصلاح واقع لا محالة – في القريب العاجل – وأن الدولة العليا لا تقف بالإصلاح عند هذا الحد، بل تزيه وتعززه لما سنحت لها الفرص وساعدتها الأحوال. فرأينا من المصلحة، إن نتظاهر بالرضا لأن السياسة تقضي علينا بذل، وعزمنا على السفر وساعدتها الأحوال. فرأينا من المصلحة أن نتظاهر بالرضا لأن السياسة تقضي علينا بذلك، وعزمنا على السفر إلى بلادنا لعرض المسألة برمتها على مسامع الأمة وإعدادها لقبول الإصلاح إذا برت الحكومة بوعدها، أو لاتخاذ التدابير اللازمة الفعالة للوصول على غايتنا الشريفة. وق أفهمنا رجال الحكومة حقيقة الحال وقلنا لهم من هذه آخر مرة نرضى فيها بالوعود، فإن لم يبروا بها في اقرب آن، كانوا هم وحدهم المسؤولين عن تفاقم الأمر وسوء العاقبة".

ولم تمض بضعة أشهر حتى اتخذت الحكومة التدابير اللازمة للتخلص من وعودها واعتقلت خيرة رجال وشباب الأمة، وأرسلتهم إلى الوحدات العربية في ميادين القتال وبث الرعب في القلوب.

وكان الشيخ حسن طبارة من ضمن الذين ألقي القبض عليهم وزجوا في السجن ليشهدوا أهوالاً من العذاب، لا يتحمله إلا أصحاب المبادئ الصادقة، فتحمل كل هذا بكل إباء وجلد، متحملاً في سبيل اعتقاده الجازم أنما ما يكتب وينشر على الناس يبقى "عرائس من الشمع، فإذا ما مات في سبيلها كتب لها الخلود"، وصدر قرار تهامه والحكم عليه بالإعدام" بناء على طلب رزق الله ارقش المحكوم عليه غيابياً بالإعدام، "كان أحمد سعيد عقل المحكوم عليه بالإعدام أيضاً محرراً لجريدته، كان الأمل الوحيد في الجمعية الإصلاحية ومدعي الإصلاح، وثبت أنه أهم عضو ومعامل خصوصي اللامركزية، واشترك في المؤتمر العربي السوري في باريس ووقع على القرارات المتعلقة بتأسيس إمارة مستقلة".

وعندما جاء به إلى حبل المشنقة حدث حادث مؤثر، وهو أن عائلة المرحوم الشيخ أحمد طبارة، كانت معتقدة أن الشيخ سيحكم عليه بالنفي فقط، ولكن همس الناس في الآذان ولَّد في صدر عائلته شكًا فل يغمض لأخيه المرحوم في تلك الليلة

جفن، وجاء اثنان منهم إلى ساحة الاتحاد ليشاهدوا المحكوم عليهم، ولم يكونا قادرين على معرفة القادمين إلى الإعدام بسبب الظلام من جهة وصوف الجنود من جهة ثانية.

وصعد الشيخ إلى منصة المشنقة وأخواه واقفان ينظران إلى جهته ولا يعرفانه حتى بدأ بالكلام، فشعرا بالضربة الهائلة وهوى الصغير على صدر أخيه ينتحب، ثم عادا إلى البيت يحملان للأرملة والأم والأطفال الإخوان ذلك الخبر المفجع"

وآخر ما نطق به قوله تعالى: "ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تُخْلِفُ الميعاد" اللهم أسألك العفو والعافية وحسن الختام في الدنيا والآخرة.

صفاته

الشيخ أحمد حسن طبارة كان قائداً كبيراً وعالماً بصيرا، وكان متنوعاً في العطاء: صحفياًن وإماماً في السيرة، والفقه والحديث، ومثالاً للعالم المسلم الملتزم، مخلصاً لله ولأمته، ويتصف بعلو الهمة، وسمو الهدف، وإنكار الذات. كان مدرسة في سعة الأفق، ورحابة الصدر، وبعد النظر، ورفعة في الذوق، وسمحاً متسامحاً، يحبه ويألفه كل من يتعامل معه.

الصحفي الملتزم

الصحافة رسالة سامية، لا يحمل أمانتها بصدق، وشرف، ومروءة، إلا من وضع الله نصب عينيه، وطلب على الدوام مرضاته ومصلحة الوطن، والأمة فوق كل المصالح، فيما يكتب وفيما يعلقن وفيما ينتقد إصرارا منه على أن هذا في إطار الاستقامة، والقيم الرفيعة، والمبادئ الأصيلة للكفاح والمعاني الغالية للوطن والأمة" ولهذا السبب اختار الشيخ أحمد طبارة العمل الصحفي يدافع عن قضايا

الأمة، ويصور آمالها وآلامها ويعالج قضاياها الداخلية والخارجية، ويتمنى لها الخلاص مما أصابها من الضعف وما حل بأبنائها من ظلم حيف. وما حل بلغتها من إهمال. دخل ميدان الصحافة مبكراً حرر جريدة ثمرات الفنون، وفي عام ١٩٠٨ أصدر جريدة الاتحاد العثماني وكانت في طليعة الصحف العربية التي أخذت على عاتقها تنور المجتمع العربي مؤمنة بضرورة الإصلاح، شارحة مزايا اللامركزية، وأن اللامركزية تحمي البلاد وتصونه من الوقوع في براثن الغرب.

ولقد ساهمت صحيفة الاتحاد العثماني مساهمة كبيرة في توجيه الرأي العام العربي ومطالبة الإصلاح في مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وكانت تحمل الهم القوميين وملتزمة بهذا الخط واعية، ليس لها أي هدف مادي، ملتزمة بإسلامها وعروبتها، والذي يطالع تلك الصحيفة يجد أنها غنية في موضوعاتها ومتنوعة في اهتمامها، فقد اهتمت بأخبار الولايات العربية والقوميات الأخرى والعالم الإسلامي، وسعت إلى النهوض بالمجتمع العربي في جميع جوانبه السياسية والفكرية والأدبية والتربوية والاجتماعية، ونادت بحرية الرأي والرأي الآخر حرية الكلمة والفكر تميزت مقالات صاحبها بالجرأة والصراحة والصدق والشجاعة فعوقبت بالمراقبة والتعطيل أكثر من مرة، وعلى صفحاتها نشر الشعراء الأدباء والكتب إبداعاتهم، واستطاعت أن تبلور حركة ثقافية فعالة كان لها أثر كبير في حياة الأدب العربي الحديث، وحرص صاحبها كل الحرص على إيصالها إلى مختلف ولايات الدولة العثمانية، وكانت رؤيتها السياسي الثاقبة بما يحيط بالأمة العربية من أخطار واضحة، وكانت الصحيفة تؤمن بالتغيير والإصلاح والتطور مع المحافظة على تراثنا العربي وعاداتنا وتقاليدنا. ولم يكن يحتكر افتتاحية الصحيفة، بل غالبا ما نجد أنه يعطي كتابة الافتتاحية إلى عدد من زعماء الإصلاح والكتاب المفكرين. هذه صحيفة لاتحاد العثماني متنوعة في موضوعاتها واهتمامها عميقة في تحليلاتها، ولم تكن صحيفة سياسية وأدبية فحسب، بل جمعت في طياتها شتى أنواع المعرفة والثقافة والفكر وطرحت رؤيتها وفكرها واتجاهاتها بكل صدق.

توفيق البساط

واحد من قناديل الرفض العربي، نقش التاريخ العربي على الحجر حتى لا يضيع، وأيقظ النار في الفضاء الغافي على حلم الرمل، حتى جعل الخيل تشكو من عنف الفرسان – وقد فتح في التاريخ صفحة جديدة مشرقة معطرة بالكبرياء القومي والكرامة والحرية، فأضاء فضاءات الزمن العربي الجديد بهاءً وإشراقاً، إنه الشهيد توفيق البساط.

ولد في مدينة صيدا لبنان عام ١٨٨٨م وتلقى دراسته الأولى فيها وأكمل دراسته العليا في المدرسة الملكية في إسطنبول التي تخرج فيها نوابغ الفر ورجال الاقتصاد والإدارة والأعمال، وكان البساط مفخرة من مفاخر المدرسة الملكية في إسطنبول ولمع نجمه وهو على مدرجات هذه المدرسة، واحتل مكانة مرموقة في نفوس أساتذته ورفاقه لا يحظى بها إلا فتى جاد موهوب، وتخرج من المدرسة الملكية عام ١٩١٤، عمل مأموراً عند والي دمشق يتابع القضايا والأعمال الإدارية، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى دخل ضابطاً احتياطياً، وفي يوم التخرج قام جمال باشا السفاح باستعراض دورتهم وكان الضباط الأتراك ينشدون الأناشيد التركية ويفتخرون بأصلهم، فتحمس البساط فألقى قصيدة وطنية فأنشدها مع رفاقه من ضباط عرب، لجمال كلماتها وصدق معانيها. طلب السفاح من معاونيه ترجمة هذه القصيدة، فلما فهم معانيها وأدرك مغازيها أصدر أمرا عاجلا بسوق الضباط العرب إلى جبهة الحرب في جناق قلعة، وعندما وصل إلى حلب تشاور مع رفاقه في هذا الخطر وأنهم هالكون لا محالة من ذلك، فأجمعوا على الفرار إلى الصحراء، والتقى توفيق البساط مع رفاقه في النضال: العريسي والشهابي وعمر حمد، وألقي عليهم

القبض في ٢٣ تموز من عام ١٩١٥ وسيق مع رفاقه إلى الديوان العرفي في عاليه وصدر بحقه حكم الإعدام.

تبلور فكر توفيق البساط القومي وهو طالب في المدرسة الملكية تقي إسطنبول واتضحت معالمه عام ١٩١٢ عندما انتسب على العربية الفتاة، وكان من أصغر أعضاء الجمعية سناً ولم تكن جمعية العربية الفتاة تعرف منصب الرئيس الدائم، بل تنتخب لكل جلسة رئيساً جديداً، وكان أصغر الأعضاء سناً من أعضاء تلك الجلسات تكون الرئاسة من نصيبه، حتى يشعر الجميع أنهم سواسية في تحمل المسؤولية.. وكثيراً ما كان الشهيد توفيق البساط – يفوز بمنصب الرئاسة بالرغم من صغر سنه "وانتخب في مجلس الشورى الذي أخذ على عاتقه إجراءات تنظيمية داخلية لمواجهة المرحلة الخطيرة التي افتحها إعلان الحرب، وخرج المجلس بتوصيات تحدثنا عنها في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

وجاء في نص بيان اتهامه "أنه فر من الفيلق في أثناء خدمته فيه، وبقي شهوراً عديدة، وكان يوزع ما يأتي إلى المنتدى الأدب من المنشورات السرية، واعترف رفيق رزق سلوم بأنه من الداخلين في تشكيلات اللامركزية وثبت أن فراره هو وجلال البخاري من الجندية كان لأجل تهييج العربان".

وعلى الرغم من وسائل التعذيب والإرهاب والإرهاق الذي ذاقه توفيق البساط، والتفنن الذي برع فيه زبانية الأتراك ليحملوه على الاعتراف والإقرار في حق رجالات القضية العربية، إلا أنهم لم فوزوا بطائل، ولم ينبس بكلمة واحدة وظلت أسراره محفوظة في صدره. وحري بنا ونحن نتحدث عن هذه المواقف الشجاعة أن نقف عند ما قاله المرحوم فائز الخوري الذي كان مسجوناً متهماً مع أولئك الأحرار في مذكراته: "والتفت إلى الغرفة المقابلة فشاهدت توفيق البسا متكئاً على سريره، ولما وقع نظره على نظري خلع نعليه ونزع جواربه ومد رجليه، فنظرت ورأيت ضربات السياط قد اخترقتها عرضاً وتركت فيها أثراً أسود قاتماً، وكان قد مضى عليها ما يزيد على عشرين يوماً وأثرها لا يزال كما رأيته، ويصف فايز الخوري وهو يتذكر تلك

الأيام السود ويقول: "غير أن توفيق البساط دخل غرفته فأسرعت وراءه فوجدته راكعاً يصلي وابتل شعره بالعرق المتصبب على وجهه، ولما انتهى من صلاته سألته: علام صلاتك الساعة؟ فأجابني بعد أن مسح عرقه بمنديلك لا مناص من القضاء يا أخي ونفسي تحدثني بأنني ذاهب الليلة إلى الإعدام، فأحببت أن أشجع نفسي بالصلاة حتى لا تجبن".

وفي فجر السادس من أيار عام ١٩١٦ سيق توفيق البساط على الساحة في بيروت، وكان الفجر قد بدأ نوره يكشف حلك الليل – وهناك شاهد أحد عشر شابا من خيرة شبان البلاد كانا قبل ساعة يكلمونه، فإذا هم الآن جثث معلقة، لا حراك بها ولا حياة. شاهد ذلك المشهد المؤثر فتجمدت فيه الروح العالية، روح الشجاعة الحقيقية، والتفت إلى إخوانه المشنوقين وإلى شانقهم وقال بصوت جهوري ووجه باسم:

– مرحبا بأرجوحة الشرف! مرحباً بأرجوحة الأبطال، رحبا بالعمد التي تسند إليها الأمم من استقلالها مرحبا بالموت في سبيل الوطن الحر.

وكان يمشي بسرعة في أثناء كلامه هذا إلى المشنقة، فما أن انتهى من جملته الأخيرة حتى كان قد أبح على منصة المشنقة، فوضع الحبل في عنقه وبسرعة البرق رفس الكرسي فهوى ومات شهيداً، ما أروعها وأعظمها من صورة، وما أصعب الكلمات وأندرها وأبخلها حين تري أن تعبر عن شيء عظيم وكبير في القلب والوجدان ولا تستطيع، فالشهادة في هذه المواقف هي البلاغة بعينها!.

سيف الدين الخطيب

واحد من رموز الإرادة العربية الصلبة، نقش اسم امته في ذاكرته، وبقي مشعلاً مضيئاً في زمن غلب سواده على بياضه، وقد أضاف للتاريخ العربي المعاصر صفحة جديدة في البطولة والفداء، معطرة بالكرامة والحرية والكبرياء القومي، من اجل إضاءة ظلمة الزمن.. هذا هو الشهيد سيف الدين الخطيب، أحد من رموز بناة نهضتنا.

ولد سيف الدين الخطيب في دمشق عام ١٨٨٨م.آل الخطيب من الأسر العربية المعروفة في بلاد الشام، أنجبت هذه العائلة الكثير من العلماء الفقهاء والنوابغ على مدار القرون، وأسندت إلى والده الخطابة في دمشق، وكان كبير خطباء دمشق، وسيف هو أصغر أنجاله. أكمل دراسته في دمشق، وأكمل تعليمه الجامعي في جامعة الأستانة (حقوق).

كان من ضمن المؤسسين للنادي الأدبي في الأستانة الذي كان مجمعاً للطلاب العرب، ويهدف لإيجاد رابطة ثقافية بين الطلاب، ولكنه تدريجياً بدأ يتحول إلى منتدى سياسي واع وخاصة عندما شعر أعضاؤه أن سياسة الاتحاد والترقي تغيرت نحو العرب، ومن هنا برز دور سيف الدين الخطيب في بث الروح القومية في نفوس شبان العرب، وشحن الهمم العزائم حتى تبقى إرادة الأمة العربية قويّة.

وكان يشرف على نشاطات النادي الذي في ردهاته تلقى القصائد الوطنية،

والخطب الحماسية، وبلغ هذا المنتدى شأناً كبيراً في السياسة لم يصل غله أي منتدى ثقافي، ولاسيما بعد الاتفاق الذي أُبرم بين الاتحاديين والعرب، وكان الوزراء والنواب والأعيان، المفكرون والصحفيون يحضرون حفلاته، ومُثلت في المنتدى الروايات والتمثيليات الإسلامية والعربية، كرواية صلاح الدين الأيوبي التي درت على المنتدى أرباحاً كبيرة، وكان أيضاً مأوى للطلاب العرب الذين لا تساعدهم ظروفهم المادية المبيت في النزل. هذه صورة عامة عن المنتدى. ونشاطات سيف الدين الخطيب في المنتدى كانت معروفة ومشهودة، فقد جند نفسه لأن يكون في خدمة أبناء أمته منذ كان طالباً على مقاعد الدراسة. وهو غالباً ما كان عريف حفل هذه الأمسيات والندوات.

بعد انتهاء دراسته الجامعية عين عضوا في محكمة بداية حيفا، وعندما بدأ جمال السفاح اعتقالاته، نصح من قبل أصدقائه بالهرب ولكنه رفض وسيق إلى سجن عاليه ليجد هناك شتى أنواع العذاب والتنكيل حتى يعترف على إخوانه، ولكنه ثبت ثبات الرجال أمام العواصف، وقد أُشيع أنه أفشى بعض أسرار الجمعيات العربية السرية، ولكمن الحقيقة غير ذلك، فسيف الدين الخطيب من أنشط رجال الحركة العربية وكان معروفاً بنشاطه ايام دراسته في إستبول، ولذلك لم يستطع أن يخفي معرفته بامور معروفة، وأن نشاطه كان بارزاً وعلنياً، وخاصة في إدارة الأمسيات والمحاضرات والندوات في المنتدى الأدبي. ولم يكن من السهل إنكار هذا النشاط العلني، إضافة إلى أن أسماء الذين ذكرهم ليسا موجودين في بلاد الشام وإنما في مصر فلا تستطيع السلطة الوصول إليهم، والذي يطّلع على نص قرر اتهامه يرى أن القرار لا يدينه "كان يدير شؤون المنتدى الأدبي السرية هو وعبد الكريم الخليل، ووقع على البلاغات التي كانت نشرت في أمر افتراق العرب، وذهب إلى مصر وتحادث مع أعضاء اللجنة اللامركزية هناك".

ولا نعرف كيف أصبح المنتدى الأدبي سريا وكان الوزراء وزعماء جمعية الاتحاد والترقي يظهرون لهذا النادي صداقة عظيمة، فزاره مراراً طلعت بك وأنور باشا وجمال باشا وفتحي بك ومدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي وغيرهم،

وألقوا فيه الخطب وأولوا لأعضائه الولائم، وحضروا معظم احتفالاته الدينية والأدبية، إلى غير ذلك، مما يدل على أن هذا النادي كان ناديا عثمانياً بحتاً، باعتراف الاتحاديين بأفواههم وأفعالهم الماضية، فلا يستطيع أن يثبتوا عليه أو على أحد أعضائه أن واحداً كان يشم منه رائحة كره الترك والرغبة في الانفصال عنهم".

وكتب الخطيب وصيته الأخيرة التي تكشف لنا عن مشاعره الرقيقة تجاه أسرته، ومما جاء فيها "من وراء السجون وبين غرفها أخط هذا الكتاب والله أعلم أنها آخر أيامي سجيناً،وسيقضي عليّ مظلوماً، ولست آسفا على شيء وأنا الحمد لله طاهر بريء ناصع الجبين، أستقبل ربي عز وجل ولا إثم يبقى عليّ، ولا عار يلصق بي، إلا أني وحق العلي القدير، باسط الأرض ورافع السموات يتأجج قلب ناراً كلماً تذكرت بأني أغادر هذه الدنيا الفانية، ولم أقم بواجبي حيال أمي وزوجتي وإخوتي، وأشهد الله بأني أترك الحياة وكلن ذرة من ذرات وجودي تقر بفضل من ربوني وعلموني، فأسأله تعالى أن يجزيهم عني خيرا إنه سميع مجيب".

كما أني أبث عاطفة الحب الخالصة وأرسم القبلة على يد سيدتي الوالدة المسكينة، وشقيقاتي الأربع وأم لطفي بصورة خاصة أما زوجتي الغريبة التركية البائسة التي لم تر مع زجها العريس من السعادة والرفاه شيئاً،وقد كان سيباً لشقائها ومصابها فغني راض عنها، ولها الخيار في أن تقيم بينكم فاتخذوا منهما ولداً بدلاً عني، كما لها الخيار في الرجوع إلى أبويها، شريطة أن تصفح عني ما دام هذا قد الله ولا راد لقضائهن وعوضها الله خيراً وألهمها الصبر".

"هذا ولي مكتبة في الأستانة تنوف على (٣٥٠) مجلداً أرجو توزيعها على المدارس. وآخر كلمة أقولها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله..." ربنا ما خلقت هذا بالاً سبحانك فقنا عذاب النار، ربنا إنك من تدخل النار قد أخزيته وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا".

علي الحاج عمر النشاشيبي

هذا ليس أول الشهداء، وليس آخرهم، التزم بالخيار القومي التاريخي، لإثارة الوعي النضالي حتى تدخل الأمة العربية نهضتها الشاملة التي حلم بها كل عربي حر، واستشرف حركة المد القومي الذي بدأ في دائرة الحلم منذ أن قرأ الصفحات الأولى لأهداف الجمعيات العربية السرية وهي تواجه الطغيان والفقر والجهل، وافتتحت صفحات رائعة للنضال في سبيل الحرية والكبرياء القومي، وأسست البناء المتين للنهضة الشاملة من أجل إعادة صياغة المجد العربي من جديد، إنه علي عمر النشاشيبي، أحد رموز هذه النهضة.

"ولد علي النشاشيبي في بيت ثروة وعز وجاه، وفي أسرة عريقة تجاذبت السيادة على فلسطين منذ جاءها جدّها الأول أحمد بن رجب النشاشيبي في عهد السلطان الملك جمقمق في القرن التاسع الهجري. وقد لبث بهذا اللقب نسبة إلى صناعة النشاب التي يحترفها أجداد عمر الأقدمون".

ولد علي في القدس أواخر الزمن الرديء وتخرج طبيباً بيطريا، تلقى دراسته العليا في إستبول، وانضم إلى جمعية سرية عربية وهي الجمعية القحطانية كانت تضم نخبة من العسكريين والمدنيين العرب، وكانت الجمعية تتبنى الرأي الذي ينادي أن الدولة العثمانية تكون من قسمين مستقلين استقلالاً تاماً في إطار الأمور الداخلية، واحد عربي والآخر تركي، وتكون الدولة عربية تركية تحت مظلة الدولة العثمانية على غرار إمبراطورية النمسا والمجر، فيحمل السلطان العثماني تاجاً عربياً وآخر تركيا. وكان علي النشاشيبي من المتحمسين لهذه الأفكار واستطاع أن

يستقطب عدداً من رجالات العرب في الأستانة لهذه الجمعية ولكن بعض أعضائها لم يلتزموا بمبدأ السرية والانضباط، فشاع خبرها، واضطر مؤسسوها إلى حلها دون أن يتخذوا قراراً بذلك، إنما انحل عقده تلقائياً دون اجتماع، إضافة إلى أنه ظهرت أكثر من جمعية عربية سرية أقوى منها في الأهداف والأفكار والبناء والتكوين.

واستطاع علي الشاشيبي ان قنعن أعضاء هذه الجمعية بالانضمام إلى جمعية العهد التي أسسها عزيز المصري من كبار ضباط العرب، وهذه الجمعية استفادت من الخطأ الذي وقعت فيه الجمعية القحطانية في سريتها، كان من أهدافها أن تنال البلاد العربية الاستقلال الداخلي مع المحافظة على اتحادها مع الدولة العثمانية على غرار المجر مع النمسا كما كانت تؤمن أن الخلافة الإسلامية ضرورة وبقاؤها وديعة في أيدي آل عثمان، وأن الأستانة هي رأس الشرق، وأن الشرق لا يمكن أن يعيش إذا دولة أجنبية اقتطعتها – فهي تهتم اهتماماً كبيراً بالدفاع عنها وتعمل للمحافظة على سلامتها. وإذا كان الأتراك يؤلفون حوالي ٦٠٠ مخفراً من المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب، فيجب على العرب الحصول على ما يؤهلهم لأن يكونوا القوى الاحتياطية الكبيرة والصالحة لهذه المخافر، كما يجب على رجال العهد أن يبذلوا قصارى جهدهم في إبراز المزايا المحمودة وبث الدعوة للتمسك بالأخلاق الفاضلة، فالأمة التي تستحق أن تعيش وان تكون بحق امة بمعنى الكلمة، هي التي تستطيع الاحتفاظ بكيانها الباني القومي أن تكون أخلاقها رفيعة. ولعل السؤال الذي يطرح نفسه أين موقع علي الشاشيبي في الجمعية؟ قبل الإجابة عن هذا التساؤل الذي يطرح نفسه أين موقع علي الشاشيبي في الجمعية؟ قبل الإجابة عن هذا التساؤل لا بد وأن نقف عند أثر الجمعية في الأستانة والبلاد العربية. لقد أحدث تأسيس هذه الجمعي ضجة كبيرة في الأوساط التركية وخاصة الحكومة التي وجدت أن هذه الجمعية تشكل خطراً عيها، وأن مؤسسيها عرف عنهم الصلابة والقوة، وجاء تأسيسها في ظروف عصيبة وصعبة، خاصة أن العلاقات بين الاتحاديين والشبيبة العربية كانت تشهد توتراً كبيراًن فوجدت هذه الجمعية كل الدعم من الشبان والضباط العرب الذين انضموا إليها وأنشأوا لها فرعين في بغداد والموصل، وما جعل الحكومة تحسب لها ألف حساب وتخشى امتدادها في البلاد العربية. وعقدت

الحكومة اجتماعاً طارئاً في وزارة الحربية بالأستانة لمقاومة المد القومي ومحاربة جمعية العهد خاصة.

وأصدروا القرارات التالية:

١- إقصاء الضباط العرب المقيمين في الأستانة وعددهم كما أظهر من كشوف وزارة الحربية ٤٩٠ ضابطاً ينتمي ٣١٥ منهم للعهد في المناطق التركية، وهي تراقية والأناضول فلا يعود في أملهم القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢- توليه القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الترك وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الإمكان.

٣- الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر.

٤- يعد أحمد جمال باشا المنهاج اللازم لتتريك العناصر.

٥- مقاومة الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس.

٦- إلغاء الأحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية وتدير الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وتراقب حركاتهم بدقة زائدة.

٧- إقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الأستانة واستمالة من يمكن استمالته منهم.

٨- تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد الترقي في البلاد العربية والإكثار من المنتسبين إلى أنديتها.

ولم تقف الحكومة الاتحادية عند حد إقصاء الضباط العرب، وقد أقصوا فعلاً غداة صدر هذا القرار، بل أصدرت يوم ٩ فبراير من تلك السنة أمراً بالقبض على عزيز بك، وأحالته إلى المحكمة العسكرية متهمة إياه بأنه أساء التصرف في ٣٠ ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حين مغادرته طرابلس الغرب، وطلبت منه حسابا

عن طرق إنفاقها ومعن سياسته في اليمن وطرابلس الغرب، والمقصود من هذه الحركة أن أنور باشا كان ينوي إعدامه لتزعمه حركة الضباط العرب ولينتقم منه لعدم تقيده بالأوامر التي كان يصدرها، غالباً حينما كانا في طرابلس الغرب يحاربان إيطاليا في ابتداء غاراتها عليها.

ولقد أثار اعتقال عزيز بك على هذه الصور وتقديمه إلى المحاكمة والحكم عليه بالإعدام ضجة شديدة بين العرب في الأستانة خاصة، وفي جميع بلاد العرب عامة. وأقيمت المظاهرات والاحتجاجات، فاضطرت الحكومة إزاء ضغط الرأي العام وتشدده إلى إصدار عفو عنهن فأُطلق سراحه على أن لا يقيم في الأستانة، وأن لا يتدخل في الشؤون السياسية العثمانية، وقد جاء على الفور إلى مصر، وكان لعلي النشاشيبي جهود كبيرة وجبارة في تزعمه لهذه الاحتجاجات المظاهرات من أجل إطلاق علي عزيز.

أما عن موقع الشهيد علي النشاشيبي في هذه الجمعية فهو حلقة الوصل بين شبان العروبة والضباط العرب، وكان موضع ثقة الجميع بما يتحلى به من خلق رفيع وتواضع، يعامل الصغير بحنان عامر الكبير بكل احترام تقدير، بهذه الصفات الطيبة التف حوله شباب العروبة، وكان أقرب إلى المستشار في الجمعية، وكان اسمه يتردد في الأوساط الحكومية لكثرة نشاطاته السياسية والاجتماعية، ولهذا كان ضمن قائمة الأربعة عشر شهيداً الذين علقوا على أعواد المشانق في ساحة البرج ببيروت، ونص قرار اتهامه "أنه كان من أعضاء الجمعية الحطانية التي انقلبت أخيراً إلى جمعية الثورة العربية واللامركزية، ووحد مساعيه مع جميع الجمعيات المشكلة أخيرا للاستقلال العربي". وقبل أن نختم حديثنا عنه لا بد وأن نذكر جهوده في محاولة دمج الجمعيات والأحزاب العربية في جمعية عربية واحدة حتى تكون بمستوى المرحلة بكل تحدياتها وتحولاتها العميقة، وكان يركز في محاضراته السرية والعلنية على الاستقلال العربي، حتى تعيد الأمة العربية صورتها البهية بين الأمم.

محمود جلال البخاري

لم يبتعد لحظة واحدة عن مده القومي ولم يتخلَ عن حلمه الكبير في حق أمته في بناء كيانها ودولتها الواحدة، وكان يؤمن أن دورة الزمن قادمة محملة بالحرية والعدل وكرامة الإنسان، ولم يتقبل ذاكرته أن تكون امتدادا لعمر جيله فقط، فعمر الأمة لا يقاس بالأيام والسنين، ولكنه سعى أن يكون حرفا مضيئاً في تاريخنا النضالي والإنساني.. إنه الشهيد محمد جلال البخاري.

والده الشيخ العالم سليم البخاري، كان رئيساً لهيئة العلماء وعضوا في مجلس الشورى، وكان أيضاً من بناة النهضة الأدبية والفرية في بلا الشام، وق حمل حملة شعواء على الخرافات والبدع وعلى المرتزقة الذين يرون في الإسلام دين دروشة.

ولد محمود في مدينة دمشق عام ١٨٨٢م ويرجع لقب البخاري نسبه لأبيه، درس دراسته الأولى في مدرسة عنبر وتخرج فيها بالتفوق، كما كان لوالده أثر كبير في تثقفه وتعليمه العربية وآدابها والعلوم المساعدة لها، إضافة إلى تدريسه العلوم الشرعية والفقهية، وبعد أن تخرج في مدرسه عنبر التحق بكلية الحقوق في اسطنبول وتخرج فيها عام ١٩١٣.

في إستنبول انتسب إلى المنتدى الأدبي فشارك في نشاطاته الثقافية، وكان يناقش ما يدور مع زملائه أعضاء المنتدى الأوضاع السياسي والوضع العربي آنذاك بشكل خاص، وهذا المنتدى كان عاملاً كبيراً في تكوينه وتربيته السياسي والوطنية الصلبة، وصدر الأمر بتعيينه في محكمة بداية عجلون في الأردن، وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى صدر له أمر للالتحاق بالخدمة في المقصورة العسكرية، وبعد أن أتم مدة التدريب تم تعيينه ضابطاً احتياطياً في الديوان العرفي في دمشق، ليعمل مشاوراً عدلياًن وفي أوائل شهر يناير من عام ١٩١٥ دعي جمال باشا السفاح إلى

حفلة أقيمت تكريما للشيخ عبد العزيز شاويش في المنتدى الشرقي بدمشق، حضرها زعماء العرب وشبانهم المتنورين، وبعد أن خطب المشرفون على هذا التكريم وقف جمال باشا السفاح يلقي كلمته قائلاً:

"يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية. أحيا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام. عضوا على عربيتكم بالنواجذ ودافعوا عنها بكل قواكم، واعملوا على ترقية العرب والعروبة، جددوا مدنيتكم، قوّموا قناتكم. كونوا رجالا كاملين.

"إن البرنامج الذي عقد حزبنا عزمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيراً مما قد يخطر ببالكم. ولست لأوجس شرا من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد، بل الخوف من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين.

"ويجب علينا أن نعمل ونعمل كثيراً لإدراك هذه الغاية، فتطرد قبل كل شيء من صفوفنا أولئك المنافقين الذين باعوا وطنهم للعدو وتضيق الخناق على الذين يعملون لمصلحته".

ثم قال "واليوم أراني قادرا على أن أؤكد لكم أن الأماني، التركية والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً فالترك والعرب ليسوا سوى إخوان في غاياتهم الوطنية، وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل، تحريرهم من النير السلافي وتقويتهم.

"وإني أناشد الشبان العرب والترك قائلاً: إن هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلون فيها، فالنزاع والخلاف بين عمودي الإسلام لا بد أن يؤدي إلى سقوط ذلك الدين، ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافي".

"وإنه لمن اشد بواعث الأسف والحزن أن تنجح المحاولات الشيطانية التي يحاولها أعداء الدين والوطن في بذر بذور الشقاق بيننا، فعلى الترك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضاً".

وكان في فترة الاستراحة، وبين الكلمة الكلمة، ينشد شبان العرب النشيد العربي المعروف والمنتشر في كل مكان المختزن في ذاكرة كل عربي.

نحـــن جنـــد الله شـــبان الـــبلاد نكـــره الظلـــم ونـــأبى الاضـــطهاد

وكان للشهيد البخاري صوت متميز بين الأصواتجميعاً، وكان الموقف يشتعل بالحماس والوني، وشبان يتغنون بالعروبة وأمجاد العرب، ولما عرف جمال باشا مغازي هذا النشيد القومي قال: لا أبقاني الله في دمشق إن أبقيت شبان الخدم المقصورة فيها "وفي نفس اليوم الذي خطب فيه أصدر أمراً عسكرياً بتفريق كتيبة ضباط العرب في دمشق وعددها ٨٠ شاباً من خريجي المدارس العالية. وقد جاء بهم على أثر إعلان الحرب العظمى ودربهم ليكونوا ضباطاً. وقد أزعجته أناشيدهم الوطنية الحماسية في تلك الحلة التي قصد من ورائها أن يظهر ألوان الخداع لاستمالة الشبان العرب، ويطمئنهم حتى استكمال مخططاته تصفيتهن فأمر بحل الكتيبة وإرسال رجالها على ميادين القتال في الداردنيل القوقاس والأماكن النائية، وبأن يوضعوا في خطوط النار، فنفذ أمره، ولم ينج من رجالها سوى أفراد قلائل "وكان من ضمن هذه الكتيبة الشهيد محمود جلال البخاري، وعندما أدرك سوء نية السفاح بتشتيت الضباط العرب، فر جلال البخاري وعز التنوخي، إلى آل مريود في قرية جباثا الخشب، وأمعنا في اختفائهم وتنقلهم من مكان إلى آخر.

وكان آنذاك ثلاثة جواسيس للأتراك في قرية جباثا الخشب، يترصدون ويراقبون، فأخبر هؤلاء بوجود الفارين لدى آل مريود، والحقيقة أنه لم يكن من بيروت آل مريود سوى جلال البخاري، وعز الدين التنوخي.

وأما العريسي والشهابين والبساط، ومحمد، فقد كانوا لدى الأمير طاهر الجزائري في حوش بلاس وقد ساروا من هناك متوجهين إلى جبل الدروز.

وقد سار أحمد مريود وعلي آغا زلفو، وثلة من رجاله المسلحين يصحبهم البخاري، والتنوخي، من قرية جباتا الخشب إلى حوران، ومروا بقرية نوى كتجار حبوب، منها واصلوا سيرهم إلى عجلون، ونزلا في جبلة على شيخ عرب العبيدات (كايد المفلح) صديق أحمد مريد بضعة أيام، رحلوا بعدها إلى الزرقاء، وفي الطريق فارقهم أحمد مريود مع رجاله، وبقوا مع خاله محمد الخطيب، ليذهب بالبخاري، ورفيق التنوخي، إلى شيخ عرب الخريشات (حديثة الخريشة)، وهو من أصدقاء أحمد مريود المخلصين لعروبتهم، ولما لم يجدوه في منزله، اضطروا للنزول عند ابن عم له وهو (شاهر الخيشة) فآواهم عنده أياماً، ثم رجع خال احمد مريود، وبقي البخاري والتنوخي في منزله حتى تيسر لهما ركب ذاهب إلى الجوف، فأرسلهما شاهر معه، بعد أن أكرماه وأرضياه، استأجرا بعيراً يردفهما على التعاقب، ونزلا في الطريق المسمى (بالهزيم)؛ ومنه رحلا إلى الجوف من وادي السرحان في بادية الجوف – وبعد عناء وبلا بلغا الجوف، وبقيا فيه نحو شهر، وأمير الجوف هو (العبد عامر) من قبل نواف الشعلان، وكان قوياً ذكياً أكرم مثواهما في غيبة نواف.

ولما حل نواف في الجوف تعرفا إليه كطلاب علم، فرا من الجندية وشقائها والتجئا إليه، وكان الشهيد أحمد مريود، د أوصاه بهما خيرا عند لقائه في القنيطرة، وبقيا في ضيافة نواف، حتى حل عليهما من إخوانهم الفارين، توفيق البساط، وعمر محمد، والأمير عارف الشهابين وعبد الغني العريسي، وأخبروهما أن أحمد مريود وخاله بقيا في الهزيم، ليستقلنا متاعهم المنهوب. وجاء مذكرات الشهيد أحمد مريود: إنه في شهر تموز سنة ١٩١٥، أعد العدة للرحيل إلى الجوف ومنها إلى الرياض، وأن مريود اجتمع بالشهداء البخاري، ومحمد والبساط والشهابي والعريسي، والسيد التنوخي، في موقع (الزلف) عند عرب الغياث، ومن هناك انتقلوا إلى موقع الهزيم، على أمل أن يجدوا فيه الشيخ حديثه الخريشة، فكان عكس ذلك، فقد وجدوا فخذا من عشيرة السرحان، وتعرضوا لسلب ما يحملونه من سلاح وأمتعة ومال وخيول، حيث ظنوهم من الدروز،

فاشتغل أحمد ريود بهذه القضية، واستعاد الشيخ حديثه الخيثة والشيخ فارس القاضي شيخ عشيرة بني خالد، المسلوبات وسلمها إلى أصحابها.

"أما العريسي والشهابي ومحمد البساط، فقد حلوا في غرفة البخاري والتنوخي وباتوا جميعاً فيها تلك الليلة، وكان الفصل شتاء، وأخبروهما بأحوال فرارهم واخبرهما البخاري والتنوخي بوضعهما في الجوف، واتفقوا بأن يخبروا نوافاً بأنهم من طلاب العلم الفارين من لجيش، وأن لا يخبروه بأنهم محكومون بالإعدام، لأنه من طلاب العلم الفارين من الجيش، وان لا يخبروه بأنهم محكومون بالإعدام، لأنه يخاف الجواسيس الذين يجوسون ديار الجوف في ترحالهم من حائل إلى دمشق، فلا يأمن نواف الشعلان، أن يخبروا جمال السفاح بضيوف نواف الفارين من وجهه وقد أرسل نوافق مع عبد، يطلب عبد الغني العريسي، ذا السن الذهبي، والعباءة الجديدة المخططة، وقد ظنه زعيم الوفد الشامي، فذهب إليه العريسي، وكشف له الغطاء عن ا؛وال رفاقه جميعاً وأنهم محكومون بالإعدام، وفارين من جمال باشا، لأن البدوي لا يستغني عن الحضر، وبادية الشام لا تغني عن حاضرتها دمشق ومنها بضائعها من حوران طعامها ورغم تحذير جلال، والتنوخي لإخوانهم القادمين، بعدم الإباحة بالسر إلى نواف، فإنه طلبهما بعد رجوع العريسي، ولامهما على كتمان الحقيقة عنه، وقال لهما: كنتما اثنين، واثنان يضيعان بين السكان، أما الآن فقد أصبحتم جمعاً كبيراً لا يخفى حاله على الجواسيس ، فالأولى أن يرحل إخوانكم إلى أية بقعة من جزيرة العرب وإنه سيساعدهم على الرحيل".

"ولما أحس أحمد مريود بأن نوافاً غير راغب في بقاء البخاري والتنوخي في الجوف عزم على الرحيل، وليس له إلا ناقة وراحلة تحمل اثنين، فقال التنوخي، على الراحلة يركب اثنان، والناقة لا تحمل إلا واحد، فإما أن تناوب عليها مع أحدكما، أو يبقى أحدكما، فقال التنوخي، خذ البخاري لأنه لا يقوى على حياة البادية، وأنا أذهب إلى العراق، أو إلى حاجم ابن مهيد شيخ الفدعان الذي هو من إخوان العهد، فذهبوا بعد أسبوع إلى جهة المدينة أيضاً، ولما وصلوا لمنازل عرب الفقير، حلوا أيضاً على شيخهم (شهاب الفقير) فأخبرهم بما حل برفاقهم والقبض عليهم

في محطة مدائن صالحن فعادوا أدراجهم إلى الجوف، وقد لاقوا مشقات وعناء عظيمين من البرد الصحراوي وشظ العيش، وحينما مروا بالجوف عرفوا أن نوافا رحل على الضمير حيث واله نوري الشعلان هناك، فقد بعثوا إلى عز الدين التنوخي رسالة وهو في (سكاكة) يتهيأ للرحيل إلى العراق، ود نجا التنوخي من الإعدام لافتراقه عنهم.

وأخيراً قام أحد الشيوخ الموالين لجمال باشا السفاح بتسليم أحمد مريود، وخاله أحمد الخطيب، وجلال البخاري، والأمير طاهر الجزائري، إلى جمال باشا، فسجنوا في تكية السلطان سليم، ومن ثم نقلوا إلى عاليه.

وعندما عرف محمود البخاري أنه قد صدر عليه حكم الإعدام، ودع والده الشيخ الجليل سليم البخاري الذي كان مسجوناً مثله بكلام يفطر القلوب، وقد شجع الشاب أباه تشجيعاً مؤثراً فقال له: "يا أبت لا تخف ول تجزع إن لي إخوة يعزونك عن فقدي، وإذا مت أنا ولن تموت، والذي أرجوه لك وحرمت نفسي منه أن يطيل الله عمرك، حتى ترى بعينيك مصرع الباغين وعاقبة أهل الظلم والفساد "فسقط الوالد المسكين فاقداً صوباه من شدة تأثير كلام ابنه".

سليم الجزائري

الأميرالآي أركان حرب وأستاذ المدرسة الحربية، وبطل استرجاع أدرنة، والذي اشترك مع عزيز علي في تأسيس حزب العهد، ومؤسس الجمعية القحطانية وملقن الروح القومية في نفوس الضباط العرب في الجيش العثماني.

هو ابن محمد بن سعيد الجزائري الحسيني ولد في دمشق عام ١٨٧٩. نشأ محمد سليم وترعرع في بيت علم وتقوى، فعمه الشيخ طاهر الجزائري أشرف على تربيته مع والده، تلقى تعليمه الأولي في المدارس الابتدائية الأميرية ودرس القرآن الكريم والإملاء مبادئ العلوم ثم أدخل المكتب الرشدي العسكري حتى يتلقن مبادئ الرجولة والحزم، على الرغم من عدم موافقة والده خوفاً عليه من الانحراف، إذ كان والده يرى أن مدارس الأتراك مبعث الانحراف، فحاول أن يبعده عنها قدر المستطاع، ويظهر أن الشهيد وضع نصب عينيه من ذلك الحين غاية شريفة ترمي إلى خدمة أمته، يدل على ذلك وعده الذي صرح به مراراً أمام عمه الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري وتوسله لدخول المدرسة الإعدادية العسكرية التي كانت موصدة في وجه أكثر الأهلين. كان مدير المدرسة يومئذ صديقاً حميماً لعمه، فذهب إليه دون استشارة احد وبلغه سلامه، وأن عمه هو الذي أرسله إليه ليفسح له مكاناً في المدرسة فقبل المدير على الرغم من أن كثيراً من الضباط الترك الذين يريدون احتكار الجندية في أبنائهم في هذه المدرسة العسكرية.

وبعد الانتهاء من دروسه في المدرسة الحربية، تخرج ضابطاً من ضباط أركان الحرب، ويصف أحد أصدقا عمه هذه الفترة من حياة الجزائري العسكرية، بأنه بعد تخرجه عاد إلى وطنه "دمشق" لرؤية أهله وأصحابه، ويقول ذهبت يومئذ لزيارته لدى عمه الأستاذ من غير معرفة سابقة بسليم، فدخلت عليه في بيته في "السويقة"

فرأيته شاباً خفيف الحركة، حاد النظر، تدل هيئته على حالته العصبية وشدة ذكائه، ورأيت مسكنه بسيطاً نظيفاً يشبه المساكن التي تخرج النوابغ في بلادنا".

تم تعيينه في الدائرة العسكرية في دمشق، وعندما حدثت الفتنة الشهيرة في اليمن، بعث لإخمادها مع عزت باشا الألباني فسقط أسيراً هو ومجموعة من الضباط وبقي في الأسر بضعة أشهر، عانى فيها معاناة شديدة من المجاعة التي اجتاحت اليمن وذاق ألوانا من البؤس الجوع، حتى كاد لا يعرفه أصحابه عندما عاد من اليمن لكثرة تحوله وفقر دمه. وعلى الرغم من إخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة العثمانية لم ينج من ظلمهم، فقد كتب من اليمن رسالة إل صديق شكري العسلي يخبره فيها أن الجنود السوريين ألقوا سلاحهم أمام جيش الغمام في اليمن، وارتدوا معتذرين عن محاربة أبناء جنسهم، ولما حدث الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ اعتقد أن له دورا جديدا يلعبه هو وزملاؤه في مسيرة الحياة التي بشر بها الانقلاب العثماني الدستور، لاسيما أنهم شعروا يومئذ بالباب الذي فتح أمامهم على مصراعيه، وعرفوا أن أهم مهمات الأعمال ستقع على عاتقهم. وكان في مقدمة الذين لعبوا دوراً مهماً من أعظم الأدوار في تلك الأيام، خاصة، بعد الانتصارات التي حققها في مكدونيا، وقد تسلم زمام الأمر عدد من الضباط في سوريا ومنهم الجزائري الذي أسندت إليه الشؤون العسكرية في دائرة أركان الحرب، وكلف بالقضاء على (إبراهيم باشا الملي) الذي كان يدبر مع جنوده مؤامرة رجعية، مما حمل رجال العهد الجديد وعلى رأسهم الجزائري القضاء عليه، وبعد الانتهاء من هذه الفتنة كان هناك مؤامرة أخرى تحاك لهم في الخفاء، إن رجال العهد الجديد سيرفعون الحجاب عن النساء، وقد ثارت الغيرة في قلوب بعض المتحمسين وأخذوا يحركون بعض صغار القلوب الذين انطلت عليهم هذه الخديعة التحرش بالسيدات، مما دعا إلى اجتماع حافل في حين الميدان من أجل إطفاء هذه الفتنة، وألقى الجزائري خطبة أذهل فيها الحاضرين بما يتمتع به من ثقافة وبلاغة وحسن منطق، فعرّف الحرية أنها غاية الاستبداد لأنها تضع الناس في دائرة معينة، لا يجوز لفرد منهم أن يتعدّاها ما لم يتعرض لحرية الفرد الآخر، ولا يجوز لأحد وضع غير المداخلة في شانه ما لم يتعدى

النطاق الذي ضربته عليه الحرية، وبهذا وضع حداً للتداخلات الخارجية، ووضع حجاب المرأة ضمن هذه الدوار، حيث يكون البيت هو المسؤول عن هذه الأمور ولا يحق لأحد مهما كانت سلطته من التدخل في الشؤون العائلية.

وقد أحس بعض الرجعيين بخطورته وأخذوا يدبرون المؤامرات لـه، وكلما تخلص من واحدة تأتي أخرى، فعندما زار دمشق صاحب المنار رشيد رضا ألقى دروساً في الجامع الأموي في دمشق، اتخذ بعض الرجعيين ذلك واسطة للطعن بالجزائري لأنه على حد زعمهم هو الذي كان يشجع صاحب المنار على إلقاء دروسه المخالفة لمعتقداتهم، وقد خرج من سوريا بعد هذه الفتنة وهو يؤمن أن الاتحاديين وأعوانهم كانوا وراء إخراجه حتى يضعفوا الصوت العربي في الجيش العثماني.

سافر إلى الأستانة وعين مدرساً لمادة الجغرافية في المكتب الحربي، وكان لدروسه صدى كبير في نفوس الضباط العرب، وكان يضرب الأمثلة على القيادة العربية من تاريخ العرب المضيء أمثال خالد بن الوليد ونبوغه في القيادة العسكرية، مما جعل مدير المكتب (وهيب بك) معاتبته والتعرض له في أكثر من مرة، وكان جواب الجزائري "إن الأمم التي ليس لها أبطال في القرون الخالية تفتخر بهم ولا مدنية ترجع عليها، يجوز لها أن تستعير الأبطال الغرباء وتتغنى بأسمائهم، وهذا من صفات الأقوام الحقيرة التي لا يؤبه لها. والعربي الذي يغفل (خالد بن الوليد) ليتغنى بنابليون هو صعلوك ما ذاق الأنفة ولا عرف عزة النفس".

شغل في أواخر حياته الكثير من المناصب منها رئاسة أركان الحرب في فرقة صامعون التي كانت أيام الحرب البلقانية الأولى معسكرة في بولاير، وهذه الفرقة هي التي استرجعت أدرنه من البلغاريين بعد حوادث في الحرب البلقانية الثانية، وكان الجزائري أول ضابط عربي دخل تلك المدينة بعد وقوعها بيد البلغاريين، ثم صدر تعيينه قائداً لإحدى الآليات فيها، ثم انتخب عضواً في هيئة أركان الحرب في الدردنيل، وساهم مساهمة فعالة في رسم الخطط الحربية من أجل الدفاع عن المضائق. ثم تقرر نقله إلى أزمير بوظيفة لا تتناسب مع مؤهلاته وخبراته، فبقي هناك إلى

أن عين قائدا لسواحل سورية فسافر على عجل، ولما وصل إلا عاليه ابلغه ضابط المحطة أن الديوان العرفي يحتاجه في مسألة بسيطة فذهب معه، وهناك تم تجريده من أسلحته، وبلغ الأمر بتوقيفه، فشعر حالا بالحيلة وبالموت الزؤام الذي ينتظره هو وأحبابه أعلام الحرية والفكر والأدب الذين وجدهم داخل السجن نفسه، ومن ثم أخذ ينظم الأناشيد الحماسية في الأمة العربية، وتقدم إلى حبل المشنقة وهو مرتد بزته العسكرية، وهمّ الجلاد بأن ينزع نظارتيه فصاح به: "إليك يا هذا عني فغني أبد أن أموت وأنا مثل ما كنت آمر جنودي، قل للسافل جمال لا يسترسل في السرور إذا رآني أموت، فإن روحي لا تزال حية وستطبع في نفوس العرب محبة الوطن، ثم التفت إلى زملائه وقال: لو متنا على فراشنا لكان لنا أقرباء ميت، على هذه المشانق، حيث يولّي ألوف من الرجال النساء وجوههم شطرنا، وتقوم امة بأسرها فتبكينا دماً لا دمعاً. وتلك الأمة العربية التي تعظم حياتها بموتنا".

اتجاهاته العامة

تفتحت عين سليم الجزائري على ما يدور حوله من نشاطات الحلقات العلمية السياسية في بلاد الشام، وكان في مقدمتها "حلقة عمه المعروفة بحلقة، الشيخ طاهر الجزائري الذي عمل مفتشاً للمعارف، عمل على إصلاح نظم التعليم في سوريا، وجمع رجال العلم والمعرفة والثقافة في دمشق حوله، في حلقة أدبية ثقافية، تدعو إلى تعليم العلوم العصرية، وتعنى بتاريخ العرب وتراثهم العلمي، إلى جانب الأخذ بما يصلح من العلوم الغربية، فطابعها الظاهري طابع علمي، وباطنه سياسي.

ووقف الشيخ طاهر بكل جرأة يندد بالحكام واستبدادهم،وينتقد هو ورجال حلقته سوء الإدارة ويدعو إلى الحرية والعدل والنظام، فاتهمه خصومه بالخيانة الوطنية والعمل على فصل البلاد السورية، عن بقية المملكة، فألغت الحكومة منصبه الحكومية وعرقلت أعمال الجمعية الخيرية، ثم عينت الشيخ طاهر بعد بضع سنوات مفتشاً لدور الكتب في الشام، ولكن الحكومة المركزية لم يرق لها نهضة دمشق العلمية، وجمعياتها الأدبية، فسلمت قيادة الجيش الخام إلى أحد الموالين ممن

يضطهدون أحرار العرب ويفتشون منازلهم، خاصة أعضاء حلقة دمشق الأدبية".

وكان الضابطان الوحيدان اللذان يحضران هذه الجلسة سليم الجزائري وأسعد درويش الطرابلسي، لكنه على الرغم مما يدر في هذه الجلسة من مناقشات سياسية ساخنة إلا أن الجزائري كان من أشد المؤمنين بوحدة المصير بين العب والعثمانيين، ولقد بعث برسالة إلى أحد أصدقائه يقول: .. لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك في إخلاصهم لنا، نعم إن الاتفاق الذي أبرموه مع الزهراوي وعبد الكريم لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج إليه من إصلاحات، وإن زعم فريق من الأصدقاء أنه كجراب الكردي، يحوي كل شيء ولكن ما العمل، أيجوز لنا أن نخطئ الزهراوي وننتقده على هذا الاتفاق! أنا لست على هذا الرأي لأن الزهراوي لو لم يتفق مع الحكومة لكنا في أشد المآزق حرجاً، فإما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ويؤدي إلى نفس الغاية التي ترمي إليها وهي نيل حقوقنا من أخاننا الترك ومشاركتهم في كل ما يؤول إلى تقوية الدولة وإسعاد سكانها، أو نخلد إلى السكينة نبعد كل هذه (القرقعة) فيهزأ العالم بنا ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم، ونصير مثلا بين الناس، إن لحالة السياسية حرجة جداً أيها العزيز، فبمقدار ما يسيء الاتحاديون إلينا الآن يجب أن نحسن إليهم حرصاً على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ).

هذا هو إخلاص قادة العرب أحزابهم للاتحاديين قبل لدستور وبعد لدستور، ولم تكن أعمال الاتحاديين فظائعهم تحول دون إخلاص العرب لهم، فالحملات العسكرية التي أرسلوها إلى مختلف الولايات العربية لم تقطع الصلة التي رغب العرب في المحافظة عليها حباً في الإسلام الذي لا يفرق بين العربي والجمين ورغبة في المحافظة على كيانها القومي، خوفا من تمزقه على يد أعداء الأمة العربية والإسلامية، ونذكر أيضاً على إخلاصه لمن قتلوه ظلماً وعدواناً، أنه بعث رسالة إل صديقه شكري العسلي يحمل فيه على الجنود الدمشقيين، وعابهم لأنهم ألقوا من فيض من الشعور الذي كان مسكونا به أعلام وقادة الرأي العرب قبل فظائع جماعة الاتحاد والترقي بهم، مما أرغموا العربي بالتمسك بقوميته العربية بعد ما انتشر بلاؤهم.

الشاعر الحماسي الملتزم

الشهيد الجزائري يؤمن بأهمية الأناشيد الوطنية والحماسية في التربية وهي التي تهيء للأجيال أسباب الوعي العربي – الإسلامي والاندفاع مع مسيرة الأهداف القومية، وكأنه يتمثل القول القائل (أعطني نشيد امة، أقول لك من هي) ومؤمنا بقول أحد مشاهير الكتّاب "إن الذي يضع لحناً وطنياً لقومه يضع لهم قوانين جديدة، "فعندما خرج الجزائري من مشق ما لبث أن رأى السياسة العثمانية شبحاً جديداًن كان يتراءى له من قبل من حين إلى آخر بصورة مغشاة بعيدة، لكنه هذه المرة بدا قريباً واضحاً يكاد يلمس باليد. هذا الشبح هو الفتى الطوراني يحمل بيده سكيناً يذبح بها الأمير العربي في فراشه. ازدادت هذه الصورة وضوحاً بزيارة الشهيد ولاية (أضنة) واطلاعه على المذبحة الارمنية، التي حدثت هناك في أبريل سنة ١٩٠٩. والظاهرة أن المعاملة القظيعة التي عومل بها الأرمن في تلك المدّة نبهت شعوره إلى الاضطهادات التي تحملها الأقوام المسودة عادة. هناك تتبع حركات رجال الثورة واطلع على أناشيدهم الحماسية ورواياتهم التي مثلوا بها مقتل آخر ملوكم "كليكيا"،، وهناك نظم أول نشيد عربي حماسي ملحن على طريقة بعض تلك الألحان:

نحـــــــن أبنـــــــــاء الألى ... نـــــال مجـــــداً وعـــــلا
نـــسل قحطـــــان فاصـــــلا ... لـــبس ترضـــى الأســـــر
قـــد عـــشقنا المـــوت مـــن ... صـــغر فلـــن نـــرض بذلـــه
كـــل مـــا ينبغـــي علينـــا ... أمـــره بـــالظلم قـــل لـــه

حاشـــا ترضـــــى الأســـــر

نـــسل قحطـــان الأبـــي ... جـــد كـــل العـــرب
لم يجـــد منـــا المعـــادي ... غـــير طعـــن الـــسّمر
هـــذه آســـفارنا ... كلـــها فخـــر لنـــا

كلـــــــها فخــــــر لنــــــا أصـــــبحت قانونـنـــــــا

المجـــــــــــــــد أو فــــــــــــــــالقبر

وهذا النشيد أقبلت عليه المدارس العربية والشارع العربي إقبالاً كبيراً حتى كاد يصير النشيد الوطني أنشودة تُغنى على كل لسان عربي آنذاك. وهذا النشيد الأول الذي افتخر بأمجاد العرب وحضارتهم العريقة، فهو يبتغي نور الحياة بعزة وكرامة أو الموت بكبرياء وأنفة، فأراد من هذا النشيد أن يبعث في نفوس الشبيبة العربية العزم ويكون حداء المجاهدين وترانيم الثائرين.

خــــــضبوا الأرض بــــــدم فالعــــــدى خــــانوا الـــــذممْ

واذكــــــروا الماضـــــي الأشـــــم واجعلــــوا البــــيض حكـــــم

طوقـــــــــوا أجيادهـــــــــا

متنــــــــــوا أعـــــــــــضادها

واغمـــــــــــدوا في القمــــــــــــم

أطمـــــع الحلـــــم العــــــدى فاستـــــــثاروا الأســــــدا

ولقـــــــد ضــــــلوا الهــــــدى فاســــــتطابوا مــــــوردا

دونـــــــــه الـــــــــصيد الحمـــــــاه

والمغــــــــــــاوير الكمــــــــــــاه

تبتغــــــــــي نــــــــور الحيــــــــاة

بـــــــين أطــــــلال الـــــــردى

إن كـــــــــل الأرب في شـــــــفار القــــــــضب

فابـــــــدأوا للطلــــــــب كـــــــل ليــــــث أغلـــــــب

فربوها الخيل الجياد
وانفضوا البيض الحداد
وارفعوا مجد البلاد
فوق هام الشهب

ومن الجدير ذكره في هذا الباب أن من أسباب إعدام سليم الجزائري كما جاء في كتاب إيضاحات الديوان العرفي، أنه واحد من الرؤساء الوحيدين الذين أولدوا فكرة الاستقلال، ونشيد المدرج في متن الكتاب يوضح كل آماله. حكم عليه بالإعدام والنشيد الذي يشير إليه الكتاب هو:

ولتدم هذي البنية	تنمو وتغدو صبية
أزفها شجاعاً	فلا ترى مسبيه
تلدن كل همام	من فارس مقدام
يمزق الطغام	بهمة عربية
تلدن كل عزيز	يجود بالنفيس
يدق هام خسيس	بشجاعة وحمية
يشعل نار الحرب	لدق عن اللب
ونيل عز العرب	من أمة تركية

وقد اخترع "بركاراً" سماه البركار العربي يسم الرسم الهندسية على اختلافها، وقرر أن يرسل إلى أوروبا من يسجله له باسمه ولكن الحرب حالت دون ذلك.

أمين لطفي الحافظ

إن للاستبداد تاريخاً من الظلم والقهر في تخريب المدن العربية، لعلنا نذكر من هذه المدن بيروت وحماة وحمص، والكرك والطفيلة ويافا والشوبك، وكانت دمشق في مقدمة هذه المدن جميعاً، وقد دفعت هذه المدينة الصابرة والمجاهدة بفلذات أكبادها إلى المواجهة والانتفاضة، ودفعت بأعلامها إلى أعلى الذرى في المواجهة، وهذه المدينة التي لا يقرع الخوف أبداً أبوابها، كانت مرآة لصفاء الروح القومية في ذلك الزمن، دفعت برموزها لتعيد صياغة التاريخ العربي من جديد، ومن الذين دفعتهم الشهيد أمين لطفي الحافظ.

ولد أمين لطفي الحافظ في دمشق من أسرة عربية الوجه واللسان، وكانت هذه العائلة تسكن في القنوات، ويرجع لقب (الحافظ) نسبة إلى والده الذي يعمل في عطارة، ثم فقد البصر فحفظ القرآن الكريم وأصبح عماماً كبيراً وتولى إمامة جامع المشيرية في دمشق.

ولد أمين عام ١٨٧٩م، ودرس المرحلة الابتدائية والرشدية العسكرية في دمشق، ثم انتسب إلى المدرسة الحربية العليا في إستنبول، وكان هذا طموحه منذ صغره أن يدخل في لمدرسة الحربية، وتخرج منها ليلبي طموحه الذي طالما راوده منذ صغره في أن يكون ضابطاً مهندساً، وتم تعيينه ضابطاً في المشيرية العسكرية في دمشق.

انضم إلى حزبي العهد والقحطانية وتشرب مبادئهما القومية الكبيرة، وتمنى أن يرى بلاده العربية محررة، وكواكب مضيئة ليشهد مخاض الأرض يوم تسعى إليها الأمة من كل فج عميق، ولذلك كان يعمل بوح الفريق الواحد مع زملائه في تثقيف شباب الأمة عن طريق المسرحيات التي يشارك في تأليفها وإخراجها وتعديل

نصوصها، ويجمع ريعها لصرفه في الأعمال الوطنية والخيرية، وكان للمسرحيات أثر كبير في تثقيف الشباب، وخاصة أنها كانت مستمدة من أعلام الإسلام والمجاهدين الذين حرروا الإنسان العربي المسلم من الاستبداد والظلم، مثل صلاح الدين الأيوبي، وخالد بن الوليد، وطارق بن زياد وسواهم، وتنبهت الحكومة التركية إلى هذه المسرحيات التي تبث روح القومية العربية في نفوس شبان الأمة، وتتعرض للسياسة والأتراك، فاصطدم مع الحكم العسكري في دمشق، فنقل إلى حلب ظل فيها حتى الحرب العالمية الأولى، ونقل إلى جمعية القوقاس بقصد التخلص منه والقضاء عليه، واشترك في ماركها، وكان آنذاك برتبة الميرالاي في مدينة (بوزفار).

لم يكن أمين لطفي الحافظ مهندسا تقليدياً بل مبدعا في تخصصه، فقد اشرف على بناء الخط الحجازي، وعلى بناء دار الحكومة في درعا كما عهد له بتنظيم خرائط طبوغرافية لتحصينات قلعة الدردنيل، وذاع صيته في إتقانه عمله، وعبقريته الهندسية في البلد، مما جعل البعثة الأفغانية تطلبه من الحكومة من أجل إعداد الخرائط للأفغان، وكان يجمع بين الهندسة وموهبة الإبداع الأدبي بتأليف الروايات والمسرحيات الهادفة، لإثارة الوعي عند شباب الأمة، ولكننا لم نحظ بواحدة منها بسبب حرقها.وسيق من جهة القوقاس وهو يدافع عن الدولة العثمانية إلى الديوان العرفي الحربي في عاليه، وكان يتقن اللغة الفرنسية والإنكليزية والأرمنية والفارسية والتركية، بالإضافة إلى أنه كان ضليعاً في العربية يكتب بها المقالات والروايات والمسرحيات التي تضيء عتمة الزمن.

ونص قرار اتهامه "أنه كان رئيساً لفرع جمعية العهد بحلب وقد اتهم أيضاً أنه بدد لتقير العام ألقى الفساد بين الضباط العرب".

وفي صباح السادس من أيار عام ١٩١٦م، لما أعدم توفيق البساط التفت رضا باشا إلى أحد الشرطة وقال له من بقي عندكم من المحكومين؟ فأجابه – ضابطان من كبار ضباط العرب في الجيش العثماني، ومن أركان حرب الجيش، فلما سمع رضا باشا اسم الضابطين نهض مسرعاً إلى دار الشرطة وقابل الضابطين ودامت المقابلة

لرضا باشا: ليقل لنا الديوان العرفي على الأقل كيف حكم علينا بالإعدام، ولماذا لم يستطقونا؟ لماذا لم يسمعوا كلامنا؟ أهذا ه جزاء خدمتنا للدولة؟ وأخيراً قال لهما رضا باشا:

– سأخبر الدولة العليا بشان العفو عنكما.. وجلس حالا إلى التلفون وطلب مخابرة جمال باشا فأجيب أنه متغيب وأن فخري باشا وحده في القيادة، فطلب محادثته ودامت المحادثة عشر دقائق، حاول رضا باشا في أثنائها طلب العفو عن الشهيدين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش العثماني، غير أن الجواب كان يرن دائماً من بوق التلفون بهذه الكلمة – أو لماذا (غير ممكن).

ولما يئس رضا باشا من استجداء العفو عنهما التفت إلى سليم الجزائري وقال له متأثرا – ماذا تريد أن أفعل بعد الآن يا صدقي! تعال أنت خاطب فخري باشان فاقترب سليم من جهاز التلفون وطلب مخابرة فخري فلم يسمع غير هذه الكلمة – أولماز! فرفع يده مهدداً غاضباً ورمى الجهاز فحطمه والتفت إلى رفيقه وقال له: هلم بنا..

وتقدم رضا باشا من المرحوم سليم الجزائري فصافحه وعاد أدراجه ليحضر مشهد إعدامه بصفته الرسمية.

وكان الجزائري مهيباً محترماً في الجيش حتى أن الضباط كانوا يحترمونه ويهابونه وهو في الديوان العرفين سجنين، بل إن رهبتهم منه لم تنقص حتى ساعة إعدامه.

ومشى الضابطان معهما بثيابهما العسكرية، ومهامز أحذيتهما الطويلة، ترن على بلاط الشارع كان سليم الجزائري يرد نشيده المشهور..

ولما وصل الرفيقان أمام المشنقة، كان قد مضى ساعة على إعدام الأثنى عشر شهيداً قبلهم، كانت أنوار الفجر قد انبسطت على بيروت المرعوبة الحزينة، وحاول البوليس أن ينزع (قلبق) الشهيدين عن رأسيهما والشارات العسكرية عن أكتافهما

فأبيا، وأمر رضا باشا البوليس أن يتركهما على حالهما، فصعد المرحوم سليم أولا إلى منصة الإعدام ونظر إلى الحضور من تحت نظارتيه البلورتين بعينين تكاد البطولة الصادقة، تلمس خلالها لمعانهما، ثم قال لرضا باشا – قل لهذا الخنزير الكلب جمال باشا أن لا يفرح بموتي، لأن روحي ستظل حية وتعلّم أبناء البلاد من وراء القبر دروس الوطنية وبغض الأتراك.

ولما جاء البوليس ليضع الحبل بعنقه أراد أن ينزع نظارتيه عن عينيه فمانع وقال لهم بنبرة الأمر:

– إعدموني على حالي كما عشت لأنني لا أيد أن أموت وفيّ شيء ناقص.

فلم يستطع البوليس لا الطاعة، وقضى ذلك الشهيد البطل في الثوب الذي كان يلبسه وهو يقود الجيوش!

ولما جاء ور المرحوم أمين لطفي صعد إلى منصة الإعدام وهو يضحك ويردد النكات المضحكة هازئاً بالدولة التركية. وارتبك البوليس في وضع الحبل في عنق الشهيد فالتفت إليه وقال له ساخراً باللهجة المصرية:

– ألم تُعَلّمْ طرق الإعدام كما يجب يا واد؟ ضع لحبل في عنقي بفن ونزاكة على الأقل جزاء خدمتنا للدولة.

ولما لم يحسن البوليس وضع الحبل، أخذ المرحوم منه الحبل ووضعه هو بنفسه في عنقه، ولكن البولي رفس الكرسي من تحت رجليه قبل أن يمكّن الشهيد الحبل من جوزة العنق، فهوى وظل يتعذب مدة عشر دقائق.

المصادر والمراجع

١- أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق، القاهرة ١٩٥٣.

٢- إبراهيم السعافين، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ١٨٧٨ – ١٩٦٧، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية ١٩٨٠.

٣- أدهم الجندي شهداء الحرب العالمية الكبرى، مطبعة العروبة ١٩٦٠ دمشق.

٤- أسعد داغر: ثورة العرب مطبعة التقدم القاهرة ١٩٣٥ز

٥- أحمد جمال باشا، إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المشكل بعاليه، مطبعة طنين ١٣٣٤هـ.

٦- أحمد جمال باشا، المذكرات، ترجمة علي أحمد شكري، مصر ١٩٢٣.

٧- د. إحسان عسكر، نشأة الصحافة السورية، ط١ القاهرة.

٨- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، م ٢ دار إحياء الكتب العربية بمصر.

٩- د. جودت الركابي جميل سلطان، الإرث الفكري للشيخ عبد الحميد الزهراوي، دمشق ١٩٦٣.

١٠-جميل صدقي الزهاوي، ديوان جميل صدقي الزهاوي، المجلد الأول، دار العودة، بيروت ١٩٧٢.

١١-د. خالد الكركي، أوراق عربية، المؤسسة الصحيفة الأردنية ١٩٩٠.

١٢-رجاء النقاش أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، بيروت دار القلم، ١٩٧١.

١٣-علي سلطان، تاريخ سوريا ١٩٠٨-١٩١٨، دار طلاس ١٩٨٧.

١٤-عصام محمد شبارو، ثورة العرب ضد الأتراك مقدماتها، أسبابها، نتائجها، دار مصباح الفكر والنشر التوزيع ١٩٨٧.

١٥-سليمان الموسى، الحركة العربية، دار النهار للنشر، بيروت ط ١ ١٩٧٠.

١٦-محمود عباس العقاد، عبقرية الصديق، دار القلم، بيروت.

١٧-عنبرة سلام الخالدين، جولة في الذكريات، بين لبنان وفلسطين دار النهار، بيروت.

١٨-د. سهيلة الريماوي، جمعية العربية الفتاة السرية، دراسة وثائقية ١٩٠٩ – ١٩١٨، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ١٩٨٨.

١٩-شاكر مصطفى/ محاضرات عن القصة في سورية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٨.

٢٠-فوزي الخطيب، محمد الشريقي حياته وآثاره، دار الينابيع للنشر والتوزيع ١٩٩٣.

٢١-قاسم محمد صالحن قاسم محمد الروع، النهضة العربية الكبرى – دراسات وأبحاث.

٢٢-فؤاد اردن، خطرات سوريا خلال الحرب العالمية الأولى ١٩٥٤، القدس.

٢٣-فالح دقي ثاي "زيتين داعي (جبل الزيتون)" ١٩٣٥، القدس.

٢٤-قدري قلعجي/ جيل الفداء قصة الثورة العربية الكبرى نهضة العرب، دار الكاتب العربي.

٢٥-فايز الغصين، مذكراتي عن الثورة العربية، دمشق ١٩٣٩.

٢٦-اللجنة العليا لحزب اللامركزية، المؤتمر العربي الأول، حزيران سنة ١٩١٣ ط١.

٢٧-محب الدين الخطيب، الجيل الذي عاصر بعث العروبة.

٢٨-مخطوط، مركز الوثائق الجامعة الأردنية.

٢٩-د. محمد الحش، أديب العربية إسعاف النشاشيبي حياته وفكره وأدبه، وزارة الثقافة، ١٩٩٨.

٣٠-مصطفى الشهابي، القومي العربية وتاريخ وقوافلها ومراحله ط٢، ١٩٦١.

٣١-يوسف العظم، الإعلام العربي.

٣٢-ناجي علوش، مختارات المقيد، دار الطليعة – بيروت، ١٩٨١.

٣٣-ثورة العرب الكبرى بقلم عضو بجمعية عربية سرية ط ١، مطابع أبي الفداء حماه ١٩١٦ – ط٢ وزارة الثقافة، عمان ١٩٩١.

المجلات والجرائد العربية

١- المجلات:

- مجلة أفكار (الأردنية) ع (١٣) ١٩٦٧.
- مجلة البحث التاريخي، ١٩٧٩ – ١٩٨٧، حمص.
- مجلة الحديث، ١٩٥٢، دمشق.
- مجلة دراسات تاريخية، ١٩٨٢ – ١٩٨٦، دمشق.
- مجلة الزهراء، ١٣٣٤ هـ القاهرة.
- مجلة العربي ع (٣) ١٩٦١.
- مجلة العمران، ١٩١٢، القاهرة.
- مجلة الفتح، ١٩٤٨، القاهرة.
- مجلة القبلة، ١٩١٧ – ١٩١٩، مكة.
- مجلة المشرق، ١٩٠٩ – ١٩٢٣، القاهرة.
- مجلة المقتطف، ١٩٠٩ – ١٩١٦، القاهرة.
- مجلة المنار، ١٩٠٩ – ١٩٣٥، القاهرة.

٢- الجرائد:

- جريدة الاتحاد العثماني، ١٩١٠ – ١٩١٢، بيروت.
- جريدة الإخاء، ١٩١٠-١٩١٣، حماة.
- جريدة الإصلاح، ١٩١٣.
- جريدة الأهرام، ١٩١٢ – ١٩١٨، القاهرة.
- جريدة الشرق ملحق، ٦ أيار ١٩١٦، دار الوثائق التاريخية – دمشق.
- جريدة الكواكب (١٩١٦-١٩١٧) القاهرة.
- جريدة المفيد، ١٩١٣ – ١٩١٤، بيروت.
- المقطم، ١٩١٣، القاهرة.
- المؤيد، ١٩٠٩ – ١٩١٣، القاهرة.

المراجع الاجنبية

- A Jouri N. Le Reveil La Nation Arab dans L "Asie. Paris ١٩٠٥.
- Encyclopedia Britanic ١٩٦٥.
- Cumming H. France – British Rivalry in the Post Wat, Near East. the decline of French Influence, ١٩١٤ – ١٩٢٣, London ١٩٣١.
- Hayrami, A.H., Syria and Lebanon. London a oxford university ١٩٤٦.
- Khaddouri Majid: Political Trends in the Arab World. Baltimore "Hopkins" ١٩٧٠.
- Lammence S.G. La Syria Precis histirique Histirique. Beiruth ١٩١٩.
- Longrigg. H.S: Syria and Lebanon Under French Mandate, Oxford ١٩٥٨.
- Poincare h. Ay Service De La France. Paris ١٩٣٤.
- SAAB. H. the Federalists of the Ottoman Empire. Amsterdam ١٩٥٨.
- Storrs Ronald, Orientations, London ١٩٤٥.
- Tibawi Al, a Modern History of Syria, London ١٩٦٩.
- Yong, h.: the Independent Arab, London ١٩٣٣.
- Z.N. Zein: the Struggle for Arab Independence Beiruth ١٩٦٠.
- Z.N.Z: Arab – Turkish Relations and the Emergene of Arab Nation – Alism Beiruth ١٩٥٨.
- Ziadeh Nicola: Syria and Lebanon, London ١٩٥٦.

صدر للمؤلف

- الطفيلة.. الإنسان والتاريخ، ١٩٨٥.
- إبراهيم المبيضين – حياته وشعره، ١٩٨٦.
- شعر النجاشي الحارثي، جمع وتقديم ودراسة، ١٩٨٩.
- محمد المحيسن – حياته وآثاره ١٩٨٩.
- شعر ابن جبير (تحقيق)، ١٩٩٠.
- محمد الشريقي – حياته وآثاره، ١٩٩٣.
- جمع وتقديم مائة مشكلة ومشكلة – ضيف الله الحمود، ١٩٩٤.
- ضيف الله الحمود – حياته وشعره، ١٩٩٦.
- أمواج على الأثير (دراسة في أدب تيسير سبول غير المنشور)، ١٩٩٧.
- دليل الرحلات المدرسية (مؤلف مشترك)، ١٩٩٧.
- أدباء عرب – دراسات في الأدب العربي الحديث، ١٩٩٨.
- شهداء النهضة العربية، منشورات أمانة عمان الكبرى، ١٩٩٩.

المحتويات

الرقم	الاسم	الصفحة	الرقم	الاسم	الصفحة
١-	تقديم	٥	١٩-	رفيق رزق سلوم	١٢٣
٢-	المقدمة	٧	٢٠-	رشدي الشمعة	١٣٣
٣-	عبد الكريم الخليل	١٥	٢١-	بترو بالي	١٤١
٤-	محمد المحمصاني	٢٧	٢٢-	جورجي الحداد	١٤٥
٥-	محمود المحمصاني	٣٣	٢٣-	سعيد عقل	١٤٩
٦-	عبد القادر الخرساء	٣٧	٢٤-	عمر حمد	١٥٣
٧-	نور الدين القاضي	٤١	٢٥-	عبد الغني العريسي	١٦١
٨-	سليم أحمد عبد الهادي	٤٥	٢٦-	الأمير عارف الشهابي	١٧٩
٩-	محمود نجا عجم	٥٣	٢٧-	الشيخ أحمد طبارة	١٩٣
١٠-	محمد مسلم عابدين	٥٧	٢٨-	توفيق البساط	٢٠١
١١-	نايف تللو	٦٣	٢٩-	سيف الدين الخطيب	٢٠٥
١٢-	صالح حيدر	٦٦	٣٠-	علي محمد حاج الشاشي	٢٠٩
١٣-	علي الأرمنازي	٦٩	٣١-	محمود جلال البخاري	٢١٣
١٤-	شفيق مؤيد العظم	٧٥	٣٢-	سليم الجزائري	٢١٩
١٥-	عبد الحميد الزهراوي	٨١	٣٣-	أمين لطفي الحافظ	٢٢٧
١٦-	الأمير عمر الجزائري	١٠١	٢٤-	المصادر والمراجع	٢٣١
١٧-	شكري العسلي	١٠٣	٢٥-	صدر للمؤلف	٢٣٦
١٨-	عبد الوهاب الإنجليزي	١١٧			